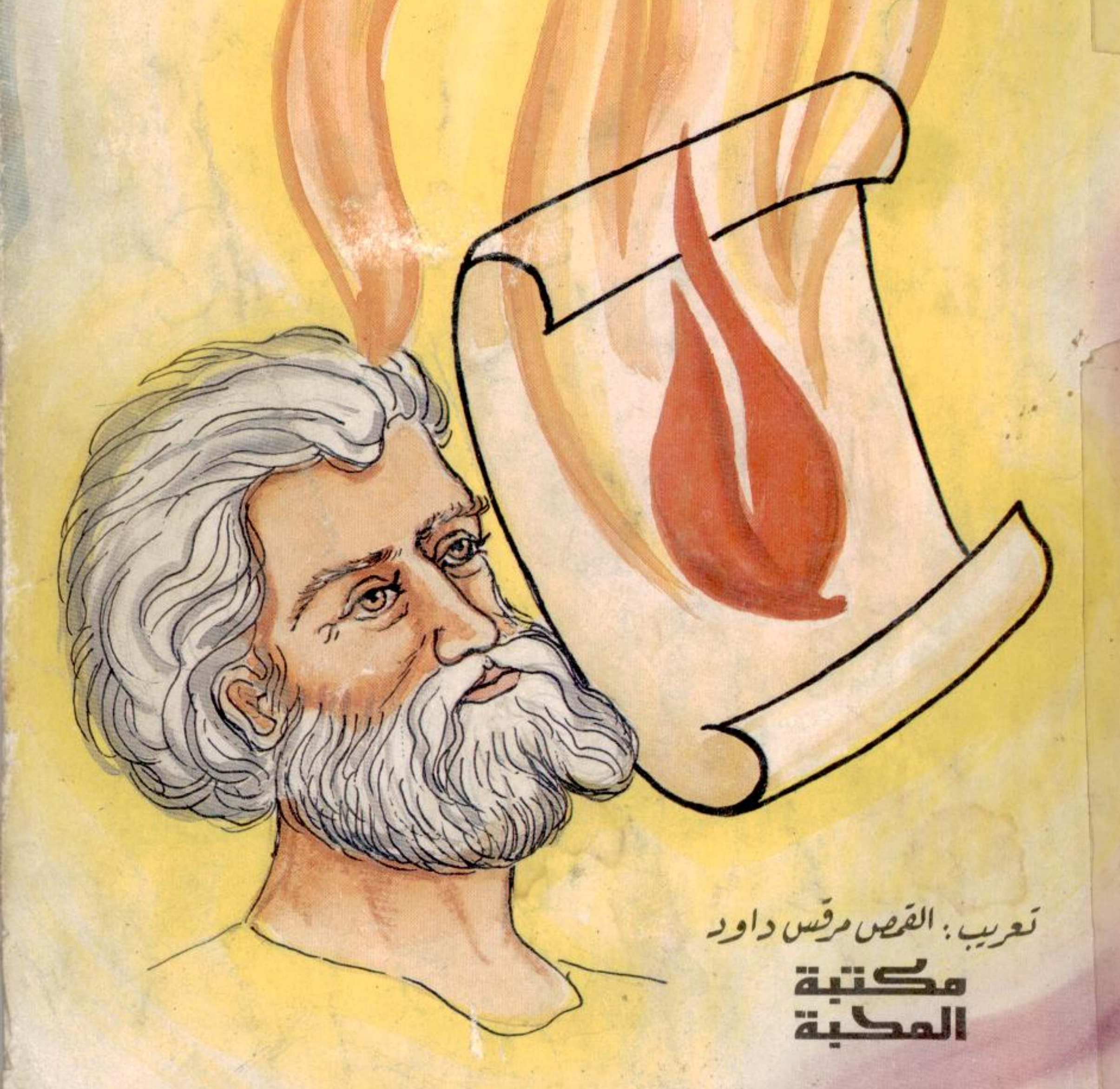
النَّارُ المُمَحِّصَة

تفسير لرسالة بطرس الأولى

تأليف : ف . ب . ماير



تعريب : القمص مرقس داود

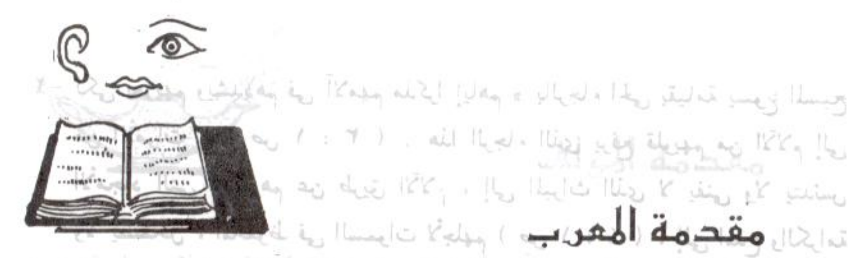
مكتبة المحبة

النار الممحّصة

تفسير لرسالة
بطرس الأولى

تأليف
ف. ب. ماير
تعريب
القس مرقس داود

الناشر
مكتبة المحبة



مقدمة المعرب

كتب بطرس الرسول رسالته الأولى هذه إلى « المتغربين من شتات بنتس وغلاطية وكبدوكية وآسيا وبيثينية » أى إلى المسيحيين فى تلك النواحى ، فقد كان كل مسيحى يعتبر غريبا ونزيلا على الأرض .

حلما ظهرت المسيحية قوبلت بالاضطهاد العنيف ، وفقا لما سبق أن أنبأ به المسيح تلاميذه ، سواء كان هذا الاضطهاد من اليهود أو من الملوك والأباطرة . فقد قتل اليهود استفانوس (أع ٧) ، ثم قتل هيرودس يعقوب أسقف أورشليم ، وسجن بطرس تمهيدا لقتله (أع ١٢) . واشتد الاضطهاد أيام نيرون الذى أشعل النيران فى روما فى ١٩ يوليو سنة ٦٤ م واتهم المسيحيين بإشعالها ، فاضطهدهم بعنف وقسوة ، حتى أنه قتل بولس وبطرس ، وهما أكبر قادة المسيحية .

ولهذا كتب بطرس الرسول هذه الرسالة لمسيحيى تلك النواحى التى كانت جزءا من آسيا الصغرى تقع فى الشمال الشرقى :

١- ليقدم لهم النصيحة بأن لا يستغربوا الآلام التى حلت بهم أو التى ستحل بهم : « لا تستغربوا البلوى المحرقة التى بينكم حادثة لأجل امتحانكم كأنه أصابكم أمر غريب » (ص ٤ : ١٢) . فيكفيهم أن يكونوا كسيدهم ، لأنه ليس العبد أفضل من سيده ، ولا التلميذ أفضل من معلمه ، « فإن المسيح أيضا تألم لأجلنا تاركا لنا مثالا لكى تتبعوا خطواته » مع أنه « لم يفعل خطية ولا وُجد فى فمه مكر » (ص ٢ : ٢١ و ٢٢) .

٢- لكى يعزيهم ويشددهم فى آلامهم مذكرا إياهم « بالرجاء الحى بقيامة يسوع المسيح من الأموات » (ص ١ : ٣) . هذا الرجاء الذى يرفع قلوبهم من الآلام إلى الأمجاد التى تنتظرهم عن طريق الآلام ، إلى الميراث الذى لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل ، المحفوظ فى السموات لأجلهم (ص ١ : ٤) ، إلى المدح والكرامة والمجد عند استعلان يسوع المسيح (ص ١ : ٧) .

إن كان بولس قد دعى « رسول الإيمان »، ويعقوب دعى « رسول الأعمال » ويوحنا دعى « رسول المحبة » ، فقد دعى بطرس « رسول الرجاء » ، ودعيت رسالته هذه « رسالة الرجاء » .

٣- لكى يحثهم على الصبر واحتمال التجارب مهما اشتدت ، والثبات على الإيمان حتى ولو كان إيمانهم « يمتحن بالنار » (ص ١ : ٧) ، وعلى التمسك بحياة القداسة وإتمام واجباتهم كمسيحيين ، فيسكتوا افتراءات أعدائهم .

وقد حثهم أيضا على الخضوع لكل ترتيب بشرى ، أى للملوك والولاة والحكام ، وتوقيرهم على أساس أنهم مرتبون من قِبَلِ الله (ص ٢ : ١٣-١٧).

وإن كانت الحياة لا يمكن أن تخلو من ضيقات وآلام ، فخليق بنا أن ندرس هذه الرسالة دواما لكى تعزينا فى شدائدنا وضيقاتنا ، وأن نقرأ بإمعان هذا الكتاب الذى أضعه بين يدى القدير ، متوسلا إليه أن يجعله واسطة لتمجيد اسمه القدوس ، وبنيان وتعزية النفوس .

القس مرقس داود

القاهرة فى :
٢٠ مايـو ١٩٧١
١٢ بشنس ١٦٨٧





مقدمة المؤلف

لم يقصد بهذا التفسير أن يكون تفسيرا حرفيا كاملا شاملا ، بل قصد به استخلاص بعض النصائح والتعزيات الروحية من كلمات الرسول المتألقة ، التى تقدم المعونة للمؤمنين فى ظروفهم المختلفة التى يجتازونها فى حياتهم اليومية .

بعد أن قدمت هذا التفسير أثناء خدمتى الرعوية نشر أسبوعيا على صفحات مجلة « المسيحى » . وتلبية لطلبات الكثيرين ، ها أنا أقدمه فى هذا الكتاب .

لم أفكر قط عند تقديم أى تفسير فى، إجهاد عقول سامعىَّ بآراء المفسرين المختلفة عن المواضيع المتباينة التى تواجهنا فى كل فقرة تقريبا . لكننى اعتدت بالأحرى أن أقرأ كل ما يصل إليه ذهنى ، وبعد ذلك أدوّن ملاحظاتى العامة بكيفية واضحة وبسيطة . وهذا ما اتبعته فى هذا الكتاب .

استعنت كثيرا بتفسير ليتون [١] الرائع ، واقتبست الكثير من هذا الكنز الروحى النفيس . والواقع أنه كلما وجد القارىء أى اقتباس دون الإشارة إلى مرجعه وجب أن يدرك أنه مقتبس من هذا المرجع الرائع . أعتقد بأننى اعترفت بأننى مديون لذلك المؤلف كلما وردت الكلمات بعينها . لكن من ذا الذى يستطيع أن يدرك مصدر ربوات الآراء التى أصبحت آراءنا الشخصية بسبب كثرة استخدامها .

وإذ دونت هذا التفسير وسط مشاغل الخدمة الكثيرة ، فإنه من المستحيل تقدير البركات التى نلتها من التأمل فى أعماق هذه الرسالة الرائعة . ورجائى المُلحّ أن ينقل هذا التفسير للآخرين بعض البركات التى حصلت عليها شخصيا أثناء إعداد هذا الكتاب .

ف. ب. ماير

---

(١) Leighton's Commentary

١ : الافتتاحية

« بطرس رسول يسوع المسيح إلى المتغربين من شتات بنتس وغلاطية وكبادوكية وآسيا وبيثينية المختارين ، بمقتضى علم الله الآب السابق فى تقديس الروح للطاعة ورش دم يسوع المسيح : لتكثر لكم النعمة والسلام » (١ بط ١ : ١و٢) .

كانت هذه الرسالة وليدة دموع كثيرة وأحزان متراكمة . والأرجح أنها كتبت حوالى ٦٥ م ، حيث كان أتباع يسوع الناصرى يقابَلون بكراهية شديدة ، وكان « بيت الله » يجتاز عاصفة عنيفة من الآلام والاضطهاد (ص ٤ : ١٧) . كان التلاميذ قد بدأوا فعلا يتعلمون بالاختبار المرير أن يقتفوا خطوات سيدهم فى طريق الصليب ، لكى يصلوا إلى نور صباح القيامة ، وبدأوا يتعلمون بأن لا يتوقعوا معاملة أفضل مما لقى معلمهم . لقد كانوا فى حاجة إلى تعزيـة ، وحث على الصبر ، وعلى الاحتمال بشجاعة ، وهذه أمدّهم بها روح الله القدوس عن طريق هذه الرسالة .

يندر أن يوجد فى الكتاب المقدس جزء يقرأه المتألمون والمجرَّبون بشغف كما يقرأون هذه الرسالة . لقد قرأها بلذة وتأمل فيها بعمق الذين تشتتوا فى بلاد سحيقة وحرموا من كل عطف بشرى ، والمسافرون والمتغربون ، والمؤمنون المضطهدون والمتألمون ، المطاردون فى المغاير وشقوق الأرض ، والذين أعاقتهم أمراضهم وتقدمهم فى السن عن الذهاب إلى الكنيسة .

إن من يدرس حياة الرسول بطرس الأولى قد يرى أنه يكاد يكون مستحيلا أن ذلك الشخص المندفع ، الخشن الطبع ، السريع الحركة ، قد اختير ليكتب هذه الكلمات التى تعتبر من أرق ما وقع على آذان المؤمنين المتألمين المضطهدين ، وما أكثرها باعثا على التعزية . لكن هذا ما حدث . ونحن ليس لنا إلا أن نستنتج بأن ذلك الشخص العنيف لا بد أن يكون قد تألم قبل أن تلين طبيعته وترق ، وقبل أن يتضع ، لكى يؤهَّل لكتابة أرق كلمات التعزية الإلهية . كان رسول يسوع المسيح هذا وقت كتابة هذه الرسالة يختلف كثيرا عن صياد السمك الذى يمنطق ذاته فى أعمال حياته الأولى ، وعن التلميذ الذى ترك كل شيء ليتبع السيد بغيرة شديدة وحماس قوى . لقد أصقلته المحن والتجارب ، وعلمته السنون الطويلة الكثير من الدروس . علمته كيف ينبذ حياة الاعتماد على ذاته ويتعلق بمن هو أقوى منه ، أن ينبذ حكمته الخائرة ليتحلى بحكمة أفضل . لقد هذبته الآلام والأحزان ، وخلصته من حدة الطبع ومن صفاته الأخرى المعطلة . ويمكن القول أنه قد تجددت حياته أخيرا لكى يصلح بأن يشدد إخوته (لو ٢٢ : ٣٢) .

نحن الآن نعجز عن أن ندرك تاريخ حياته فى الفترة بين كتابة هذه الرسالة وبين اللحظة التى رأيناه فيها يخرج من السجن فى أورشليم (أع ١٢ : ١٩) ، أو اللحظة التى أثار فيها غضب بولس الرسول فى أنطاكية (غل ٢ : ١١) . لم يدوّن لنا الكتاب المقدس أى شيء عن كيف قضى تلك السنوات . ومع ذلك فنظرا لأنه تحدث بدالة قوية مع المتغربين فى شتات آسيا الصغرى ، الذين ربما يكون الكثيرون منهم قد تأثروا بكلماته التى سمعوها منه يوم الخمسين (قارن الآية الأولى من هذه الرسالة بما

ورد فى أع ٢ : ٩) ، فيحق لنا أن نستنتج بأنه تجول مع زوجته (١ كو ٩ : ٥) بعض الوقت فى تلك الأقاليم ، وقضى وقتا أطول فى المدينة الجديدة التى أقيمت مكان بابل القديمة (ص ٥ : ١٣) .

كُتبت هذه الرسالة هناك . ولعل الترتيب الذى روعى فى ذكر البلاد المدونة أسماؤها هنا يتفق مع وضعها الجغرافى وقتئذ .

١- لمن كُتبت الرسالة

« إلى المتغربين فى الشتات » . تبين هذه الكلمات بوضوح أن المقصود بهؤلاء المتغربين هم اليهود . فى الوقت الذى كانت فيه الأقاليم التى سوف تحتلها روما فيما بعد تتناثر فيها بعض الأكواخ الحقيرة ، كان ملك أشور منشغلا فى سبى مملكة إسرائيل (٢ مل ١٧ : ٦ إلخ) . ظل هؤلاء فى الأسر جيلا ونصف قبل أن تُسبى مملكة يهوذا إلى بابل . والأرجح جدا أن أسرى مملكة إسرائيل لم يتمتعوا بالأمر الذى أصدره كورش لإعادة مسببى بابل إلى بلادهم . بل استمروا فى البلاد التى استوطنوها ، وارتحل الكثيرون إلى نواح متعددة . وعند كتابة أسفار العهد الجديد ، وُجد الكثيرون منهم فى المدن الرئيسية فى العالم .

هؤلاء هم « المتغربون فى الشتات » . كانت ديانتهم ، وملابسهم ، وسحنتهم ، وطقوسهم الدينية ، تميزهم كلية عن الشعوب المحيطين بهم ، وتثبت أنهم مواطنوا المدينة المقدسة ، وأنهم ينتمون إلى ذلك الشعب الذى يحملون اسمه .

اعتنق الكثيرون منهم المسيحية ، ليس فقط بسبب المؤثرات التى تأثروا بها عند زيارتهم لأورشليم ، مدينتهم العظيمة ومدينة أجدادهم ، التى سرعان ما تأثر جوها بالأراء المسيحية ، بل أيضا بسبب كرازة الرسول بولس ، الذى اعتاد دائما توجيه جهوده الأولى إلى شعبه ، والذى اقترن اسمه دائما بالكنائس التى ليست لهم مدينة باقية ، بل يطلبون العتيدة .

لكن يجب ألا تحصر معنى هذه الكلمات فى اليهود الذين اعتنقوا المسيحية . فهناك عبارات تعطى معنى أوسع . فمثلا وردت عبارة « شهواتكم السابقة » التى وجهها لمن كتب إليهم (ص ١ : ١٤) ، وعبارة « الذين قبلا لم تكونوا شعبا » (ص ٢ : ١٠) .

وعلاوة على هذا فإن كلمة « غرباء » استخدمت بمعنى روحى(ص ٢ : ١١) ، ولذلك فهى تنطبق بالتساوى على كل من يخرجون إلى المسيح خارج المحلة ، حاملين عاره ، الذين يعترفون بأنهم ليست لهم مدينة باقية ، بل يطلبون العتيدة .

هل نستطيع القول أننا نحمل روح الغربة ؟ نحن نعرف مقدار ما يعنيه تحولنا من إغـراءات مدينة غريبة ، مكتظة بفنونها ، وكنائسـها ، ومباهجها ، وعماراتها الفخمة ، وشوارعها الجميلة ، والاتجاه إلى وطننا الريفى المتواضع جدا . قد لا نبقى طويلا فى المدينة ، لأننا ، لا بد أن نعود إلى الوطن . وحتى إذا بقينا طويلا ففكرة العودة إلى الوطن لا تبرح مخيلتنا . إن الذين يحصرون كل لذتهم فى وطنهم ، مهما كان متواضعا ، ويفضلونه على كل مكان آخر فى العالم ، لا يجدون أية لذة فى مباهج الحياة العابرة .

آه ، ليت شعب الله يزدادون تعلقا بالسكين فى الخيمة ، كما كان يفعل إبراهيم أبو المؤمنين . وهذا لا يمكن أن يتم إلا إذا ثبّتوا أنظارهم فى « المدينة التى لها الأساسات » . عندما يعتقد الناس بأن هذه المدينة هى مجرد أوهام ، فإنهم يبدأون بأن يؤسسوا لأنفسهم المبانى الدائمة ، ويكنزون الثروات الطائلة . أما إذا اقتنعوا بوجودها ، وتطلعوا إليها عن بعد ، بالإيمان الذى يتحدى كل معطلات الزمان ، وحيوها بشغف ، فإنهم يسكنون فى خيام ، ويعترفون بأنهم غرباء ونزلاء .

يقال أن الجندى السويسرى عندما يكون فى أرض غريبة ويسمع الصوت الريفى البسيط الذى يدعو الماشية من مراعيها ، يمتلىء حنينا إلى وطنه بين الجبال . ليت الكثيرين ممن يقرأون هذه الكلمات يتممون هذا الاختبار روحيا . ليتهم ، ونحن نتحدث

عن الميراث ، يرتدون ثوب الغربة ، ويتجهون نحو أورشليم الجديدة التى لم يطأها متطفل ، ولا دنستها الخطية .

٢- أوصافهم الروحية

« إنهم مشتتون فى بلاد مختلفة ، لكنهم مختارون من الله . إنهم متغربون ، أى غرباء عن الناس الذين يعيشون بينهم ، لكنهم معروفون من الله فى عمله السابق . إنهم مبعدون عن وطنهم ، لكنهم ورثة وطن أفضل » .

« المختارين » . لقد اختارنا الله فى المسيح قبل تأسيس العالم (أف ١ : ٤) . لا يوجد هنالك اختيار بعيدا عن المسيح ، هو متحد مع الآب قبل الأزمنة الأزلية ، ونحن متحدون به . وكل الذين أعطاهم الآب للمسيح يقبلون إليه (يو ٦ : ٣٧) . فإن كنا قد أقبلنا إلى المسيح وانجذبنا إليه ، كانجذاب برادة الحديد إلى المغنطيس ، فيمكننا أن نطمئن قلوبنا ، ونتجاسر على المطالبة بالبركات التى يمنحها لكل تابعيه .

ثم لا حظوا لأى شىء نحن مختارون . نحن مختارون **« للطاعة »**. إن اختيارنا لم يتم لكى ننجو فقط من قصاص الخطية ، أو لكى ننتقل إلى منطقة لا تعصف عليها العواصف ، ولا نجرب فيها بالخطية . كلا ، بل لقد تم اختيارنا لكى نطيع ، ونتألم ، فنزداد قوة عن طريق الآلام ، لكى نغيث الآخرين بالدم والدموع . لقد تم اختيارنا لنزداد اقترابا من المسيح والتمثل به .

والاختيار **لا يتفق مع محبة الذات** . إن الذين يوهمون أنفسهم بأنهم على الأقل لا عيب فيهم ، ولذلك فلا شأن لهم بالعالم ، قد يكونون مخدوعين جدا ، أو لعلهم لم يروا سوى صورة باهتة جدا مما يعنيه الله بدعوته العليا وبالاختيار . فإن اختيارنا يتم لكى نطيع ، ونخدم ، ونتعلم ، ونتألم ، ونموت كل يوم – لكى ينال

الآخرون البركة والخلاص . إن النجوم المختارة تضيء ظلمة الليل . والأمم المختارة تقود العالم إلى مراقى التقدم والنجاح . والأشخاص المختارون ، أمثال أشعيا وأرميا وبولس الرسول ، يصيرون آنية يوصل بهم الله نعمته للعالم الذى يعيشون فيه ، الأمر الذى يكلفهم الكثير من التضحيات .

«بمقتضى علم الله الآب السابق» . لقد عرف منذ الأزل من هم الذين يقبلون الرحمة . هل يمكننا القول أنه سبق فعرف العلاقة بين المسيح وبين الذين يتصلون به بالإيمان؟ وكل هؤلاء « الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم ليكونوا مشابهين صورة ابنه » (رو ٨ : ٢٩) . والذين نالوا الخلاص بالإيمان بالرب يسوع يجدون هنا مصدرا للتعزية غير محدود ، إذ يدركون أن هنالك قصدا إلهيا يقودنا نحو الكمال ، ونحو الطاعة التى تماثل طاعة المسيح (رو ٨ : ٢٩) .

« فى تقديس الروح » . إن اختيار الآب لأولاده منذ الأزل يتم بعمل الروح القدس فيهم بمرور الزمن . واختيار الآب يظهر كتقديس فى عمل الروح القدس . التقديس معناه الفرز . والكلمة تعنى فرز الشيء أو الشخص عن الاستعمال العادى وتكريسه لخدمة الله . والقديس هو الشخص الذى فرز نفسه عن الشر بعملية التقديس التى تستمر طيلة حياته ، وهو الشخص الذى يهدف نحو الهدف الواحد أن يكون بجملته ليسوع . ونحن لا نقدر أن نتمم هذا بدون الروح القدس . منه نستمد أول اقتناع بأننا مخطئون ، وبه ندرك الضعفات أو الثقل أو الشرور التى ينبغى أن نتحرر منها . ومنه أيضا تأتى النعمة التى بها نتحرر . ومنه يأتى الامتلاء بمحبة الله وبالحياة الإلهية ، الأمر الذى يتصل اتصالا وثيقا بكل عملية للتقديس . وهكذا تنشأ أخيرا الطاعة التى ترضى الله ، والتى تتم بتقديس الروح .

سلم ذاتك للروح القدس ، تحقق من أنه حال فيك . تمم ما يأمر به ، وتجنب كل ما ينهى عنه الصوت الهادئ الخفيف . وكل عملية للتقديس لمشيئته لا بد أن تؤدى إلى المزيد من النور والمحبة والقوة ، هذه التى تتم بالقداسة . ومن كل هذه تبزغ حياة

الطاعة الجميلة ، التى هى الزهرة الكاملة النابعة من الاختيار . الاختيار هو الجذر ، ونعمة الروح القدس هى الجو ، والطاعة هى الزهرة .

« **ورش دم يسوع المسيح** » . هنا نجد الثالوث المقدس : الآب والإبن والروح القدس . الجميع ينشغلون فى انتشالنا من عبودية الفساد إلى الحياة التى فيها نحب عمل الخير بقدر ما نحب الآن عمل الشر .

وقد لاق جدا ذكر الدم هنا بعد التحدث عن الطاعة ، كأن الروح القدس أراد أن يذكرنا بأن أفضل طاعة لا يمكن أن تخلصنا بدون الدم الثمين ، وأن أفضل أعمالنا فى حاجة إلى أن ترش بالدم . « ما لم ترش دموع أعمق توبة بهذا الدم فهى غير طاهرة . كل اغتسال بدون هذا باطل » (أر ٢ : ٢٢ ، أى ٩ : ٣٠ و ٣١) .

ما أحوجنا إلى أن نردد دواما صلاة داود التائب ، حتى فى أقدس أيامنا وأجل خدماتنا : « طهرنى بالزوفا فأطهر . اغسلنى فأبيض أكثر من الثلج » (مز ٥١ : ٧) .

٣- التحية

« لتكثر لكم النعمة والسلام » . هنا يمزج الرسول معا التحيتين الشرقية والغربية . فاليونانيون كانوا يستخدمون « النعمة » فى تحيتهم ، والعبرانيون كانوا يستخدمون « السلام » . وهذه التحية تتضمن كل ما نتمناه .

« **النعمة** » هى محبة الله التى لا نستحقها ، التى تنازلت لكى تخلص وتبارك . هى مصدر كل الهبات اللامعة المقدسة التى تأتينا من قلبه المحب . كما تنقسم شعاعة النور الواحدة إلى عدة ألوان ، هكذا تتفرع من نعمة الله هبات متعددة لا يقدر ثمنها : « نعمة فوق نعمة » .

« السلام » يأتى فى أثر النعمة . هنالك أولا سلام مع الله ، ثم يأتى سلام الله . حالما نكف عن تمردنا يرحب بنا الله فى أحضانه الأبوية ، ولا يكون هنالك أى أثر للخلاف أو النزاع . وعندئذ يمتلىء القلب بسلام الله الكامل الذى يحفظ قلوبنا وأفكارنا .

هذا هو ميراث عبيد الرب . ولا يمكن أن توجد هنالك أمنية أسمى من أن تكون فيهم هذه النعمة وهذا السلام ، وأن يزدادا ويتكاثرا . « لتكثر لكم النعمة والسلام » .

٢ : الميراث

« مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذى حسب رحمته الكثيرة ولدنا ثانية لرجاء حى بقيامة يسوع المسيح من الأموات . لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل محفوظ فى السماوات لأجلكم » (١ بط ١ : ٣ و ٤) .

إن الطفل الراقد فى مهده لا يدرك شيئا مطلقا عن الميراث الذى ينتظره . فبيت الأجداد ، والأملاك الشاسعة ، والمراكز الرفيعة – هذه كلها تنتظره . لكن يجب أن تمر السنوات الطويلة لكى يدركها حقا ، أو يقدر قيمتها . وما أقل ما يدركه أقدس القديسين عن الميراث الذى ينتظرنا حالما نصبح أبناء الله بالإيمان بيسوع المسيح .

انظر كيف أن هذا الرسول الغيور ، وهو متحمس لكى يجد كلمات يعبر بها عن سمو هذا الميراث ، اضطر أن يكتفى بالتحدث عن الوجه السلبى . لقد وجد أنه من الأيسر أن يذكر ما لا يعنيه الميراث عن أن يتحدث عن عناصر مجده . وجد أنه من الأيسر أن يعدد كل مساوىء هذه الحياة الفانية ، ويقول أنها بعيدة عن هذا الميراث ، عن أن يعدد كل البركات التى تنتظر القديسين إذ يدخلون ما وراء الحجاب ، واحدا بعد الآخر ، ويجدون أنفسهم فى المجد .

لكن لدى التحدث مع الأشرار يجب عدم الاكتفاء بذكر الويلات التى تنتظرهم ، بل يجب الإشارة بشدة إلى الأمجاد التى يفوتونها على أنفسهم إن لم يرجعوا إلى أنفسهم ويتوبوا . آه ، ليتنا نعرف كيف نتحدث بلغة مشوقة عن يقينية وسعادة الحياة العتيدة التى نحن ذاهبون إليها ، فإننا بذلك نقنع الكثيرين من ساكنى مدينة الهلاك لكى يرافقونا فى رحلتنا إلى أورشليم السماوية . لكن كيف نتحدث بقوة واقتناع عن أمور لا نعرف عنها إلا القليل ؟

طبيعة ميراثنا

يمكن وصف طبيعته بأوصاف كثيرة :

« **الخلاص** » فى ملئه وكماله ، الذى لم نختبر إلا القليل منه ، لكن أمجاده الخفية ستعلن فى الصيف القريب (ع ٥ و ٩ ، مر ١٣ : ٢٨) .

« **مدينة الله** » التى إذ رأى البطاركة الأولون أسوارها وقبابها تعلو فوق ضباب الزمن ، جذبتهم إليها ، وجعلتهم يقتنعون بالسكن فى خيام هزيلة .

« **السماء** » بأنوارها المتلألئة ، وسكانها القديسين .

« **المجد** » كما سوف نراه فى وجه عمانوئيلنا ، والذى سوف يغمر أرواحنا السعيدة .

لكن هناك منظر أعمق وأكمل من كل هذه ، منظر يشملها كلها ، كما يشمل المحيط البحار ، والخلجان ، والبوغازات ، هذه التى وإن كانت لها أسماء مستقلة ، فإنها تعتبر أجزاء من المحيط الفسيح الشامل للكل . فى شريعة الكهنوت اليهودى « قال الرب لهارون لا تنال نصيبا فى أرضهم ، ولا يكون لك قسم فى وسطهم . أنا

قسمك ونصيبك فى وسط بنى إسرائيل » (عد ١٨ : ٢٠) . كان هذا ترتيبا جميلا جدا مشجعا لذلك الكاهن التقى . كان يمكنه أن يستغنى عن أشجار الزيتون والكروم وحقول الحنطة المتوفرة فى فلسطين طالما كان الله هو قوته ونصيبه إلى الأبد . لقد أدرك المرنم هذه الحقيقة ، وارتضى أن يتنازل بكل سرور عن كل نصيب فى هذه الحياة إذا ما شبع بالله (مز ١٧ : ١٥) . وقال أيضا فى موضع آخر : « الرب نصيب قسمتى وكأسى . أنت قابض قرعتى . حبال وقعت لى فى النعماء . فالميراث حسن عندى » (مز ١٦ : ٥ و ٦) .

ميراثنا هو الله نفسه . ليس هو القيثارات الذهبية ، ولا البحر الزجاجى المختلط بالنـار (رؤ ١٥ : ٢) . وليس هو الراحة من التعب ، ولا الحصانة ضد الحزن . وليس هو رفقة القديسين فى السماء . إن أتيح لنا التمتع بكل هذه بعيدا عن الله لا تجد النفس شبعها . فهذه كلها إنما هى مظاهر لشىء أعمق ، هو أن نمتلك الله . « ورثة الله » أى ورثة كل أمجاد الطبيعة الإلهية . لقد عبّر الرسول عن هذه الحقيقة حرفيا عندما قال « من لى فى السماء [1] . ومعك لا أريد شيئا فى الأرض » (مز ٧٣ : ٢٥) .

« هذا هو ميراث عبيد الرب » (أش ٥٤ : ١٧) : أن نعرفه ، أن نتبين شخصه ، أن نعيش فى ملئه ، أن نكتشف طرقا جديدة ، وقارات جديدة فى « الأرض المجهولة » أى فى لاهوته ، أن نرى مجده ، أن نتغير إلى صورته .

ومیراثنا يبدأ هنا . حالما نولد ثانية ونصبح ضمن شعبه تصبح لنا كل طبيعة الله ، كما تصبح للوارث لحظة ميلاده كل ممتلكات البلاد الفسيحة بغاباتها وأنهارها ومعادنها . لكننا فى الواقع لن نمتلك كل شىء ، لأن المحدود لن يستطيع أن يملك كل غير المحدود امتلاكا كاملا . ومع ذلك فإننا فى لحظة ميلادنا الجديد ندخل ميراثنا . فإننا نبدأ بدراسـة الكتاب المقدس الذى يحدد لنا ميراثنا ، ويخبرنا عن ماهية

(١) « من لى فى السماء غيرك » حسب الترجمة الإنجليزية .

الله ، وعما هو مستعد أن يفعله لنا . وبعد ذلك نبدأ بأن نمتلك ونستخدم صفاته وخاصياته اللازمة لنا يوما فيوما . وبعد ذلك نمتلك حلول روح الله فينا ، الذى يأتى بطبيعته فى داخلنا . وهكذا نمتلك الله بالقدر الذى يمتلكنا . نحن نرثه كنصيب لنا بالقدر الذى يرثنا . « نصيبى هو الرب قالت نفسى » (مراثى ٣ : ٢٤) . « إن قسم [نصيب] الرب هو شعبه » (تث ٣٢ : ٩) .

هلموا إلى فوق أيها الأحباء ، فإنكم تمتلكون ممتلكات شاسعة . وحولكم من كل جانب محبة الله ، ونعمته ، وقدرته ، وحكمته - هذه كلها تنتظركم لكى تنتفعوا بها . ضعوا فى قلوبكم أن تعرفوها ، ثم أن تنتفعوا بها ، وتتمتعوا بها . « لا زالت هناك أرض فسيحة باقية للامتلاك » . لا ترتضِ بأن تكون كل أملاكك محدودة . بل قم ووسع تخومك من كل جانب ، إذ تضم حقلا إلى حقل .

لكن ميراثنا لن يكمل إلا فى العالم الآخر . فهو « محفوظ فى السماوات لأجلكم » . نحن نكل ونعيا وسط أكثر الاختبارات بهجة وسرورا . والجسد لا يحتمل ثقل المجد ، وينهار أمام ضغط أسمى الاختبارات الروحية . « فلما رأيته سقطت عند رجليه كميت » (رؤ ١ : ١٧) . « لا تقدر أن ترى وجهى . لأن الإنسان لا يرانى ويعيش » (خر ٣٣ : ٢٠) . وكما أنه توجد خاصيات فى الكون لا نقدر أن ندركها لأنه ليست لنا سوى الحواس الخمس ، هكذا توجد فى الله خواص لا نعرفها لأن قوة إدراكنا محدودة . لذلك فعندما نلبس مسكننا الذى فى السماء ، الذى توجد فيه نوافذ كثيرة أكثر من مسكننا الأرضى ، فإننا نرى الكثير من النواحى عن الطبيعة الإلهية أكثر مما نعرف اليوم .

آه ، يا له من ميراث جميل . إن كانت الأرض والسماء ، وهما مجرد رداء له ، جميلتين بهذا المقدار ، فكم يكون جمال شخصه المجيد .

صفات هذا الميراث

« لا يفنى » . أى لا تفنى مادته . ليس قابلا للزوال . فى أوائل الربيع تبدو الطبيعة فى أبهى حلة . فحقول الحنطة تزهو بالسنابل الذهبية ، والأشجار تفاخر بأوراقها الجديدة ، والزهور تتلألأ بألوانها البديعة . لكن وسط كل هذا يمتزج تمتعنا بالحزن ، لأننا نعلم أن الفناء يعمل بقوة وراء هذا الجمال . هكذا أيضا وسط تمتعنا الشديد بأحبائنا قد تطغى على قلوبنا كآبة مقبضة فتوحى لنا بأن هذا التمتع قد لا يدوم . فالولد الطيب القلب قد يهجر أمه ، والشاب قد يهجر خطيبته التى تعلق بها ، وتعلقت هى به . أما معرفة الله ، فإنها - ككنزنا الذى فى السماء - لا يمكن أن تفنى ، لا يمكن أن يسلبها من أيدينا أى إنسان . لا يمكن أن تبعد عنا ، ولا يمكن أن نبعد نحن عنها . لا يمكن أن يكون مصيرها كمصير أى شىء أرضى نملكه . بل إننا عندما نتجرد من كل شىء آخر ، ونجلس وسط حطام ثروتنا الضائعة كأيوب ، فإننا نبدأ التأمل - أكثر من قبل - فى كنزنا الأبدى ، وندرك عظمة ميراثنا فى الله ، فنهتف قائلين : « اعطنى ما تريد ، إننى بدونك فقير ، لكننى بك غنى ، خذ منى ما تريد » .

« ولا يتدنس » . أى طهارته لا تتلوث . « كل ما نمتلكه هنا يتدنس ويتدنس بسبب النقائص الكثيرة والتقصير الشديد ». لا يوجد رخام خال من العيوب . ولا توجد زهرة خالية من النمش . ولا توجد فاكهة خالية من الآفات . ولا يوجد وجه خال من العيوب . ولا يوجد فرح خال من الأكدار . ولا يمر نهار دون أنات . ولا يوجد قلب خال من الخطيئة سوى قلب الله . وبرص الخطيئة قد انتشر فى كل البشرية حتى لوث كل ثوب وكل بيت كما حدث فى إسرائيل قديما (لا ١٣ و ١٤) . وحتى فى أطهر صداقة بشرية كثيرا ما رأينا أن المحبة التى تبدأ بريئة وطبيعية تلوثها محبة الذات ، والحسد ، إن لم يلوثها الدنس .

أما أن نعرف الله فهذا يعنى الاتصال بمصدر الطهارة نفسها . قال كاتب قديم على لسان المسيح : « من يقترب إلىّ يقترب إلى النار » . إذا اقترب الدنس من الله تلاشى فى لحظة . « لا يساكنك الشرير » (مز ٥ : ٤) . حاشا أن يتدنس ميراثنا ، ونحن لا يمكن أن نتمتع به إلا إذا أحببنا الطهارة . فأنقياء القلب هم وحدهم الذين يعاينون الله . وكلما ازدادوا تطلعا إليه ازدادوا طهارة ونقاوة قلب .

« ولا يضمحل » . أى لا يذبل جماله . هنا ينمو نبات الديسم [(١)] ، الزهرة التى لا تضمحل . المرء لا يمل قط مما هو جميل حقا . والناس تمتدح الوجه الجميل ، والبساتين الجميلة .

ومعرفة الله هى ينبوع من السرور الدائم . ونحن لن نمل من محبته . قال أحدهم : « إن كل سعادة عالمية هى محاولة إرواء العطش بآنية ذهبية فارغة » . لكن من ذا الذى يقول هذا القول عن نهر المسرات الإلهية ، الذى إذ يروى العطش ، يزيدنا رغبة فى جرعات أعمق .

وثيقة امتلاك هذا الميراث

« ولدنا ثانية » . نحن لا نمتلكه لأننا نستحقه ، أو نتيجة انتصارنا فى أى موقعة حربية ، أو بالولادة الطبيعية . قد نكون أبناء أقدس القديسين ، ومع ذلك نُحرم من ميراث القديسين فى النور . قال من لم يخطىء قط : « إن كان أحد لا يولد ثانية لا يقدر أن يرى ملكوت الله » (يو ٣ : ٣) . « إن كنا أولادا فإننا ورثة أيضا » . هذا هو الترتيب الحتمى (رو ٨ : ١٧) .

---

(١) Amaranth زهرة خيالية يُزعم أنها لا تضمحل .

وهل من العسير أن نقول بأنه ينبغى أن يكون هذا هو الحال ؟ فالميراث روحى ، يتطلب مواهب روحية تقدر أن تدركه وتتمتع به . وما لم نولد ثانية فإن هذه المواهب تنقصنا . قد يقف الأعمى وسط أبهى المناظر دون أن يحس بها ، لأن العضو الوحيد الذى يمكّنه من التمتع بها غير متوفر . والمجنون قد يعيش فى بيت مكتظ بروائع الفن وكتب الأدب دون أن يتأثرْ ، لأنه مختل العقل . والشرير إذا ما وقف فى السماء نفسها فإنه يعجز عن أن يرى الله ، لأن قوة الإدراك الروحية معدومة منه . الخطية تعمى البصر ، وتصم الأذن ، وتقسّى القلب . إن حاجتنا القصوى هى إلى الحياة ، والحياة لا تبدأ إلا بالولادة الثانية .

ونحن لا يمكن أن يكون الله لنا إلا إذا كنا نحبه . ولا يمكن أن نحبه إلا إذا توفر التقارب فى الطبيعة . وهذه الطبيعة لا يمكن أن تكون لنا بالولادة الأولى . ولا يمكن أن تكون لنا إلا بمنحنا طبيعة جديدة وحياة جديدة ، وهذه عطية من الله « بكلمته الحية الباقية إلى الأبد » (ع ٢٣) .

هل ولدت ثانية ؟ « وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله ، أى المؤمنون بإسمه ، الذين ولدوا من الله » (يو ١ : ١٢ و ١٣) .

الصلة بين حاضرنا ومستقبلنا

« رجاء حى » . نحن نمتلك فعلا بعض هذا الميراث . ومهما عظم ما نمتلكه فإنه ليس إلا العربون . « فإننا ننظر الآن فى مرآة فى لغز » (١ كو ١٣ : ١٢) . فالنظر سرعان ما يعتم ، والخطوط الأولية لا تتم ، والأقوال الغامضة تعجز عن فهمها .

لكن سوف يأتى الوقت الذى فيه نعرف كما عرفنا ، ونرى وجها لوجه (١ كو ١٣ : ١٢) ، والذى فيه تكمل شركتنا معه ، ونحبه محبة أقوى ، ويكمل امتلاكنا له . إن رجاءنا يحن نحو هذا العهد المبارك الذى لا يزال محفوظا لنا . وهذا الرجاء فى

الوقت نفسه هو الذى يحفزنا ويثير همتنا فى كل لحظة من لحظات حياتنا . إنه فى الواقع « رجاء حى » .

يقال فى بعض الأحيان أن الرجاء يموت . أما هذا الرجاء فإنه لن يموت . فى بعض الأحيان يتباطأ ، ويكون لا عمل له . لكنه حى دائما وقوى . « الرجاء العالمى كثيرا ما يسخر بالناس ويخيب آمالهم . فلا يمكن القول عنهم إنهم أحياء بل أموات . أما هذا الرجاء فإنه يحقق آمالنا إلى التمام ، ولن يخدعنا ، بل يعطى أكثر مما نرجو » .

« وهو مؤسس على قيامة يسوع المسيح من الأموات » . هنا نرى أن الشخص الذى لم يقتنع بقيامة المسيح من الأموات (أى بطرس) لما ركض إلى القبر ووجده فارغا ، يدرك المعنى الكامل للقيامة . إن أخانا ، وممثلنا ، وربنا ، لم يصر كواحد منا فقط فى الحياة والموت ، بل جعلنا واحدا معه فى القيامة ، التى كانت هى ختم الله على كل ما قال وفعل . ولذلك فهى تأكيد ليس فقط لأقواله ، بل لرجائنا الذى نبنيه عليها .

التسبيحة التى تبدأ بها هذه الآيات : « مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح » .

من ذا الذى يستطيع أن يدرك المقياس الكامل لرحمته الغنية ؟ الرحمة ، لأنه سلّم ابنه ليموت ويقوم ثانية . الرحمة ، لأنه دعانا له أولادا ، ذلك المركز السامى الذى قد تحسدنا عليه الملائكة ، فنحن لسنا أبناء فحسب ، بل ورثة أيضا . الرحمة ، لأنه ارتضى بأن يكون ميراثا لأناس مثلنا . الرحمة ، لأنه أعطانا تعزية قوية كهذه ، « ومرساة للنفس مؤتمنة وثابتة » (عب ٦ : ١٨ و ١٩) . يا لها من رحمة لانهائية لا يعبر عنها . فلنباركه من أجلها ، فهو أبو ربنا يسوع المسيح ، وأبونا فيه . سبحوه ، سبحوه .

« إن التحدث عن الأمور الروحية لمجرد السمع يصبح كلاما أجوف لا حياة فيه . أما من يتحدثون عنها لأنهم اختبروا حلاوتها ، فإنهم يجدون أن قلوبهم الممتلئة بالبهجة تدفعهم للتحدث عنها ، وتسبيح الله من أجلها .

« هكذا هو هذا الميراث ، الذى تستطيع آمالنا فيه وتفكيرنا عنه أن تعزينا وسط أشد الأحزان . وماذا تكون إذن ثماره الكاملة ؟ » .





٣ : محروسون

« أنتم الذين بقوة الله محروسون بإيمان لخلاص مستعد أن يعلن فى الزمان الأخير » .
(١ بط ١ : ٥) .

لو كان الرسول قد اقتصر على القول - كما ورد فى الآية السابقة - أن ميراثنا « محفوظ فى السماوات » دون أن يدعم قوله بهذه الحقيقة أن الورثة أيضا محروسون ومحفوظون للتمتع به تمتعا كاملا لكانت التعزية قليلة . لا يهم المسافر بحرا مقدار الترحيب العظيم الذى ينتظره فى بيته بقدر ما يهمه كيف ينجو من العواصف التى تهدده بتحطيم سفينته على الصخور . إن أردت أن تطمئن قلبه ، فيجب أن تؤكد له سلامة نفسه قبل أن تحدثه عن الترحيب الحار الذى سوف يلقاه . هكذا لم يكن مجديا أن يتحدث الرسول عن الأبدية السعيدة التى تنتظرنا لو لم يؤكد لنا أيضا أننا محروسون من كل الأخطار التى تهدد سفينة حياتنا . يا لها من تعزية قوية تلك التى نجدها فى هذه الكلمة « محروسون » .

إن الكلمة اليونانية « محروسون » مقتبسة من مخيم المعسكرات . وقد وردت فى (٢ كو ١١ : ٣٢ ، غل ٣ : ٢٣ ، فى ٤ : ٧) . وفى كل مرة تحمل معنى قوة مسلحة مستخدمة للحراسة ، تحيط بحاميتها ، وتدعم سورا منيعا . هكذا تحيط القدرة الإلهية بالقديسين كحرس أثناء إقامتهم فى هذا العالم الذى تكتنفه الأخطار الشديدة .

ليس الله أجرا كثيرا لنا فقط ، بل هو ترس لنا أيضا (تك ١٥ : ١) . إن العين المطهرة ترى الجبال المحيطة بنا مليئة بالخيل والمركبات النارية لحمايتنا (٢ مل ٦ : ١٧) . الرب يسترنا بستر وجهه من مكايد الناس ، ويخفينا فى مظلة من مخاصمة الألسن (مز ٣١ : ٢٠) . وهو يرسل نوره وحقه ، ليهديانا ويأتيا بنا إلى جبل قدسه وإلى مساكنه (مز ٤٣ : ٣) . « لأنكم لا تخرجون بالعجلة ، ولا تذهبون هاربين . لأن الرب سائر أمامكم . وإله إسرائيل يجمع ساقتكم » (أش ٥٢ : ١٢) .

ربما يكون الكثيرون من قارئى هذه الكلمات قد كادوا يصلون إلى حالة اليأس . إنهم يعرفون الخير ، ويصادقون عليه ، لكنهم يفعلون الشر . رغم الدموع والبكاء والأنين ، تراهم دائما مستعبدين لخطية محيطة . كثيرا ما كانت دموعهم خبزا لهم نهارا وليلا (مز ٤٢ : ٣) وهم يسكبون نفوسهم مرددين المزمور الحادى والخمسين ، أو يصرخون مع الرسول : « ويحى أنا الإنسان الشقى ، من ينقذنى » (رو ٧ : ٢٤) .

لكل أمثال هؤلاء توجد تعزية غير محدودة إذ يذكرون بأن جميع أولاد الله يمكن أن يطالبوا بحراسة الله لهم وخلاصه الكامل . آه ، ليت كل هؤلاء يتمتعون بقوة الله الحارسة تمتعا كاملا .

١ - ماذا تتضمنه هذه الحراسة ؟

إنها لا تعنى بأننا نتخلص من طبيعتنا الخاطئة ، التى تميل إلى الخطية دواما ، وتتعرض لها دواما . ولا تعنى أننا نعصم من الخطية ، فلا نحتاج إلى طلب المغفرة كل يوم . فإننا فى أفضل حالاتنا لا بد أن يوجد فينا ما لا يتفق مع قداسة الله . ولا تعنى أننا نعفى من أن نجرَّب . فهذا لا يمكن أن يكون نصيبنا طالما كنا سائرين فى أرض العدو إلى ميراثنا .

لكنها تعنى أنه بالرغم مما يوجد فينا من ميل شديد للخطية ، وبعض هذا الميل موروث ، وبعضه مكتسب بسبب طول الانغماس فى العادات الردية ، وبالرغم من أنه يوجد فى الخارج جهنم مليئة بالأرواح الشريرة ، وكل منها مطالب بأن يبذل جهده لكى يجعلنا نسقط - فإننا مع هذا يمكن أن نُحفظ من الخطايا الجسيمة التى ترتكب بإصرار ، وننجو من البحار الهائجة ، فنقف أخيرا مع **الغالبين** على شاطئ البحر الزجاجى ، وفى أيدينا قيثارات الله (رؤ ١٥ : ٢) . لا يريد المسيح أن نؤخذ من العالم ، بل أن نُحفظ من الشرير (يو ١٧ : ١٥) .

كثيرة هى الصور التى تبرز لنا قوة الله الحارسة الحافظة . وقوة الله التى تحفظ وتحرس قديسيه ، نراها مصغرة فى حراسة العين بواسطة الحجاب العظمى المحيط بها وجفن العين ، وفى حراسة الراعى لخرافه التى تسكن آمنة فى البرية ، وتنام فى الغابات رغم الوحوش المفترسة الكامنة حولها منتظرة ابتلاعها ، وفى الأسوار العالية التى تحيط بالكروم فتحفظها من المغتصبين ومن الثعالب الصغيرة ، وفى الطير الذى يحرس صغاره من الصقر الذى يحوم حولها ، وفى جبابرة إسرائيل الذين كانوا يحرسون تخت سليمان (نش ٣ : ٧) ، وفى الخزانة الحديدية التى تحفظ ما بداخلها من عبث اللصوص ، ومن ألسنة النار المندلعة . إن أحاطت بنا كلاب ، واكتنفتنا جماعة من الأشرار (مز ٢٢ : ١٦) ، فإنه توجد دائرة داخلية للدفاع ، لا يجرأون على الاقتراب منها ، ولا يستطيعون اقتحامها .

وواضح مما تقدم أنه لا بد أن تكون هنالك حروب وكفاح وتجارب من الخارج ، وضعف من الداخل . لأنه ما الحاجة إلى الحراسة إلا إذا كانت هنالك أخطار من الخارج وضعف من الداخل ؟ لكن الأمر واضح أننا وسط كل هذه نُحفظ من السقوط . « لتُحفظ روحكم وجسدكم ونفسكم كاملة بلا لوم عند مجىء ربنا يسوع المسيح . أمين هو الذى يدعوكم ، الذى سيفعل أيضا » (١ تس ٥ : ٢٣ و ٢٤) .

هذه الحراسة تمتد إلى « مخارج الحياة » ، وإلى خطوات وتصرفات القديسين . وهى تمس هذه لأنها تتصل بالكلية بالإنسان الداخل . هنالك تعمل قوة الله فى النفس والقلب والأفكار ، وهى تعمل بقوة فعالة وإن كانت غير منظورة ، وقادرة على قمع أعنف الشهوات التى تطغى على الطبيعة الداخلية (أم ٤ : ٢٣ ، ١ صم ٢ : ٩ ، فى ٤ : ٩ ، ١ بط ٤ : ١٩) .

٢ - لماذا نتوقع هذه الحراسة ؟

لأن قصد الله يقتضيها . فنحن « مختارون للطاعة » كما تخبرنا الآيتان الأولى والثانية من هذا الاصحاح . لكن يقينا أن الذى دعانا دعوة سامية كهذه لن يعجز عن أن يمنع كل ما يعطل تحقيقها .

وذبيحة المسيح تقتضيها . لقد تحمل مخلصنا بسرور آلام الصليب ليس فقط لينجينا من جهنم ، بل « ليطهر لنفسه شعبا خاصا غيورا فى أعمال حسنة » (تى ٢ : ١٤) . ولو كان ذاك الذى استطاع أن يشترى غير قادر على حفظ من اشتراهم لكانت عملية الفداء بلا جدوى . لكنه فى حياته على الأرض حفظ الذين أعطاهم إياه الآب « ولم يهلك منهم أحد إلا ابن الهلاك ليتم الكتاب » (يو ١٧ : ١٢) . ويقينا أنه الآن - وفى يده كل سلطان - يحفظ من يحملون اسمه .

والروح الساكن فينا يقتضيها . يقينا إنه حال فى قلب كل مؤمن . وإن كان غير منظور ، كما كان يحل داخل الحجاب ، إلا أنه لا يزال مشتعلا كبصيص النار فى قدس الأقداس . إنه يريد فوق كل شيء أن يحفظ كل كيان المؤمن - الذى هو هيكله - طاهرا ونقيا . وإذا ما سمح له المرء بأن يتمم عمله ، فإنه يحفظ الإنسان من الداخل من كل شر وشبه شر . مما يتفق مع طبيعته المقدسة أن يخلق فى قلوب الجميع رغبة نحو القداسة . وهذه الرغبة التى يخلقها نحو القداسة هى عربون ، بل بشير ، بإكمال عمله إلى التمام .

وسمعة الله تقتضيها . لو كانت الخطية تنتصر علينا دواما طالما كنا فى هذا العالم ، لبدا كأن الدواء لا يكفى لعلاج الداء .

لو كان الله غير قادر على تحطيم كل المحاولات الجهنمية على نفوس البشر لتهللت جهنم ، وقالت : أنت لا تستطيع أن تحفظ قديسيك من التجارب التى نوجهها إليهم .

أيها المؤمنون المجرَّبون ، تشجعوا ، وثقوا بأنكم يمكن أن تكونوا محفوظين إن اعتمدتم على مخلصكم .

٣- كيف تتم هذه الحراسة ؟

بقوة الله . « أنتم الذين بقوة الله محروسون » .

تأملوا فى فعل هذه القوة فى الخليقة . قفوا مع أسرى بابل ، وارفعوا عيونكم إلى العلاء لكواكب السماء المنتشرة كقطيع يستريح فى ظلمة الليل : « ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا من خلق هذه . من الذى يخرج بعدد جندها . يدعـو كلها بأسماء . لكثرة القوة وكونه شديد القدرة لا يفقد أحد» (أش ٤٠ : ٢٦) . وإن كان يستطيع أن يحفظ الأجرام السماوية ، فتدور فى مداراتها ذات الاتساع غير المحدود بدقة تامة ، لدرجة أن الفلكيين يقدرون أن يحددوا عودتها إلى مكانها دون أن يخطئوا ، فيقينا أنه يقدر أن يحفظ النفس المسكينة فى مكانها المحدود ، سيما عندما تكون هذه النفس راغبة فى أن تُحفظ .

تأملات فى هذه القوة فى التاريخ : رغم حرية التصرف للإرادة البشرية ، الملتوية المتمردة ، فقد استطاع أن يتمم مقاصده ، ويحصل على النتائج التى وضع عليها قلبه منذ الأزل . وكمثل مذهل ؛ لقد بقيت كنيسة المسيح إلى الآن رغم

ما لقيت من الاضطهادات العنيفة منذ تأسيسها . ويقيننا أنه يستطيع - بنفس السهولة - أن يدعم رعايته لكنيسته التى تضم أولئك الذين يريدون أن يعرفوا إرادته ويتمموها (أر ٣٣ : ٢٥ و ٢٦) .

تأملوا فى هذه القوة فى قيامة ربنا : لقد « أقامته من الأموات » ، رغم كل القوة البشرية ، « فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة » ، إلى أن ارتفع جسده المجد الذى لم يدخله إنسان قبله (أف ١ : ٢٠ و ٢١) .

والأكثر من هذا أن الرسول بولس حدثنا بأن نفس القوة التى أقامت المسيح من القبر إلى العرش تمتد إلى أضعف مؤمن فتقيمه أيضا من الموت إلى مجد القيامة (أف ١ : ١٩ و ٢٠) .

تأمل هذه القوة فى حياة الرب يسوع المسيح على الأرض : فإنه بقوته الإلهية واجه التجربة فى البرية وفى جثسيمانى . ورئيس هذا العالم دُحر فى هجومه على ابن الله ، لا مرة واحدة ، بل فى كل مرة . وقواته الشيطانية أخرجت من النفوس البشرية التى سكنتها . وهو نفسه سقط مثل البرق من السماء ، وسُحقت رأسه . واندحر العالم ، الذى هو أول إغراءاته وخاب مسعاه فى أن يمسك المخلص فى القبر بمنتهى السهولة التى بها يكتسح الإنسان نسيج العنكبوت من طريقه . وما فعله المسيح لنفسه هو مستعد أن يفعله لكل واحد من خاصته ، ويكرر فى حياة كل واحد منا نفس الانتصارات التى انتصرها هو إذ كان على الأرض .

ومن الضرورى أن نقول بأن الروح القدس يعمل بنفس قوته الإلهية : فهو يعمل فى داخلنا بقوته العجيبة . هو يُبقى نفسه غير منظور ، ويوجه أنظارنا إلى الرب يسوع المسيح ، كما يسطع النور بعض الأحيان على وجه جميل فيلفت كل أنظار الشخص الذى يتطلع إليه . وهكذا إذ تكون المعركة كلها فى يد الروح القدس (غل ٥ : ١٧) فإن المؤمن يلجأ إلى المسيح طالبا منه النصرة . لكن لا داعى للتفريق بين المسيح والروح القدس ، فإنهما واحد .

وقوة الروح القدس تعمل بإيماننا : « أنتم الذين بقوة الله محروسون بإيمان » . الله مستعد أن يتمم كل ما نأتمنه عليه . لكنه لا يعمل بدون إيماننا . عندما يكون الإيمان قويا فإنه لا توجد حدود لإمكانياته . فإنه يستطيع أن يفتح أبواب السماء فتبدأ قوة القدير أن تنسكب على النفس . إن إيماننا هو الوسيلة التى بها نتقبل بركات الله . هو البوغاز الذى تنتقل به مياه المخيطات الإلهية .

أما إن كان إيماننا ضعيفا فإننا لا نتوقع قوة عظيمة .

إن ضربت الأرض ثلاث مرات استمرت آرام فى أن تتحداك (٢ مل ١٣ : ١٨ و ١٩) . إن كنت لا تؤمن بأن الله قادر أن يحرسك ويحفظك فلا تتعجب إن كنت تُحرم من حراسته . حسب إيمانك أو عدم إيمانك ، يكون لك .

أتريد أن تدرك نعمة الله الحارسة ؟ سلم له ذاتك ، وكف عن كل اعتماد على الذات ، واقطع كل علاقة بالشر والشرير . اختر نصيب صليب يسوع بصفة قاطعة نهائية . ثم اعتمد على يسوع ليحرسك . كلما اقتربت منك التجربة تطلع إلى يسوع وقل له : « يا يسوع إننى أثق فى قوتك الحافظة الحارسة » . اطلب من الروح القدس أن يحفظك فى هذا الوضع بصفة مستمرة ، إلى أن تصبح عادة نفسك التطلع إلى يسوع كلما هاجمتك التجربة . اعتمد عليه لكى يحفظك فى ثقة دائمة به . غذ إيمانك بالتأملات الروحية فى مواعيد الله . لا تتطلع إلى ضعفك ، أو إلى أعدائك ، بل إلى الحصن الإلهى . « الرب حافظك » (مز ١٢١ : ٥) . استمع إلى كلماته المباركة ، وخبئها فى قلبك : « أنا الرب حارسها . أسقيها كل لحظة ، لئلا يوقع بها . أحرسها ليلا ونهارا » (أش ٢٧ : ٣) . يقينا إنه لتجديف شنيع أن يظن المرء بأن القدير لا يقدر ، أو لا يريد أن يحفظ ويحرس النفس التى تعتمد عليه .

فانتظر الخلاص الكامل الذى تناله عند مجىء الرب . لقد سبق أن أكمل ، وهو الآن معد . لكنه ينتظر لكى يُعلن . « أنتم الذين بقوة الله محروسون بإيمان لخلاص مستعد أن يعلن فى الزمان الأخير » . وعندما تحصل على الخلاص الكامل بغبطة وابتهاج ، وتتأمل فى الطريق الذى سلكته ، فإنك عندئذ تدرك كم كنت مديونا لنعمة الله العجيبة ، الذى أستطاع أن يحفظ وديعتك إلى ذلك اليوم (٢ تى ١ : ١٢) .

٤ : تحزنون يسيراً

« الذى به تبتهجون مع أنكم الآن إن كان يجب تحزنون يسيرا بتجارب متنوعة . لكى تكون تزكية إيمانكم وهى أثمن من الذهب الفانى ، مع أنه يمتحن بالنار توجد للمدح والكرامة والمجد عند استعلان يسوع المسيح » (١ بط ١ : ٦ و ٧) .

« تحزنون » . « وابتدأ يحزن ويكتئب » (مت ٢٦ : ٣٧) . من ظلمة ذلك البستان صعد الرب إلى مجد القيامة . ومن المستحيل أن نصور حالة آلام النفس البشرية بدقة أكثر من هذه الكلمة « تحزنون » . والتجارب المتنوعة هى التى تحزن النفس « تحزنون يسيرا بتجارب متنوعة » .

والتجارب هنا تعنى الامتحان . وقد استخدمت نفس الكلمة فى مواضع أخرى لتعنى الاختبار الذى يختبر به القديسون ، إما من قِبَل الله ، أو من قِبَل الشيطان . فالله يختبرنا لكى نعرف أنفسنا كما يعرفنا هو ، ولكى تنضج إلى كمالها بداية الخير الصغيرة التى غرسها هو فينا . والشيطان يختبرنا لكى يظهر الشر الكامن فينا ، ويخرج من التصرفات التى تطوح بآمالنا ، وتغرس بذور الرذيلة . إن البواعث التى تجعل الله يختبرنا صالحة ، لكى نزداد نبلا وصلاحا ونضوجا . أما البواعث التى تجعل الشيطان يختبرنا فهى فاسدة ، لكى تنزلق أقدامنا فى طريق الخطية . هكذا قيل فى الكتاب المقدس أن الله يمتحن البشر، ومع ذلك فهو لا يجربهم (تك ٢٢ : ١ ، يع ١ : ١٣) . هو يمتحنهم ويجربهم ، لكنه لا يغريهم لارتكاب الشر .

ولكى نميز بين هاتين الطريقتين من الاختبار ، يحسن بنا أن نستخدم كلمتين : « الاختبار » عندما يريد الله أن يمتحننا ، « التجربة » عندما يهجم علينا عدو نفوسنا الألد . ولذلك يحسن بنا أن نستخدم هذا التعبير الذى هو أقرب إلى المعنى : « تحزنون يسيرا باختبارات [أو امتحانات] متنوعة » . انظر أيضا (يع ١ : ٢ و ٣) .

« **تجارب متنوعة** » . فى هذه الرسالة نرى - كما فى مرآة - الظلال المظلمة التى كانت تتجمع فوق أولئك القديسين المشتتين . لقد كانوا يُلطمون عاملين الخير ، يحتملون أحزانا متألمين بالظلم ، يتألمون من أجل البر ، يُفترَى عليهم ، يجتازون البلوى المحرقة ، يشتركون فى آلام المسيح ، يعيَّرون من أجل اسم المسيح ، والقضاء بدأ من بيت الله (١ بط ٤ : ١٧) ، وكابدوا نفس الآلام التى كانت تجرى على إخوتهم الذين فى العالم . هذه إشارة بسيطة فى هذه الرسالة عن التجارب المتنوعة التى حلت بهم .

وإذ تألموا كمسيحيين (ص ٤ : ١٦) فكان هذا يعنى أنهم خسروا أرزاقهم ، وسمعتهم ، وعائلاتهم . فهجرهم آباؤهم ، وأبناؤهم ، وأصدقاؤهم ، وأسىء الظن بهم ، وصاروا مكروهين ، بل وصلوا إلى الموت . كان كل من ينضم حديثا إلى كنيسة المسيح يصبح هدفا لكل سهام ، ويُنبذ من كل مجتمع .

أما نحن ، فالتجارب تأتينا عادة من ثلاث مصادر : تلك التى تأتينا من الآخرين ، وتلك التى تأتينا بسبب خطايانا أو أخطائنا أو سوء تصرفاتنا ، وتلك التى تأتينا من الله أبينا . ولا عجب إن كان القلب لا ينحنى تحت هذا الضغط . وكم كانت جميلة تلك الدعوة التى وجهها يسوع للثقيلى الأحمال . ويا له من موكب مستديم من عابرى وادى الدموع ، الذى ينتصب الصليب فى نهايته ، وخلف الصليب يشرق نور الصباح .

والرسول لا يلوم هذا الحزن : يخزى الرواقى من أن يذرف دمعة . أما المسيحى فلم يؤمر بأن لا يبكى . ولكنه إذ يذرف الدموع ، فإنه إنما يتبع أسمى الأمثلة . « يا بنى لا تحتقر تأديب الرب ، ولا تخز إذا وبخك » (عب ١٢ : ٥) . الصراخ الشديد والدموع تليق بالأبناء الذين يريدون أن يتعلموا الطاعة مما يتألمون به (عب ٥ : ٧ و ٨) . عندما يشتد الحزن قد تصمت النفس ، كما يحدث للخروف أمام من يجزه . أو عندما يكاد القلب يتحطم أمام هول التجربة ، فإن المتألم قد يلتمس الراحة بأن يصرخ بصوت مرتفع .

لكن هنالك ما هو أفضل . فيقال أن ينابيع المياه العذبة تنبع وسط مياه البحار المالحة ، وأن أجمل زهور جبال الألب تزهر فى أشد معابر الجبال وعورة وخشونة ، وأن أعمق وأجمل المزامير كانت خلاصة أشد الأحزان . ونحن نسلّم بهذا . وهكذا تجد النفوس المحبة لله - وسط التجارب المتنوعة - أسبابا للفرح الشديد : « الذى به تبتهجون » . إن كان « غمر ينادى غمرا » فإن أغنية الرب تُسمع فى الليل (مز ٤٢ : ٧ و ٨) . وفى أشد الساعات ظلمة ، تستطيع النفس البشرية أن تبارك الله أبا ربنا يسوع المسيح .

هل تعلمت هذا الدرس ؟ ليس المطلوب فقط أن تحتمل إرادة الله ، أو تفضلها ، أو تثق فيها ، بل أيضا أن تفرح بها « بفرح لا ينطق به ومجيد » (ع ٨) .

لهذا الفرح مصدران : الأول معرفة طبيعة ومعنى التجربة ، والثانى محبة النفس لربها غير المنظور ، وإيمانها به . فى هذين المصدرين نجد فرحا يفوق الإدراك . والواقع أنه إن انعدمت كل مصادر الفرح الأخرى بسبب الأحزان الأرضية ، واتجهنا لطلب البركة المفرحة التى لا تستطيع أية عوامل أرضية أن تلاشيها ، فإننا وقتئذ نستطيع أن نتمتع بفرح المسيح (حب ٣ : ١٧ - ١٩) .

طبيعة ومعنى التجربة

• شبهت التجربة هنا بالنار : « مع أنه يمتحن بالنار » ، ذلك العنصر القوى ، القادر على إيلام جسدنا الرقيق وعلى تطهير كل ما يُقدَّم إليه مهما اشتدت درجة تلوثه ، الذى لا يبالى بأية آلام يسببها طالما كان قد أتم مهمته ، الذى إذا ما سُلّط على الأشياء المادية أذابها وأخلاها من كل ما علق بها من شوائب . أى شىء أفضل يمكن أن يشبَّه به الله ، ويمكن أن تشبَّه به تلك التجارب التى يسمح بها الله ، أو التى يرسلها هو ، والتى يمكن أن يوجد فى قلبها ؟ آه ، إن وطأة الآلام أعنف من أن تُحتمل ، عندما يهجرنا الأصدقاء ، ويعيِّرنا الأعداء ، ويفشل عمل السنوات الطويلة فجأة ، وتنسحق النفس تحت الألم الممض ، والخزى ، والجحود ، والفشل ، والحرمان . إن فعل هذه الآلام فى النفس البشرية يشبه فعل النار فى الجسد .

١ - **لكن هذه النار مطهرة** . إن الإشارة واضحة . وهى تذكرنا بنبوة قديمة ، نتعلم منها أنه عندما يأتى الرب إلى هيكله فإنه « يجلس بجانب البوتقة ممحصا ومنقيا » (ملا ٣ : ٣) . خليق بنا أن نخلع أحذيتنا من أقدامنا عندما ندخل غرفة أى مؤمن مجرَّب ، لأن الرب موجود بها يقينا .

وهو الذى يسمح بالتجربة . إن الشر يصدر من خبث يهوذا الأسخريوطى ، لكنه عندما يصل إلى أيدينا يصبح هو الكأس التى أعطانا إياها الآب لنشربها (يو ١٨ : ١١) . قد يدبر المخرب مقاصده الهدامة ، لكنه لن يتعدى قط « مشورة الله المحتومة وعلمه السابق » (أع ٢ : ٢٣) . والشيطان نفسه يجب أن يطلب الإذن قبل أن يمس شعرة من رأس أحد أولاد الله (أى ١ : ٨ - ١٢) . والحد الذى ينبغى أن لا يتعداه تجاربنا قد حددته حكمة الله اللانهائية . قد يجرح السلاح ، والنار قد تلذع ، لكنهما فى يدَىْ من فدانا . لن يصيبا شىء بدون إذن الله . وهو لا يأذن إلا بما حدده . لا يمكن أن نُترك فى يد الفرصة العمياء ، لأننا لما نكون فى التجربة نكون لا نزال فى يد مخلصنا الحى .

وهو الذى يهيمن على التجربة . لا يمكن أن يقترب إلينا أى صديق بشرى . لكننا فى كل أتون محمى نجد بجوارنا ذاك « الشبيه بابن الآلهة » (دا ٣ : ٢٥) ، وفى كل فيضان مياه جارفة يقف بجانبنا ، مهدئا القلب بالمواعيد ، وواضعا فينا كلمات الإيمان والرجاء ، ومذكرا إيانا بالماضى السعيد ، ومشيرا إلى المستقبل المشرق ، ومسكنًا الخوف ، كما سكّن مخاوف تلاميذه لما كانوا فى البحيرة . هذا هو عمل يسوع . وعندما يتطلع المتألم إلى الوراء ، إلى التجربة ، فإنه يقول : « لم أدرك قط من قبل أنه قريب منى بهذا المقدار ، ولولاه لما كنت قد احتملت التجربة » .

وهو الذى يراقب تقدم التجربة . لا يمكن أن يرق قلب أم على ولدها المتألم بقدر ما يرق قلب يسوع علينا فى آلامنا . هو يتحكم فى التجربة لتناسب قوتنا ، وهو يضع أصبعه على أيدينا ليجس النبض ، حتى إذا ما بدأ القلب يتعب يرفع الآلام ، وكل ما يحرص عليه هو أن تكون النيران قد طهرت القلب من كل زغل .

طوبى لنا إذا ما تطلعنا إلى وجهه ، بدلا من التطلع إلى تجاربنا ، على أن نحرص على فهم ما يقصده منها ، ونتعلم الدرس الذى قصده لنا ، حتى إذا ما فنى الإنسان الخارجى ، تجدد الإنسان الداخلى يوما فيوما (٢ كو ٤ : ١٦) . كلما تخلص الرخام من قشرته الخارجية تحت يد النحات ظهر رونق الرخام وجماله . وهكذا بقدر ما نفقد نحن من ممتلكاتنا ومن ظروفنا ، ننمو فى تمثلنا بالمسيح .

٢- **والتجربة إنما هى وقتية** . « تحزنون يسيرا » (ع ٦) . إن صاحب الحقل لا يقوم بعملية درس القمح بصفة مستمرة ، والأمطار سرعان ما تبطل . والبكاء لا يستمر سوى بضع ساعات من ليل الصيف القصير ، ثم يتوقف عند الفجر . وخفة ضيقتنا إنما هى وقتية .

هنا نجد فرقا بين أصلب المعادن وأثمنها وبين إيمان المؤمن. « الذهب الفانى » (ع ٧) . الذهب أطول عمرا من الخشب ، ومن الأوانى الفخارية ، ومن كل مادة أخرى . ومع ذلك فإنه يفنى بمرور الزمن . لكن يوجد فى كل منا ما لا يفنى . حتى الموت لا يؤثر عليه ، ولا مرور الزمن ، ولا تزول كل المخلوقات إلى بحر النسيان . فهو أبدى مثل الله الذى أودعه فينا . وإن أعنف وأطول التجارب لا تقارن مطلقا بأبديته . إذا قورنت التجارب بأبديته غير المحدودة وجدت أنها وقتية ، وسوف تزول من الذاكرة كما تزول سحابة الصيف .

٣- **والتجربة لها قصد معين .** « كان يجب تحزنون » . إن الحزن الذى ليس له هدف ، يتعذر على النفس جدا أن تحتمله . وحالما يحس المسجونون أن التأديب قد أتى بنتيجة إيجابية ، فإنهم يحسون بشىء من الراحة وسط متاعب السجن . ونحن عندما نحس بأن آلامنا وجهودنا عديمة الجدوى ، فإن الرجاء يموت فينا .

أما المؤمن فإنه لا يخاف شيئا من هذا . ففى كل تجربة منفعة . وهى قد قصد بها أن تعلن سرائر قلوبنا ، وأن تذلنا وتختبرنا ، وأن تنقينا كما تنقى الحنطة إذ تُغَرْبَل ، وأن تعزل عنا الأرضيات والأشياء المنظورة ، وتخلق فينا رغبة قوية نحو الحقائق التى تستطيع وحدها أن تروى عطشنا وتبقى إلى الأبد .

ينبغى أن لا نظن بأن التجربة قصاص عن الماضى ، فإن كل قصاص تحمّله عنا فادينا . لكن كل تجربة تشير إلى المستقبل ، وقد قصد بها أن تجعلنا شركاء فى قداسته ، وتخلق فينا « ثمر بر للسلام » (عب ١٢ : ١١) . وحقيقية الأمر فى التجربة يبرهن على أن هنالك فينا شيئا ثمينا جدا فى نظر ربنا . وإلا فلم يكن هنالك مبرر لكى يبذل معنا مثل تلك الجهود ، ويصرف معنا مثل ذلك الوقت . « نحن لا نشذب العوسج ، ولا نقذف الأحجار على البوتقة ، ولا نحرث رمال البحر » . والمسيح لا يمتحننا إن كان لا يرى معدن الإيمان النفيس مختلطا بمعدن طبيعتنا . ولكى يعيد إلى طبيعتنا هذه نقاءها وجمالها فإنه يضعنا فى البوتقة .

عليك بالصبر أيها المتألم ، فلا بد أن الله يحبك ، وإلا لما كان قد أدبك (عب ١٢ : ٦) . لا بد أنك من ضمن خاصته ، وإلا لما كان قد تحمل معك مثل تلك الآلام . لا بد أنك قادر على القيام بخدمة سامية معينة تحصل عليها عن طريق الآلام ، وإلا لما كان قد طرحك فى النيران المطهرة . لا بد أنك تحتمل النار ، وإلا لما كان قد أجازك فيها (عد ٣١ : ٢٣) .

وأجر التجربة أجزل من أن يعبر عنه : « توجد للمدح والكرامة والمجد عند استعلان يسوع المسيح » . سوف يعوض الذهب عن آلام النيران التى جازها عندما يحيط معصم الملك . ويعوض الماس عن آلة الصقل عندما يتلألأ فى رقبة المرأة الجميلة . ونحن سوف نعوَّض عن كل تجاربنا عندما نرى ثقل المجد الأبدى (٢ كو ٤ : ١٧) . سوف نعوَّض عن كل شىء عندما نسمع كلمة مدح واحدة من الله ، عندما نكرَّم أمام الملائكة القديسين ، عندما نمجَّد فى المسيح فنزداد قدرة على أن نعكس مجده على الآخرين .

فعلينا أن نعيش دواما فى ذلك المستقبل تحت قوات العالم الآتى ، كما يعزى الجنود أنفسهم فى ساعة الحرب الحامية الوطيس بالتحدث عن الترحيب والأكاليل التى تنتظرهم لدى عودتهم . « أما أولئك فلكى يأخذوا إكليلا يفنى ، وأما نحن فإكليلا لا يفنى » (١ كو ٩ : ٢٥) . كل البركات الناشئة عن التجربة ميسورة لنا عندما يتقبلها القلب بوداعة من يد الله ، وينفتح لعمل الروح القدس . التجربة وحدها قد تقسّى القلب ، كما تقسّى النار الطين وتجعله طوبا أحمر ، مع أنه هى التى تلين الشمع . لكن عندما تكون التجربة مقترنة بمؤثرات الروح القدس المباركة فإنها تكون زيتا ثمينا للرأس لا تؤذيها (مز ١٤١ : ٥) .

انظر كيف يهتم الله بالإيمان . إن ثمنه لا يقدر فى نظره وقيمته فى تقدير الله كقيمة الذهب فى نظر البخيل . هو مصدر كل النعم الأخرى ، وبداية حياة

القديسين ، والمفتاح للمخازن الإلهية ، وقاعدة السلم السماوى ، ودعامة القنطرة التى توصل بين المنظور وغير المنظور . وتقوية الإيمان فى قلب شخص مسكين أمر له قيمته العظمى فى نظر الله .

وطالما كان الإيمان لا يقوى إلا بالتدريب والجهود العنيفة ، فلا تتعجب إن كان الله يعرضك للتأديب الذى يتفق مع قوتك ، ولكنه يزداد عنفا إلى أن يصبح الإيمان قادرا على ملاطمة الأمواج الهائجة فى المحيطات العميقة ، بعد أن كان يرتجف إذا رأى المياه الضحلة .

٥: المسيح غير منظور لكنه محبوب

« الذى وإن لم تروه تحبونه . ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا ينطق به ومجيد ، نائلين غاية إيمانكم خلاص النفوس » (١ بط ١ : ٨ و ٩) .

تبدأ الآية السادسة ، وتنتهى الثامنة بكلمة « تبتهجون » ، وهى فى الأصل اليونانى تعبر عن شدة الفرح . غريب أن تستخدم كلمة كهذه تعبر عن مشاعر حفنة من القديسين المشتتين بدأت سحب الاضطهاد تتجمع حولهم بعنف . ومع ذلك فإننا لا نجد غرابة عندما نبحث عن مصادر ذلك الفرح التى تتضمنها هذه الآيات الذهبية . وقد تأملنا فى الآية الأولى فى الفصل السابق . ألا تمتلىء نفوسنا فرحا عندما ندرك أن التجربة هى نار المحصن ، فهى نافعة وإن كانت ثقيلة على النفس ، وهى إعداد للبركات التى يعجز عن إدراكها العقل ؟ ثم ألا يوجد باعث أعمق للفرح الشديد جدا عندما ندرك العلاقة التى اتحدتنا بربنا يسوع المسيح ؟

صحيح إن التجارب قد تكون مرة على النفس ، والنار قد تلذع ، والأصدقاء قد يهجروننا ، والأعداء يهددوننا ، وظلال وادى ظل الموت تحجب عنا نور الشمس . ومع ذلك فمهما كان عنف التجارب المتنوعة ، فيكفينا أن ندرك بأنها تؤدى إلى نتائج مجيدة جدا ، وأنه لا شىء يستطيع أن يفصلنا عن حبيبنا يسوع .

إذن فيسوع هو لب الكلمات اللامعة الواردة فى هاتين الآيتين (ع ٨ و ٩) ، هذه الكلمات التى تذكرنا بالسؤال الذى وجهه الرب ثلاث مرات لبطرس عند بحيرة الجليل « أتحبنى ؟ » ، وتذكرنا بالتطويب الذى لن ينسى الذى نطق به الرب فى العلية « طوبى للذين آمنوا ولم يروا » (يو ٢٠ : ٢٩) . أو ليست هذه الآية الصغيرة هى خلاصة المسيحية ؟ فما الذى يجعلنا مسيحيين إلا أننا نؤمن بذاك الذى نحبه وإن كنا لا نراه ؟ قد نقبل كلمات الكثيرين من عظماء المفكرين فى العالم ونقدرها حق قدرها ، لكننا لا نبالى كثيرا بالأشخاص أنفسهم . أما كلمات المسيح فإننا لا يمكن أن نقبلها ونتجاهله هو . فالمسيحية هى العلاقة الشخصية بين النفس وبين المسيح . فابدأ ، لا بكلماته ، بل بشخصه . وعندما تصبح له ، وهو لك ، فإنك لا بد أن تعرف كل ما قاله ، وفعله ، بل تعرف شخصه المعرفة اليقينية .

١- المسيح غير المنظور

قد يعوقنا عن الفرح والابتهاج أن لا نراه . « وإن لم تروه » ، « وإن كنتم لا ترونه » . قد يبدو للشخص العادى أن هذا الحرمان من رؤية المسيح شخصيا يكفى لكى يضع كل الأجيال التى جاءت بعد المسيح فى مستوى أدنى من مستوى أولئك الذين رأوا وجهه ، ذلك الوجه الذى كانت تشع منه علامات الهدوء والرزانة والقداسة ، والذى كان يبعث الرجاء فى البيوت المليئة بالأحزان واليأس القاتل ، وينيرها ، والذى كان يجذب إلى حضنه الأولاد الصغار ، والذى طالما كان يتلألأ نورا لدى اتصاله بالسماء . يقينا أن الحرمان من رؤيته قد يعتبر خسارة لا تعوض .

قال أحد الأتقياء قديما أنه كان يتمنى أن يرى ثلاثة أشياء : روما فى مجدها ، وبولس يعظ فى أثينا ، والمسيح فى الجسد . وإن كان عظماء المصورين المسيحيين قد غطوا جدران المعارض بالصور التى تخيلوا فيها وجه المسيح ، فإنما ذلك لإشباع شهوتهم فى رؤية وجهه . إذ تطلع الكثيرون إلى تلك الصور ، الرائعة الجمال التى تعتبر تحفة فنية نادرة ، وقفوا منذهلين ومشدوهين . لكن من ذا الذى رأى أروعها ولم يعد إلى

بيته بحسرة وألم ، وباقتناع داخلى بأن لو أمكن جمع الجمال الرائع فى تلك الصور فى صورة واحدة لكان وجه تلك الصورة أبعد جدا جدا بما لا يُحد عن وجه ذاك الذى اتحد فيه اللاهوت بالناسوت ، والذى كان يتلألأ منه النور السماوى ، والذى بكى ، والذى أحب . إننا لن يتاح لنا أن نرى ما يمثل ذلك الوجه حتى نراه كما هو . « وهم سينظرون وجهه » (رؤ ۲۲ : ٤) . « لإنارة معرفة مجد الله فى وجه يسوع المسيح » (۲ كو ٤ : ٦) .

لكن لا نجد فى هذا صعوبة ، بل خسارة لن تعوض ؟ كلا . فهو يمكنه أن يكون أقرب إلينا الآن من تلك الأيام السعيدة السحيقة التى كان يمشى فيها مع تلاميذه على جبال الجليل . ففى تلك الأيام لم يكن ممكنا أن نبقيه معنا كل الأيام . فالأعباء المنزلية ، وحاجياتنا الضرورية فى العالم ، ومطالب إعداد الطعام ، والأعمال العالمية ، والنوم - هذه كلها كان لا بد أن تبعدنا عنه . أو على الأقل إننا لم يكن ممكنا لنا أن نعرفه سوى كأفراد فى جمهور عظيم يتمنى كل واحد منهم أن يمتلكه لنفسه . وعند ازدحام الجماهير والرسل حوله ، كان لا بد أن نقف فى الدائرة الخارجية ، ونقنع بأن نلقى عليه نظرة عابرة من بعيد . ووسط كل هذا ، كان لا بد أن نجرب بأن نحبه محبة أرضية ، مثل تلك التى جعلت المرأة تصيح قائلة : « طوبى للبطن الذى حملك والثديين اللذين رضعتهما » ، مما اضطر المسيح إلى تصحيح الوضع فى الحال ، ولفت نظر الجماهير إلى التطويب الأعظم ، فقال : « بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه » (لو ۱۱ : ۲۷ و ۲۸) .

لو كنا قد رأيناه مرة واحدة ، أو مرارا ، لكان فرحنا برؤيته قد زال حالما ابتعدنا عنه ، أو بسبب رؤيتنا المتقطعة له ، أو بسبب اشتراكنا مع غيرنا فى رؤيته ، ولكانت رؤيتنا له مجرد الرؤية الجسدية ، بل لكانت قد ضاع أثرها بسبب تراكم هموم الحياة علينا . لو كنا قد رأيناه بالجسد لما كانت لهذه الرؤية تلك القوة ، وعدم الاعتماد على الظروف ، وتلك القدرة على تحدى السجون والوحشة وهجر الناس لنا ، وتلك الغيرة المتأججة السماوية .

ولذلك ، فحاشا لعدم رؤيتنا ليسوع بالعين الجسدية أن يكون معطلاً لفرحنا ، بل هو بالحرى يبعث الفرح فى النفس . ولذلك فإن وجود ربنا العزيز معنا روحيا يمكن أن يكون أفضل مما لو كان قد بقى معنا على الأرض . ألم يقل هو نفسه : « خير لكم أن أنطلق »؟ إن حلول المسيح فى قلوبنا بالروح القدس ، ووجوده معنا ، وحولنا ، أفضل جداً مما لو كان قد بقى معنا بالجسد ، حتى ولو كان ضمن أعز خاصته ، بطرس ويعقوب ويوحنا .

٢- حلقتان تتحدنا بالرب غير المنظور

« تحبونه » ، « تؤمنون به » (ع ٨) من العسير أن نقول أيهما تسبق الأخرى ، أو أيهما أكثر أهمية . نحن لا نستطيع أن نحب دون أن نؤمن ، كذلك لا نقدر أن نؤمن دون أن نحب . الإيمان هو النور ، والمحبة هى الحرارة . إن دَخَلَ أحدهما تبعه الآخر . إنهما ممتزجان معا فى كل شعاعة من الشمس ، ولا يمكن فصلهما عن بعضهما . ومقدار فرحنا يكون بنسبة وجود هذين التوأمين السماويين فى نفوسنا .

١- **المحبة** . من لا يحب الرب يسوع لا يمكن أن يسمى مسيحيا . « إن كان أحد لا يحب الرب يسوع المسيح فليكن أناثيما » (١ كو ١٦ : ٢٢) . هذا هو محك الاختبار لكل واحد منا : ليس ما نعترف به أو نقوله ، بل هل نحن نحبه ، وما هو مقدار محبتنا ؟

لكن لنذكر أن المحبة تكشف نفسها على قد ما نتطلع إلى شخص المسيح أو عمله . فإنها تتخذ شكل الاعتراف بالجميل فى الذين ينقذون غيرهم من بعض الضيقات ، وتتخذ شكل الغبطة والسرور فى الذين يجذبهم جمال صفاته ، وتتخذ شكل تكريس الحياة لخدمته فى شكل الذين انشغل بالهم بمطالبه .

وعلامات توفر المحبة كثيرة . فى بعض الأحيان تكون العلامة الصمت والرهبة . وفى أحيان أخرى تكون الدموع التى لا يمكن حبسها ، أو احمرار الوجه فجأة ، أو أعمال الرحمة دون الرغبة فى التظاهر ، أو العزم على الاعتراف بالمسيح رغم كل تضحية . والمحبة تكشف عن نفسها ، سواء فى إحضار المياه من بئر بيت لحم رغم تعريض الحياة للخطر (٢ صم ٢٣ : ١٥ - ١٧) ، أو فى المجىء بالحنوط لدهن جسد الرب بعد موته .

إن أكثر الناس محبة ليسوع كثيرا ما اتهموا أنفسهم بأنهم لا يحبونه المحبة اللائقة به . فمحبتهم له ترى فيه أنه يستحق أكثر جدا مما يمكنهم أن يقدموه . إنهم يحبونه محبة شديدة جدا ، لدرجة أنهم يفسحون الطريق لمن يحبونه أكثر منهم ، ومع ذلك فإنه يحزنهم أن يبتعدوا عنه .

فليتشجع أمثال هؤلاء ، لأن ذلك الذى يعرف كل شىء يعرف مقدار محبتهم له . وعلى كل حال إن المحبة لا تقاس بالإحساسات ، أو التنهدات ، أو الدموع ، بل بالأعمال . فأنت تحب المسيح بقدر ما أنت مستعد أن تفعله لأجله ، أو تتألم أو تضحى من أجله .

كيف نحب المسيح محبة أوفر ؟ اصرف وقتا طويلا وحدك ، متأملا فيما قد عمله من أجلك ، وفى شخصه ، وكيف أنه « معلم بين ربوة . . . وكله مشتهيات » (نش ٥ : ١٠ و ١٦) . حرك النار الداخلية باستعادة ما فى ذاكرتك ، وألهبها بالمواعيد إلى أن تشتعل . تعود أن تكلمه بصوت مرتفع فى غرفة خالية ، أو وأنت تتمشى وحيدا ، إلى أن تجده قد تغلغل فى كيانك . افتح قلبك لدخول الروح القدس الذى يسكب محبة الله فى القلب (رو ٥ : ٥) ، وذلك لكى تحب الله بالمحبة التى جاءت إلى قلبك من قلبه . وعوّد نفسك بصفة خاصة على أن تتمم - من أجل محبته العزيزة - أعمالا كثيرة تكلفك الكثير من التضحيات والجهود . وإذ نظهر محبتنا للآخرين ، ندرك محبته لأنفسنا . « كل من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله . ومن لا يحب لم يعرف الله لأن الله محبة » (١ يو ٤ : ٧ و ٨) .

ليس مفتاح معرفة محبة يسوع هو الترنم بترانيم مثيرة ، بل هو أن نتمم بهدوء كل يوم من أجله أعمالا تتم عن روح إنكار الذات . ويقينا أن هذه هي الطريقة التي بها نغرس أنفسنا كحبة الحنطة في الأرض (يو ١٢ : ٢٤) . وفي نفس الوقت هو يقيس أقل عمل من أعمال المحبة ، لا بمقدار عظمة العمل نفسه ، بل بمقدار قوة المحبة التي تدفعنا إليه . عندما نبدأ باستخدام كل ما نعرفه فإننا ندهش إذ نرى بأننا ننمو سريعا في مدرسة المحبة .

٢- **الإيمان** . من ذا الذي لا يصرخ مع التلاميذ قائلا : « يا رب ، زد إيماننا » (لو ١٧ : ٥) . يقينا أن زيادة الإيمان تعني زيادة الفرح . لكن هل نحن كلنا مستعدون لاستخدام الوسائط التي في متناول أيدينا ، والتي بها يزداد إيماننا ؟ إن بداية الإيمان هي هبة من الله ، لكن نموه موكل إلينا بنعمة الروح القدس .

وهاك شروط نموه :

[أولا] يجب أن يُنتزع من القلب ومن الحياة كل شر نعرفه ، وكل ما لا يتفق مع محبة الله وقداسته . إن سبب ضعف الإيمان هو تساهلنا مع الأشياء المحرمة التي تغلق منافذ النفس . هذه هي التي تعرقل النفس ، وتعمى البصيرة .

[ثانيا] يجب توفير الوقت الذي يصرف في التأملات الهادئة في كلمة الله ، وفي المواعيد الإلهية إلى أن تتبين لنا بأنها حقائق أبدية .

[ثالثا] يجب أن نتعود الطاعة لكل واجب نعرفه ، بحيث يتحول في الحال إلى العمل ، حسبما تعلنه مشيئة الله ، وذلك رغم أية صعوبة تعترضنا في طريقنا .

إذا ما اتبعت هذه القواعد فلا بد أن ينمو الإيمان جدا ، ويُظهر المخلص حقيقته حية منيرة للنفس التي تحن لليد التي لن تُخزي ، والقلب الذي لن يكف عن أن يعطف .

٣- الفرح الناشئ من هذا

ألا يوجد فرح فى المحبة عندما يتحطم السياج الذى عطلنا سنوات طويلة ، عندما يقدم الاعتراف بالخطية وتمنح المغفرة ، عندما يمتلىء القلب سلاما ، عندما يفتح مفتاح المحبة الذهبى أفخر الكنوز ؟ إن كنا نعرف بأننا طالما كنا قد أحببنا المسيح فلا بد أن يكون قد أحبنا ، وأنه أحبنا محبة لن تتخلى عنا ، بل تتشبث بنا فى الحياة أو الموت وإلى الأبد ، لا لشىء صالح فينا أو استحقاق ، بل لأنه هكذا سرت مشيئته ، وإن كنا مقتنعين بأنه لا شىء يفصلنا عن محبة المسيح مهما كانت سقطاتنا وضعفاتنا - فإن هذا كله يجب أن يملأنا فرحا ، مهما اشتدت وتعددت التجارب التى دعينا لنجتازها .

ألا يوجد فرح فى الإيمان ؟ « تأمل فى مقدار الفرح العظيم الذى يحس به المديون الذى طال سجنه ، الغارق فى ديونه ، عندما يطلق سراحه وتعود إليه حريته ، أو الأثيم المحكوم عليه بالموت عندما يسمع أنباء الصفح عنه . هذا أبعد جدا من أن يمثل لنا الفرح الذى ينشئه الإيمان بأن المسيح قد غفر لنا خطايانا . على أن الأمر لا يقتصر عند هذا الحد ، فالنفس التى تؤمن لا تشبه فقط المديون الذى أعفى عنه ، لكنها علاوة على هذا تنال ثروة جديدة جزيلة جدا ، إذ يكون لها نصيب فى غنى المسيح الذى لا يستقصى ، وفى رضا الله ، وفى شرف البنين » .

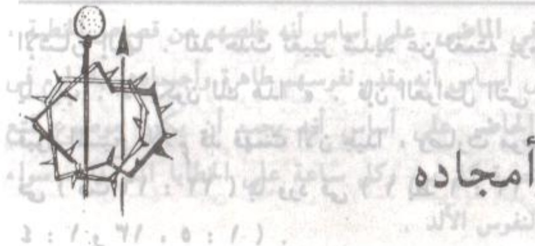
« وهذا الفرح لا يُنطق به » . توجد أوقات فى حياة المؤمن يشتد فيها الفرح بحيث لا يتجاسر على أن يتكلم . فالكلمات تبدو ناقصة ، وتقصر عن أن تعبر .

وهو « مجيد »[(١)] . هو بنفس مقدار المجد الذى ينتظرنا فى العالم الآخر .

(١) « مملوء مجدا » حسب الترجمة الإنجليزية .

هنالك لحظات نحس فيها بأننا نعيش فى السماء ونحن على الأرض ، نتلذذ فيها مقدما بنهر الحياة ، نردد نغمات تسبيح الملائكة ، نتناول فيها عناقيد العنب من كروم **أرض الموعد** ، نقتطف فيها الزهور من رياض الفردوس ،

آه ، ليت لنا المزيد من أيام السماء على الأرض أن تكون فى الطريق إلى السماء . ليتنا نرفع الصلاة دوما طالبين المزيد من ذاك الذى هو نفسه سماء السماء ، وهكذا يكون لنا شعار ذاك الذى كان يقول : « المسيح فى القلب ، والسماء فى القلب ، فالقلب فى السماء » .



٦ : آلام المسيح وأمجاده

« الخلاص الذى فتش وبحث عنه أنبياء . الذين تنبأوا عن النعمة لأجلكم . باحثين أى وقت أو ما الوقت الذى كان يدل عليه روح المسيح الذى فيهم إذ سبق فشهد بالآلام التى للمسيح والأمجاد التى بعدها . الذين أعلن لهم أنهم ليس لأنفسهم بل لنا كانوا يخدمون بهذه الأمور التى أخبرتم بها أنتم الآن بواسطة الذين بشروكم فى الروح القدس المرسل من السماء . التى تشتهى الملائكة أن تطلع عليها » (١ بط ١ : ١٠ - ١٢) .

كانت قد مضت على بطرس ثلاثون سنة ، مليئة بالتأملات العميقة ، منذ وقف فى ظلمة جثسيمانى ، أى منذ وقف مع حفنة من الخدم فى دار رئيس الكهنة ، أو منذ وقف كمتفرج محطم القلب فى الدائرة الخارجية للجماهير المزدحمة ، حيث شهد آلام المسيح ، تلك الآلام التى حاول بكل جهده أن يقنع المسيح بتفاديها . لكن هذه الآلام كانت لا تزال جديدة فى ذاكرته كأنها حدثت بالأمس .

فى كل هذه الرسالة تتجدد الإشارة إلى تلك الآلام التى بلغت درجتها القصوى فى الجلجثة . لكن يا له من تغيير عظيم ذلك الذى حدث فى نغمة صوت الرسول عند

الإشارة إليها . لقد حدث تغيير شديد عن نغمته يوم قال قبيل التجلى : « حاشاك يا رب . لا يكون لك هذا » . فإن العوامل التى جعلت بطرس يحتج بشدة على قبول المسيح للآلام قد فهمت الآن جيداً ، وصارت موضوع أرق محبته . قارن ما ورد فى (مت ١٦ : ٢٢) بما ورد فى (١ بط ١ : ١١ ، ٢ : ٢١ و ٢٣ ، ٣ : ١٨ ، ٤ : ١ و ١٣ ، ٥ : ١) .

بهذه الآلام تم خلاصنا . « الخلاص » كلمة عظيمة . وفى الآيات الثلاث هنا (ع ٥ و ٩ و ١٠) يعطينا الرسول لمحة عن عمق ما تتضمنه . إنها عظيمة جدا ومجيدة جدا لدرجة أن أقدس القديسين لا يستطيعون فى هذا العالم أن يدركوا تماما كل البركات التى يتضمنها هذا الخلاص . إنه سوف « يعلن فى الزمان الأخير » فقط (ع ٥) . لأنه يتضمن تحرير أجسادنا من عبودية الفساد (رو ٨ : ٢١) ، ونقلها إلى شبه جسد المسيح المجيد ، تلك النتائج التى لايمكن أن تتم قبل مجىء الرب ثانية .

وعلاوة على هذا فإن « الخلاص » يشمل ما هو أكثر من الخلاص من قصاص الخطية . ونحن كثيرا ما حصرنا « الخلاص » فى هذا المعنى فقط . فالخلاص هو أيضا « خلاص النفوس » (ع ٩) ، وهذا لا يعنى فقط جعل النفوس أمينة ، بل أيضا جعلها سليمة ، وفى صحة كاملة ، وجعلها كاملة . ويعنى أيضا غرس الطبيعة الإلهية فيها ، واستبدال الفساد بالحياة الأبدية . وحسنا وجد الرسول بديلا لكلمة الخلاص فوضع بدلا عنها تلك الكلمة الحلوة القديمة « النعمة » التى تشمل كل طبيعتنا . ومن ذا الذى يستطيع أن يقدر « النعمة » التى أتتنا بمجىء خلاص عظيم كهذا إلينا ؟ (ع ١٠) .

يجب أن لا نطيل التأمل الآن فى هذا « الخلاص » رغم أن هذا الموضوع يلفت بشدة نظر كل الذين يرون أنهم مديونون له بكل شىء ، سواء فى الحياة الحاضرة أو العتيدة . لكننا إذ ننتقل منه ، نطلب من قرائنا الأعزاء أن يسألوا أنفسهم عما إذا

كانوا قد اختبروه ، ليس فقط فى **الماضى** على أساس أنه خلصهم من قصاص الخطية ، وليس فقط فى **المستقبل** على أساس أنه يقدم نفوسهم طاهرة وأجسادهم بلا لوم فى حضرة الملك ، بل أيضا فى **الحاضر** على أساس أنه يجب أن يكون موضوع تمتع مستديم لهم ، ويضمن لهم النصرة كل يوم وكل ساعة على الخطايا المعروفة ، سواء أتتهم من الداخل أو من عدو النفوس الألد .

إذن يجب أن تكون آلام المسيح موضوع تفكيرنا ، ومن زاوية خاصة . رسم مصور ماهر صورة للصليب ، وفيها صورنا واقفين خلف الصليب ، لا نتطلع إلى المصلوب ، بل إلى ظلال ثلاثة صلبان تسقط على منحدر الجبل . والصليب الذى فى الوسط هو أضخمها . لكن وجوه المجتازين أو الواقفين بجوار الصليب متجهة نحونا ، ومليئة بالنظرات التى تعبر عن المأساة بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أدق تصوير .

لذلك فلندرس آلام المسيح من جهة تأثيرها على شهادة الروح القدس ، وشهادة الأنبياء ، وكرازة الرسل ، وتطلع الملائكة إليها بفرح .

١- شهادة الروح القدس

« إذ سبق فشهد بالآلام التى للمسيح » (ع ١١) . والاسم الذى أعطى للروح القدس له معنى جليل ، إذ قيل عنه أنه هو « روح المسيح » . على أساس أنه واحد مع الآب والإبن ، فى سر الثالوث المقدس ، ومتمم تأثيره المبارك من نفس العرش الواحد ، لكنه يوجه تأثيره ليعلن ربنا المبارك ويمجده . هو قدوس ومحب ومقتدر بكيفية لا يمكن وصفها ، ومعرفته تؤدى إلى سعادة أبدية . ومع ذلك فإنه بكيفية عجيبة لا يشعرنا بشخصه ، ويحاول فقط أن يوجه أنظارنا إلى المسيح (يو ١٦ : ١٣ - ١٥) .

لم يعط الروح القدس فى ملئه قبل أن يتمجد المسيح (يو ٧ : ٣٩) ، ولم يُسكب على الجميع إلا يوم الخمسين (يو ٢ : ١٧) . أما فى العهد القديم فكان يعطى بقدر معين ، وفى أوقات معينة . انظر (قض ١٣ : ٢٥) . وحتى قبل التجسد كان يشهد لمجئ المخلص . وعند معمودية يسوع فى مياه الأردن شهد له .

ولا عجب إن كانت شهادة الروح القدس قد اتجهت نحو آلام المسيح . وقد قيل فى (عب ٩ : ١٤) إن المسيح قدّم نفسه لله وقت الموت « بروح أزلى » . لقد اشترك الثالوث فى هذه العملية ، التى تمت بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وقصده الأزلى (أع ٢ : ٢٣) . وكانت أخطر وأرهب عملية تمت أمامه . فكيف نتعجب إذن إن كان الروح القدس قد سبق الزمن وأعطى إشارات وعلامات عن آلام الصليب ، وشهد عنها ؟ إذن فيقينا إننا نخطئ عندما لا نطيل التأمل فى عمل المخلص فى عالمنا ، ذلك العمل الذى يعلق عليه الروح القدس أهمية قصوى . وإن التأكيد الذى يضعه على آلام المسيح يوحى إلينا بمقدار الكنوز التى لا يمكن تقديرها التى تنطوى عليها هذه الآلام .

وإن كان الروح القدس يضع أهمية كبيرة على آلام المسيح ، فكم يكون اهتمامه بأمجاده . لقد بين الرسول هذه الأهمية عندما قال : « المسيح هو الذى مات **بل بالحرى قام أيضا** » (رو ٨ : ٣٤) . وكان هذا حقا ، لأن الأمجاد هى تاج الآلام وثمارها ، والشهادة للاهوت ، والختم الإلهى على عمله ، والأجر على تعب نفسه (أش ٥٣ : ١١) . انتظرى يا نفسى لكى تعددى أمجاد قيامته واحدا فواحدا ، وأمجاد جبل الصعود ، وأمجاد موكب الظافرين من كل جنس ، وأمجاد الجلوس عن يمين الله ، وأمجاد مجيئه الثانى .

٢- شهادة الأنبياء

ظهر هؤلاء الأنبياء منذ عصر صموئيل . غاروا غيرة لرب الجنود ، وامتلأوا جدا

بروح حب الوطن ، وقاموا بخدمات جليلة لأجيالهم . كانوا يقفون أمام الملوك من أجل حقوق الشعب ، ويقفون أمام الشعب من أجل حقوق الله . وقف ناثان أمام داود ، وإيليا أمام أخاب ، وأشعيا أمام آحاز ، وأرميا أمام صدقيا ، ويوحنا المعمدان أمام هيرودس .

قد تبدو كلمة « نبى » فى نظرنا بأنها تعنى التنبؤ عن المستقبل . لكنها فى أصلها تعنى « يغلى » ، كما أشار إليها المرنم عندما قال « فاض قلبى بكلام صالح » (مز ٤٥ : ١) ، وكما تدفع ينابيع المياه إلى الأراضى الجرداء فتجعلها تزهر . ومع ذلك ففى نبواتهم التى وجهوها بصفة مبدئية إلى أبناء عصرهم كانت توجد معان عميقة وإشارات إلى المستقبل ، تتطلب تحقيقها بشكل أكمل مما كانت تتطلبه الأحداث الوطنية مهما كانت خطيرة الشأن .

كانت العلامة المميزة لليهود أنهم ، بعكس باقى الأمم ، كان عصرهم الذهبى مكشوفا أمامهم كهدف مشرق ، وأن بطلهم الأعظم لم يكن أباهم الأرضى ، بل أباهم السماوى . كانوا يتوقعون دواما أول وطأة قدم لمجىء ملكهم الأعظم الذى يحقق أسمى آمالهم . وكان الأنبياء هم أهم مَن بيّن لهم هذه الآمال . لكن هذا لا يكفى لإيضاح دقة وكمال التفاصيل ، تلك الدقة التى تميز كلماتهم . كان هنالك عنصر لا يمكن تعليله بأية عوامل عالمية أو بأى ذكاء بشرى . بل « تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس » (٢ بط ١ : ٢١) .

« روح المسيح الذى فيهم » .

[أولا] كان فيهم على أساس أنه روح الإعلان ، معلنا لهم حقائق عجزوا عن أن يروها مقدما أو يكشفوها ، تلك الحقائق التى حيرت عقولهم حتى بعد الحصول عليها .

[ثانيا] كان فيهم على أساس أنه روح الإلهام والوحى ، مقدما معونة روحية فى إذاعة الحق . وهكذا يتضمن الكتاب المقدس حق الله ، معبرا عنه بكلمات بشرية تقدم إلينا - رغم هذا - تقريرا سديدا كافيا عن المقاصد الإلهية .

لذلك فمن السهل أن نفهم أن ثقل كلماتهم لا يقل عن ثقل كلمات الروح القدس . فعن طريقهم شُهد للآلام والمجد. إن « حبل القرمز » (يش ٢ : ٢١) الذى ربط فى الجلجثة يحيط بكل كوة فى الكتاب المقدس . فى كل كلمة نسمع أصوات بكاء الصليب ، وأصوات تهليل القيامة . هنالك « موسى وإيليا اللذان تكلما معه عن خروجه الذى كان عتيدا أن يكمله فى أورشليم » (لو ٩ : ٣٠ و ٣١) . وهكذا عندما تكلم السيد مع تلميذى عمواس فسّر لهما من جميع الكتب « أن المسيح كان ينبغى أن يتألم ويدخل إلى مجده » (لو ٢٤ : ٢٦ و ٢٧ و ٤٦) . هكذا أيضا خاطب بولس الرسول أهل تسالونيكى « موضحا ومبينا أنه كان ينبغى أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات » ((أع ١٧ : ٣) .

ومع أن الأنبياء تحدثوا عن هذه الأمور ، فإنهم لم يفهموا كل معناها . فقد كانوا يحصرون تفكيرهم فى مجرد النواحى التى يخدمون فيها . كانوا - كدانيال - يسمعون ولا يفهمون (دا ١٢ : ٨) . لقد عجزوا عن تفسير غوامض التواريخ ، وعن أن يروا من بعيد أسرار وأمجاد الأيام القادمة . وكثيرا ما ارتبك أقدس قديسى اليهود أمام علاقة الموت بالحياة ، وعلاقة التعب بالانتصار ، وعلاقة الظلام بالنور ، فبدا هنا الارتباك على صفحات أسفارهم النبوية .

لقد أقنعوا أنفسهم بأنهم يكفيهم أن يكونوا قد خدمونا . وكانت خدمتهم لنا خدمة جليلة جدا . فإن أبسط مؤمن الآن يجد شهادة لا تدحر عن صدق الكتاب المقدس ، إذ يستطيع مقارنة نبوات العهد القديم بإتمامها فى العهد الجديد ، ويوفق بينها كتوفيق المفتاح مع القفل . ولا يوجد برهان أقوى من هذا على سلامة الكتاب المقدس وسلطانه .

٣- كرازة الرسل

كانت كرازتهم مليئة بالحديث عن نفس الموضوع (ع ١٢) . كان الإنجيل الذى أذاعوه هو أنباء موت وقيامة ربهم . لقد بشروا بيسوع المسيح وإياه مصلوبا . وافتخروا قبل كل شىء بالصليب . لم يزعجهم قط بأن الصليب كان عـثرة لليهود وجهالة لليونانيين . وقد تمسك الرسل بأن يعلنوا أن الله جعل يسوع هذا الذى صلبه الناس - ربا ومسيحا (أع ٢ : ٣٦ ، ٤ : ١٠) .

وقد تعاون الروح القدس مع كرازة كهذه . فالرسل « بشروا فى الروح القدس » أو بقوة الروح القدس . وقد قيل فى هذه الآية أن الروح القدس أعلن هذه الأمور عن طريقهم . إذ كان موضوعا شغل كل اهتمامه . فإن من تكلم فى الأنبياء تكلم فى الرسل ومعهم ، وعمل بقوة فى قلوب البشر عن طريق خدمتهم . وهكذا لم تكن كرازتهم « بكلام الحكمة الإنسانية المقنع بل ببرهان الروح والقوة » (١ كو ٢ : ٤) . وإذا ما كرز الناس بعقيدة الصليب وجدوا مصادقة الروح القدس على كرازتهم .

٤- موضوع اهتمام الملائكة

هو نفس الموضوع المبارك . لقد كانوا يشتهون أن يطلعوا عليه . « التى تشتهى الملائكة أن تطلع عليها » . إنها تنحنى عليه ، كما كانت الكروبيم تنحنى فوق الغطاء حيث وُضعت هذه الحقائق ، ورُش عليها الدم . لعلها تناقشت طويلا حول المعنى الكامل لموت المسيح . ومع أنها لا تقدر أن تدرك كل معناه ، فإنها تكتفى بأن تترنم بكل ما تعرفه ، صارخة : « مستحق هو الخروف المذبوح » (رؤ ٥ : ١٢) . إن الصليب يسترعى كل اهتمام الأرواح السمائية .

لعل هذه الآلام قد زادت الملائكة اقترابا من الله . وعلى أى حال فقد أعطتهم فكرة عميقة عما فى قلب الله ، لم يكن ممكنا أن يصلوا إليها بطريقة أخرى . وإذ ذاك زاد إعجابهم وزاد تسبيحهم لله .

وإن كان الملائكة ، مع ما لديهم من المعرفة ، يجدون دواما معانى جديدة لآلام المسيح والأمجاد التى بعدها ، فما أقل معرفة أحكم الناس فينا لها . نحن لا نعرف إلا القدر الضئيل من هذا المحيط الذى لا يُحد اتساعه . فنحن لا زلنا فى بداية المعرفة .

لكن يقينا إنه قد قيل ما يكفى لكى يكشف عن معانى جديدة لآلام المخلص . وإذ نرجع إليها ، نجد الارتفاع والعمق والطول والعرض فى هذه المعانى ، التى شغلت أذهان الأنبياء والملوك ، والملائكة والقديسين ، وحيّرتهم .

٧: كونوا قديسين

« لذلك منطقوا أحقاء ذهنكم صاحين ، فألقوا رجاءكم بالتمام على النعمة التى يؤتى بها إليكم عند استعلان يسوع المسيح . كأولاد الطاعة لا تشاكلوا شهواتكم السابقة فى جهالتكم . بل نظير القدوس الذى دعاكم كونوا أنتم أيضا قديسين فى كل سيرة ، لأنه مكتوب : كونوا قديسين لأنى أنا قدوس . وإن كنتم تدعون أبا الذى يحكم بغير محاباة حسب عمل كل واحد ، فسيروا زمان غربتكم بخوف » (١ بط ١ : ١٣ - ١٧) .

كلمة « لذلك » التى تبدأ بها هذه الآيات تلخص الآيات السابقة ، ويجعلها الرسول قاعدة متينة يبنى عليها كلامه التالى لها . لأن مصيرنا هو ما وصلنا إليه ، ولأن يسوع المسيح هو هو ، ولأن خلاصنا كان موضوع اهتمام الأنبياء والرسل والشهداء والملائكة ، « لذلك » ...

وموضوع بحثه هو القداسة . « كونوا أنتم أيضا قديسين فى كل سيرة » . إن النداء للقداسة يرن صوته فى كل الكتاب المقدس . هى النغمة التى يرددها دواما سفر اللاويين ، الذى اقتُبست منه هذه العبارة . قارن (ع ١٦) بما ورد

فى (لا ١١ : ٤٤ ، ١٩ : ٢ ، ٢٠ : ٧ و ٢٦ إلخ) . وهى أيضا المطلب الرئيسى فى العهد الجديد . والواقع أن كلمة عملية الفداء العجيبة ، منذ المشورة الأزلية إلى حلول الروح القدس فى يوم الخمسين ، كان هذا هو هدفها : أننا نحن أبناء النعمة ينبغى أن نتمثل بالله فى القداسة التى هى الترنيمة الدائمة لجوقة ملائكة السماء ، تلك الترنيمة التى سمعها النبى الإنجيلى أشعيا فى الهيكل فى سنة وفاة عزيا الملك ، والتى سمعها فيما بعد أيضا يوحنا الحبيب إذ كان فى منفاه فى جزيرة بطمس ، والتى لن تنتهى إلى الأبد : « قدوس قدوس قدوس رب الجنود » (أش ٦ : ٣ ، رؤ ٤ : ٨) .

•

القداسة يختص بها الله وحده . هى مجموع الصفات الإلهية ، خلاصة اللاهوت ، الوتر الذى يخرج نغمة متناسقة من الصفات الإلهية ، الشعاع الذى يجمع الألوان الكثيرة فى الكمالات الإلهية . هى اللفظ الواحد الذى يعبر عن طبيعة الله . أبعادها لا تُحد . مجدها يبهر عين أى مخلوق خلقه الله . « من مثلك بين الآلهة يا رب . من مثلك معتزا فى القداسة . مخوفا بالتسابيح . صانعا عجائب » ؟ (خر ١٥ : ١١) . لن يستطيع لسان أن يتحدى حق الله فى أن يعلن بأنه هو « قدوس إسرائيل » (أش ٤٣ : ٣) ، أو يقول فى الكلمات التى أمامنا « لأنى أنا قدوس » (ع ١٦) .

وواضح أن هذه القداسة ميسورة لنا . فالله القدوس دعانا إليها (ع ١٥) . « لأن الله لم يدْعُنا للنجاسة بل فى القداسة [1] » (١ تس ٤ : ٧) . وهو قد « دعانا دعوة مقدسة » (٢ تى ١ : ٩) . وكل الذين صاروا « شركاء الدعوة السماوية » دعوا « إخوة قديسين » (عب ٣ : ١) .

(١) « لم يدعنا إلى النجاسة بل فى القداسة » حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الإنجليزية .

لكن الله لا يدعونا إلى قمم عالية نعجز عن أن نتسلقها ، ولا إلى مهام لا نقدر أن نتممها . **ودعوته تتضمن حقيقتين** [الأولى] إن قداسته فى متناول أيدينا [الثانية] إنه مستعد أن يمدنا بكل ما يلزم لكى يتمم فينا ما يدعونا له . الله يريد بأن يجعلنا قديسين ، وهو قادر أن يكمل ما وضع أثاثه عند أعماق الجلجثة (لو ١٤ : ٢٩ ، ٣٠) .

وليست هذه القداسة وقفا على القديسين والرسل وحدهم ، ولا على الأيام الذهبية الخاصة التى يختبرها الكثيرون . فالمثل الأعلى الذى وضعه الله شامل جدا « فى كل سيرة » (ع ١٥) . لقد تنبأ زكريا عن العصر الذى تكتب فيه حتى على أجراس الخيل تلك العبارة التى كانت تكتب على عمامة رئيس الكهنة ، وهى : « قدس للرب » . والله يريد أن تكتب هذه العبارة على أجراس البيوت ، وأجراس المكاتب ، وأجراس الحوانيت ، وأجراس المصانع . وهكذا تكون فى كل ناحية من نواحى حياتنا نغمات موسيقية حلوة تُرفع لربنا العظيم الأبدى . ينبغى أن تتوفر القداسة فى كل ركن ، وفى كل ناحية من حياتنا اليومية ، مثل الجلاجل الذهبية التى كانت تبين كل حركات رئيس كهنة إسرائيل (خر ٢٨ : ٣٣ - ٣٥ ، زك ١٤ : ٢٠ و ٢١) .

هنالك طريقة وحيدة نكون بها قديسين كما أن الله قدوس : هى الطريقة الواضحة أن نفتح كل كياننا ليسكن فينا الله القدوس . لا يستطيع أى واحد منا أن ينال القداسة بعيدا عن الله . ليست القداسة ممكنة إلا إذا امتلكت النفس الله ، أو بالأحرى ، إذا امتلك الله النفس . لا يمكن قط أن تكون غريـزة موروثة ، ولا يمكن أن ننالها بعيدا عن ملء اللاهوت ، كما أن النهر لا يمكن أن يفيض إن قُطع عن منبعه . ونحن نكون مقدسين بنسبة ما يمتلكنا الله . والذى يتمتع بقدر ضئيل من القداسة هو الذى لا يسمح لله إلا بقدر ضئيل من كيانه ، وبعده عن حياته اليومية بستائر سميكة من الإهمال والتكاسل . والأكثر قداسة هو من يحرص بأكثر تدقيق على إنكار نفسه ، ويطلب زيادة الامتلاء من الله . الأكثر قداسة هو من يسلم نفسه تسليما كليا لتأثير وتملك وتحرك الروح القدس ، الذى يتوق أن يجعلنا شركاء الطبيعة الإلهية لأقصى حد .

أتريد أن تكون أكثر قداسة ؟ هنالك طريقة واحدة فقط : هى أنك يجب أن تفسح لله مجالا أوسع فى قلبك . القداسة هى جمال رب الجنود . وأنت لا تقدر أن تفصل القداسة عن الله ، أو الله عن القداسة . لكى تكون لنا القداسة ينبغى أن يكون لنا الله . كما أنه ليس من العسير الحصول على كليهما ، فهو يتوق إلى أن يحل فى داخلك . وأشواقك هى استجابة قلبك الضئيلة لدعوته . والقوة التى تعمل فى الداخل تعادل النعمة « القادرة أن تفعل كل شىء أكثر جدا مما نطلب أو نفكر » (أف ٣ : ٢٠) . لم يشته الإنسان قط من الله أكثر مما اشتهاه الله من الإنسان . وقداسة الله أعلنت نفسها فى هيئة بشرية فى شخص يسوع المسيح ربنا . ولذلك فهى قادرة كما هى مشتاقة إلى دخول حياة البشر عن طريق روح الله القدوس الذى به نمتلىء إلى كل ملء الله (أف ٣ : ١٩) . فاطلب من أبيك السماوى ليملأك بذلك الروح القدس . هو يتوق أن يعطينا الروح القدس أكثر مما يتوق أى أب أرضى أن يعطى خبزا لابنه الجائع . وإذ تطلب ، تجاسر على أن تؤمن بأنك قد أخذت ، « واذهب بقوتك هذه » (قض ٦ : ١٤) .

وهذه القداسة تعلن عن نفسها بطرق كثيرة .

١- روح التغرب والارتحال

اعتاد أهل الشرق أن « يمنطقوا أحقاءهم » . فهم يلبسون الملابس الفضفاضة التى تساعدهم على سرعة التحرك ، والتى تناسب جو بلادهم . لكنها تعطل كثيرا الشخص المسافر ، أو المصارع ، أو المحارب . عندما كان الإسرائيليون ينتظرون كل لحظة الدعوة للخروج كانوا يقفون ، وأحقاؤهم ممنطقة ، حول المائدة التى عليها خروف الفصح . هكذا منطق النبى النارى نفسه لكى يركض أمام مركبة آخاب ، من الكرمل إلى يزرعيل (١ مل ١٨ : ٤٦) .

إن نفوسنا مرتدية ملابس واسعة من الشهوات المختلفة ، والعواطف والنزوات ، وهذه الملابس غير ملتصقة بأجسامنا ، بل هى حرة طليقة فضفاضة ، غير أنها تمسك بأشياء كثيرة من العالم ، وتعرقلنا فى ميدان الجهاد المسيحى . فينبغى أن لا ندعها تهفهف حيثما شاءت ، وإلا تعرضنا لخطر شديد . لقد تحسر أبشالوم على اليوم الذى طالت فيه خصل شعره وتموجت خلفه مع الريح . فيجب أن نمنطق عادات نفوسنا ، ونهندم ذواتنا ، لكى نجتاز - بسرعة وسهولة على قدر استطاعتنا - وسط غابة هذا العالم الشائكة .

منطق ذاتك ، واكبح جماح شهواتك . قاوم محبة التلذذ بالعالم . اقتصد فى نفقاتك على نفسك ، دون إسراف . راقب عينيك وشفتيك ، أفكارك ورغباتك ، لئلا يفلت منك زمام ضبط النفس . « فوق كل تحفظ احفظ قلبك » (أم ٤ : ٢٣) . لا تنشغل كثيراً « بسوق الأباطيل » [العالم] ، بل اعبره بسرعة .

كونوا « صاحين » . الصحو صفة عظيمة ، طالما أوصِيَ بها فى العهد الجديد الأساقفة ، والشمامسة ، والنسوة ، والمتقدمون فى السن ، والشبان ، والشابات . وهى تعنى الاعتدال ، وضبط النفس ، وتقدير المرء لنفسه بالحق والعدل . هنالك بعض ممن يفقدونها باتخاذ موقف عبوس صارم ، يمتنعون عما هو برىء وطبيعى ، وينظرون باحتقار إلى من لا يستسلمون لوساوسهم . أما الشخص الصاحى حقا ، المتعقل ، فإنه بالعكس يتحرك بحرية فى العالم الملىء بالأشياء الجميلة البريئة ، ويحسن استخدامها ، ويفرح بكل شىء صالح يعطيه الرب ، لكنه لن يسمح لأى شىء منها بأن يسىء إلى عواطفه ، أو يطغى على إرادته .

عندما ينشغل القلب بكليته بالرب ، وبخدمته ، ومحبته ، فإنه لا يمكن أن يفتن بأية مناظر خلابة ، بل يعطى ظهره لكل إغراءات العالم . إن القلب الطاهر ، الذى احتله كله الله ، يشبه رجلا دُعى إلى وليمة فاخرة ، فخرج منها وهو يحتقر الأطعمة التافهة التى يتهافت عليها الفقراء المعدمون .

رجاء تام . « فالقوا رجاءكم بالتمام » . سيروا بلا خوف حسبما يرشدكم الرجاء . ليكن للرجاء عمله الكامل ، فالرجاء لا يُخزى . عندما تنقشع الغيوم ، ويستعلن الرب يسوع من السماء ، فإنكم سوف تجدون أن « النعمة التى يؤتى بها إليكم » تفوق كل تصورات الرجاء . الرجاء هو سراج النفس . وفى بعض الترجمات يتبين أن النعمة « آتية » إلينا ، أى أنها فى طريقها إلينا .

٢- أولاد الطاعة (ع ١٤)

كنا سابقا أولادا عصاة ، لكننا إذ تجددت حياتنا ، صرنا أولاد الطاعة ، أولادا مطيعين ، وصار للأم الجميلة ذرية نبيلة . هذا ما يوحى به النص الحرفى فى الأصل اليونانى . ويا له من تغيير عجيب يحدث فى حياة الذين يجوزون هذا الاختبار . إنهم لا يعودون بعد يشاكلون شهواتهم السابقة . « لا تشاكلوا شهواتكم السابقة فى جهالتكم » (ع ١٤) .

الشهوة عاطفة طبيعية ، ولما تنحرف تتخطى كل الحواجز ، لتنفذ إرادتها المستبدة . عندما نكون لا نزال فى ظلام الطبيعة ، غير مستنيرين بنعمة الله ، فإن هذه الشهوات تتحكم فينا ، فنشاكلها ، بل هى تشكلنا كما يشكل الفخارى الآنية . إن الجهل بشناعة الخطية ، وعواقبها الوخيمة ، وطبيعتها الماكرة المخادعة ، يؤدى بنا إلى الاستسلام لها إلى أن تتحكم فينا وتهلكنا . وعندما نستيقظ ، فإننا نفزع عندما نرى الهاوية السحيقة المروعة التى تحتنا المؤدية إلى جهنم . لكن عندما لا نشاكل شهواتنا السابقة ، بل نسلك حسب إرادة الله ، فهذه هى الطاعة .

من المستحيل أن نعبر عن أهمية هذه الحقيقة . فالطاعة ليست هى القداسة ، لأن القداسة هى امتلاك الله للنفس . لكن القداسة تؤدى دواما إلى الطاعة . وفى كل مرة نطيع نكتسب فى طبيعتنا قدرا أوفر من طبيعة الله . « إن سمعتم لصوتى[1]

(١) « أطعتم صوتى » حسب الترجمة الإنجليزية .

وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة » (خر ١٩ : ٥) . إذن فافعلوا الصالح ، وانبذوا كل ما يتجه نحو خدمة الذات . لا تكتفوا بالصلاة والتمنيات الطيبة ، بل اعطوا . وعندئذ يتبين على وجوهكم وفى حياتكم أنكم ازددتم تمثلا بأبى الأرواح ، وتكونون قديسين .

قليلون من المسيحيين هم الذين يدركون أن الطاعة لإرادة يسوع وناموسه ، حتى فى الأمور التافهة ، وفى كل شىء ، هى الشرط ، الذى لا غنى عنه ، للحياة وللفرح وللقوة . النفس المطيعة هى النفس المقدسة ، التى يسكنها الله ويملأها ، ويشع منها النور والمحبة . أيها القارئ العزيز ، اعتزم من هذه اللحظة على أن تعيش وفق ما لديك من نور . ليكن شعارك هو هذا : « كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له[١] » (خر ٢٤ : ٧) . لقد قال إسرائيل هذا ، لكنهم فشلوا فشلا ذريعا . فقولوه أنتم بقوة الروح القدس ، وعندئذ يجعله أمرا يسيرا جدا .

٣- مجازاة الآب السماوى

« وإن كنتم تدعون أبا الذى يحكم[٢] بغير محاباة حسب عمل كل واحد فسيروا زمان غربتكم بخوف » (ع ١٧) . سوف يدان أولاد الله أمام كرسى دينونة المسيح (٢ كو ٥ : ١٠) . وهذه الدينونة سوف تحدد جزاء أمانتنا أو العكس (مت ٢٥ : ١٩ ، ١ كو ٣ : ١٤) .

هـذه الدينونة متخـذة مجـراها الآن ، ونحن الآن واقفون أمام كرس الدينونة . « الذى يدين » فى الحاضر ، علاوة على المستقبل . إن الحكم الإلهى يصدر تباعا على كل تصرف من تصرفاتنا ، ويظهر نفسه فى كل ساعة ، خيرا كان أم شرا .

---

(١) « ونطيع » حسب الترجمة الإنجليزية .

(٢) « يدين » حسب الترجمة الإنجليزية .

وهذه الدينونة هى دينونة الآب . فنحن ندعوه أبا . لاحظ أن هذه الدعوة متبادلة . فهو دعانا ، ونحن ندعوه . ودعوته لنا كأبناء تنتج عنها دعوتنا له كآب . ولا داعى لكى نخاف من فحصه لنا ، فهو فحص رقيق . « كما يتراءف الأب على البنين يتراءف الرب على خائفيه . لأنه يعرف جبلتنا . يذكر أننا تراب نحن » (مز ١٠٣ : ١٣ و ١٤) .

وهذه **الدينونة** « بغير محاباة » . لقد أعلنت هذه الحقيقة للرسول بطرس قبل ذلك بسنوات طويلة برؤيا مجيدة فى السماء ، فأثرت على خدمته التالية (أع ١٠ : ٣٥) . نحن لا ندان حسبما نتظاهر به فى أقوالنا ، أو حسب المظهر ، بل « حسب عمل كل واحد » .

النفس التقية تدرك هذا بقدر كبير من الرهبة ، لا رهبة الخوف الذى له عذاب (١ يو ٤ : ١٨) ، بل رهبة المحبة ، التى تجعلنا « نسير زمان غربتنا بخوف » . لا خوف العواقب الشريرة ، بل خوف إحزان الآب وإغضابه ، أو فقد علامات محبته والقرب منه التى تُمنح للأبناء المطيعين . « المحبة تطرح الخوف إلى خارج » (١ يو ٤ : ١٨) ، لكنها أيضا تنشىء الخوف . لا خوف الجبن ، بل رقة الضمير الذى يخشى أقل أثر يعكر جو الحياة الداخلية ، فيحجب عنا نور وجه الآب إلى لحظة . وهكذا تمر أيام الغربة سريعا ، فنرى الوطن السماوى يحيينا ، ويأمرنا بأن نسرع الخطى إليه .

٨: مفديون بالدم

« عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التى تقلدتموها من الآباء . بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب أو دنس دم المسيح ، معروفا سابقا قبل تأسيس العالم ، ولكن قد أظهر فى الأزمنة الأخيرة من أجلكم ، أنتم الذين به تؤمنون بالله الذى أقامه من الأموات وأعطاه مجدا حتى أن إيمانكم ورجاءكم هما فى الله » (١ بط ١ : ١٨ - ٢١) .

نحن ننتمى لجماعة المفديين (١ تى ٢ : ٦) . وأغلب البشر لا يدركون هذه الحقيقة . وبعض الذين يعرفونها لا يسمحون لمعرفتهم بأن تؤثر على حياتهم أو سلوكهم ، بل يبيعون بكوريتهم من أجل أكلة عدس . وسعداء هم الذين لا يتواكلون على حقيقة الفداء على أساس أنهم قد حصلوا عليه فعلا ، لكنهم أيضا يسمحون له بأن يكون هو الرئيسى فى كل حياتهم . لأمثال هؤلاء يوجه الرسول هذه الكلمات بقوة عجيبة « عالمين أنكم افتديتم » .

لعل أخطر حقيقة بصددنا هى أننا افتدينا . إنها لحقيقة خطيرة أننا خُلقنا ، دعينا إلى الوجود بمقتضى الأمر الإلهى الذى صدر بإرادة الخالق . وإنها لحقيقة خطيرة

أننا وُهبنا الحياة فى عالم ملىء بالإمكانيات العجيبة التى نتمتع بها . وإنها لحقيقة خطيرة أن تكون لنا نفس ، تستطيع أن تذكر الماضى ، أو تتساءل عن الحاضر ، أو تنظر المستقبل . لكن أخطر الكل هى أننا افتُدينا . افتُدينا كما افتُدى شعب الله من عبودية مصر ، أو كما يُفتدى العبد من العبودية ويطلق حرا ، أو كما يُفتدى عبد الخطية والعادات الشريرة ويوهَب الحرية . افتُدينا أو اشتُرينا . ليس معنى هذا أن السماء اشتُريت لنا ، بل أننا اشتُرينا للسماء . هذا يميزنا إلى الأبد من كل المخلوقات الأخرى .

١- ثمن فدائنا غال جدا

١- **من الناحية السلبية** : « لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب » . إن الرجل الغنى ، الذى تعود أن ينظر إلى ثروته كمفتاح لكل سعادة ، يذهل فى بعض الأحيان إذ يجد أنها ليست كذلك . فهى لا تمس إلا هامش الحياة ، لكنها تفشل فشلا مطلقا فى النواحى التى تؤثر على جوهر وجودنا كبشر . فالمال لا يعوض عن النذر الذى نقضناه ، ولا يسترد الكلمات التى تحطم النفس ، ولا يسترد حياة الإبن العزيز الذى مات ، ولا يكفر عن نقص المحبة . « إن أعطى الإنسان كل ثروة بيته بدل المحبة تحتقر احتقارا » (نش ٨ : ٧) .

يستطيع المال أن يشترى فقط الأشياء التى تفنى مثله . أما إذا دخل ، أو حاول دخول منطقة النفس الأبدية الخالدة ، فإنه يجد الباب موصدا ، ويجد أن عملته لا يمكن تداولها ، وأن طلباته لا تستجاب .

أنت لا يمكنك أن تشرح الحجة المقنعة بالسكين ، أو تقيس المحبة بالمتر ، أو تزن النفوس بالأوقية . وعلى هذا القياس يمكن القول إنه من المستحيل فداء النفس « بأشياء تفنى بفضة أو ذهب » . لا توجد علاقة بين الذهب والفضة ، اللذين لا بد أن يفنيا أخيرا مهما طال بقاؤهما ، وبين النفس الخالدة ، غير القابلة للفساد أو الفناء ، والتى سوف تتحدى المادة ، بل تتحدى انقضاء الدهور .

كان يمكن أن يعطى الله شموسا من ذهب ، أو كواكب من فضة ، أو مجموعات نجوم متلألئة ذات معادن ثمينة . لكن لا شىء من هذه يكفى لتحرير نفس واحدة من لعنة الخطية وقصاصها ، أو تغيير صاحبها ليصير ضمن رعاياه الأمناء المخلصين . لو وُضعت فى إحدى كفتى ميزان المسكونة أكوام من كنوز السماء ، وجواهر حوائطها ، وذهب أرضيتها ، ووُضعت فى الكفة الأخرى نفس واحدة ، فإنها تَرجَحُها كلها . ليست للمادة قيمة فى غرفة ميزان الأبدية . ولذلك كان لا بد لله لكى يفدى أن لا يعطى أشياء بل حياة ، لا يعطى عطاياه بل يعطى نفسه .

٢- **من الناحية الإيجابية** . « بل بدم كريم . . دم المسيح » . الدم هو حياة كل جسد . الحياة هى أسمى ما يمتلكه الإنسان ، وأسمى عطايا الله . إن بذل الإنسان شيئا أقل من الحياة من أجل غيره ، فقد فشل فى تقديم أكمل صورة من حياة البذل . أما إن قدَّم حياته ، فقد فعل كل ما يمكن عمله . وعلاوة على هذا فإنه عندما يذكر الدم مقترنا ببذل الحياة فإن هذا يتضمن الموت الفجائى ، والآلام المبرحة ، والعنف والقسوة . والأكثر من هذا أن كل من درس سفر اللاويين ، وأدرك كل ذلك النظام الذى تعلمه بطرس الرسول منذ الطفولية لا بد أن يتذكر فى الحال نظام الذبائح ، الذى بمقتضاه كانت تقدم الغنم يوما فيوما من أجل خطايا الشعب .

عندما يتحدث الرسول عن أننا افتدينا بدم المسيح « كما من حمل بلا عيب أو دنس » ، فإنه لا يشير فقط إلى الآلام والقسوة والظروف التى اقترنت بموته ، بل يردد تلك الفكرة الأولى عن الرب التى سمعتها أذناه من شفتى المعمدان العظيم ، الذى تتلمذ له بطرس فى بداية حياته الدينية (يو ١ : ٣٥ - ٤٢) . ولا شك فى أنه أراد أن يبين بوضوح العلاقة بين مصلوب الجلجثة وبين الحملان التى كانت تُقدم فى عبادة الهيكل الصباحية والمسائية ، وتلك التى كانت تذبح كل سنة فى عيد الفصح العظيم ، وغيرها التى كانت تسفك دماؤها بصفة مستمرة للتكفير عن الخطية ، بل عن الخطايا .

وعندما نتأمل فى عدد الحملان التى كانت تذبح فى الهيكل قديما ، يجب أن نذكر دواما أن كمية كبيرة من لحومها كان يأكلها الكهنة أو مقدموها ، وكانت كل طريقة تتبع بحيث تحفظ الطقس المقدس طاهرا ، وجميلا . وعندما نذكر بأن وظيفة المخلوقات الدنيا هى أن تخدم مصالح الإنسان الضرورية ، ندرك أنه لا يوجد فرق كبير بين أن نموت لتقدم لنا - عن طريق الرمز - حقائق روحية عظيمة ، التى هى الحياة والنفس ، وبين أن تقدم غذاء مناسبا لإعالة الجسد . ودعنى أكرر بأن هذين الغرضين كانا يتوفران فى الذبائح اليهودية .

إنه لأمر جوهرى جدا أن نضع أهمية كبيرة على القصد من هذا الفصل ، الذى يؤيده الكتاب المقدس فى أصحاحات مماثلة كثيرة ، وهو أن موت المسيح لم يكن فكرة طارئة نشأت عن سقوط الإنسان ، بل كان قد دُبر قبل إنشاء العالم . لقد رُتب فى فكر الله وقصده أن يكون ربنا هو الحمل المذبوح ، وذلك قبل أن تظهر الجبال ، وقبل أن تدور الكواكب فى مداراتها ، وقبل أن تشرق أول شعاعة من النور فى الظلام « معروفا سابقا [أو معيّنا من قبل] قبل تأسيس العالم » (ع ٢٠ ، رؤ ١٣ : ٨) .

والواقع أن ذبائح الطقوس اليهودية كانت « أمثلة الأشياء التى فى السماوات » (عب ٩ : ٢٣) . لعل موسى ، عندما صعد إلى الجبل ، سُمح له بأن يطلع على قصد الله وخطته نحو فداء الإنسان . وهذه إذ مثلت أمام عينيه تجسمت فى رموز الكهنوت ، والذبائح ، والطقوس ، الأمر الذى استخدمه الله كطريقة لتعليم الشعب بصورة مادية عن الحقائق الأبدية .

ينبغى أن لا نظن بأن فكرة الصليب نشأت من سفر اللاويين بل لندرك بأن سفر اللاويين نشأ من الصليب الذى كان مرسوما فى فكر الله منذ الأزل . ومع ذلك نحن لا نخطىء إذ نقول أن سفر اللاويين هو المفتاح الحقيقى لكى نفهم معنى الصليب . فى أسفار الكتاب الأولى يقدم لنا الروح القدس الاصطلاحات التى كان سوف يستخدمها فيما بعد . وعبثا نحاول فهم أعاجيب الصليب دون الدخول إلى عمق معنى طقوس وذبائح اليهود القديمة .

إن وُجد ما هو أكثر وضوحا فى الذبائح اليهودية فهو إنابة البرىء عن الأثيم . وعلى هذا الأساس ينبغى أن نفهم معنى موت فادينا . بهذا المعنى بذل نفسه من أجلنا . وهذا هو السبب الذى لأجله يضع الرسول بطرس تشديده على أن ذبيحة المسيح ثمينة جدا . لم يكن ممكنا تقديم أى شىء أقل من دم المسيح الثمين . لأنه كان يجب أن لا يُقدم دم مجرد شخص عادى يتألم ، بل دم شخص يقدر أن يتألم من أجل كل الخطاة .

إن دم المسيح ثمين بسبب سمو طبيعته ، وبسبب كمال صفاته . فهو « بلا عيب » أى بدون خطية شخصية . وهو « بلا دنس » أى لم يتدنس باحتكاكه بالخطاة (ع ١٩) . هو مثل الحمل فى الوداعة ، والرقة ، والطهارة ، وعدم الشكوى من التألم . ولذلك كان يليق بعملية تطهير كل الخطايا . آه ، يا له من دم ثمين ، ويا لقلب يسوع المقدس الذى تفجر منه هذا الدم ، إنه قلب مقدس ، محب ، رقيق ، سُحق بالحزن . يا لنقاء تلك الثياب التى تُغسل فى ذلك الينبوع ، فهى أنقى من الثلج .

٢- غاية فدائنـــا

« من سيرتكم الباطلة التى تقلدتموها من الآباء » . هل تـدرك تماما المركـز الذى نُقلنا إليه - نحن المؤمنين - سفك دم يسوع ؟ هو ثمن فدائنا ، الثمن الذى اشتُرينا به لنكون بكليتنا ملكا للمسيح . كان الرسـل يعيشون فى زمن عبودية قاسـية ، ولذلك لم يترددوا عن أن يقتبسـوا منها الصورة التى تبين علاقتنا بمخلصنا . « إنكم لستم لأنفسكم . لأنكم قد اشتُريتم بثمن » (١ كو ٦ : ١٩ و ٢٠ ، ٧ : ٢٣) . « ينكرون الرب الذى اشتراهم » (٢ بط ٢ : ١) .

كان من يشترى عبدا يعتبره متاعا له ، أو قطعة من أثاث البيت . كان يمكنه - إن أراد - أن يطوّح به ليكون طعاما لأسماكه ، دون أن يجد من يحتج عليه أو

يعاقبه . كان يعتبر بأنه حر التصرف فى كل ممتلكاته وإيراداته ومواهبه ، وأن كلمته قانون مطلق . هذه هى حقوق مخلصنا الصالح علينا . فقد اشترانا من لعنة الخطية وقصاصها ، لنكون له شعبا خاصا ، ملكا له .

من ذا الذى يقدر أن يعيش كما تعود أن يعيش ، سائرا فى سيرته الباطلة ، التى تقلدها من الآباء ، مكتفيا بأن يفعل كما يفعل غيره الذين هم أمامه ؟ لقد وُضعت علينا مطالب جديدة . وفادينا هو الرب . وكما أنه حررنا من لعنة الخطية وقصاصها ، هكذا يطلب منا أن نخرج ونكرس أنفسنا له ، ونترك الخرنوب لنأكل الخبز ، ونهجر الأوهام لنتمسك بالحقيقة ، ونترك السيرة الباطلة التى تقلدناها من الآباء لنتمسك بالطهارة والقداسة ونكرس أنفسنا له .

يا للتغيير العجيب المقدَّم لنا فى يسوع المسيح فسيرتنا الباطلة تستبدل بالقداسة فى كل سيرة (ع ١٥) ، وتقليدات الآباء تستبدل بالسمو إلى فوق لاتباع ذاك الذى قام من الأموات إلى المجد ، واتكالنا على السيرة الباطلة التى تقلدناها من الآباء يُستبدل بالمسيح نفسه .

هل اتخذت وجهة النظر هذه ؟ إن لم تكن قد اتخذتها فاعترف بالدموع بلا إبطاء أنك قد سلبت سيدك . اعترف بمطالبه . كرس ذاتك بكليتك لخدمته . ويكفيك الزمان الماضى أنك قد سلكت فى السيرة الباطلة التى تقلدتها من الآباء ، بما فيها من أباطيل وخطايا . ودم يسوع المسيح الذى سُفك عنا يعطلنا عن السير وراء الأباطيل ، ويغير تفكيرنا .

٣- مميزات الفـادى

« أنتم الذين به تؤمنون » . إن إيماننا ورجاءنا اللذين انشغلا بصفة خاصة بالمسيح منذ بداية حياتنا المسيحية ، لدرجة أننا كثيرا ما نجد أنفسنا لا نخاطب إلا

شخصه فى الصلاة ، يقدمان إلى الله الأزلى الأبدى بيسوع المسيح الذى هو الله . الإبن يعلن الآب كما وعد (يو ١٤ : ٧ - ٩) . والآب يُعرف ويُحب عن طريق الإبن . والله يصير الكل فى الكل . والنفس ترتضى بأن تركز تفكيرها فى من أقام ومجد ربنا المبارك .

خليق بنا أن نتأمل جيدا فى هذه الكلمات الجوهرية التى تعلن حقيقة جوهرية . يجب أن لا ننسى بأن غاية إيماننا ينبغى أن تكون إله القيامة ، أبا ربنا ومخلصنا يسوع ، الرب الذى آمن به الآباء . ولنذكر أيضا بأن من ضمن غايات إعلان الآب فى شخص يسوع المسيح وأعماله هو أن يجعل نفوسنا الخائرة تؤمن به . « تؤمنون بالله الذى أقامه من الأموات وأعطاه مجدا حتى أن إيمانكم ورجاءكم هما فى الله .



٩ : المحبة المسيحية

« طهروا نفوسكم فى طاعة الحق بالروح للمحبة الأخوية العديمة الرياء . فأحبوا بعضكم بعضا من قلب طاهر بشدة . مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد »
(١ بط ١ : ٢٢ و ٢٣)

نحن نحب الرب الذى لم نره (ع ٨) ، فيجب أن نحب أيضا أخوتنا الذين نراهم . فالمحبة الأخيرة هى برهان الأولى . « لأن من لا يحب أخاه الذى أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذى لم يبصره » (١ يو ٤ : ٢٠) . « فأحبوا بعضكم بعضا » .

لكن مثل هذه المحبة ليست بالأمر الهين . نحن نميل إلى أن نقرأ وصية كهذه ثم ننصرف قائلين : « نعم ، هذا كل ما نحتاج إلى أن نعمله . يجب أن نحب كل واحد ، سيما الذين ينتمون إلى نفس الكنيسة التى ننتمى إليها نحن - أى أخوتنا » . وما هى هذه المحبة التى نفكر فيها ؟ أليست هى مجرد التظاهر بالحنو ورقة الإحساس ؟ كثيرا ما كانت الحياة التى نرسمها لأنفسنا ، كاتباع لوصايا المحبة الجامعة الشاملة ، هى أن نسلك حسب رغباتنا وأهوائنا ، أن نجعل كل شىء حولنا سهلا ولينا ، أن نتظاهر بالابتسامة الحلوة . هذه أسهل حياة ممكنة لبعض الأمزجة . هم بالطبيعة لطفاء ، وظرفاء ، وبشوشون ، وكرماء . لكن أهذا يتمم وصية العهد الجديد المتكررة ، القائلة بأننا يجب أن يحب بعضنا بعضا « كما أحبنا المسيح » ؟ فكثيرا ما كان هنالك شىء من

محبة الذات البراقة فى لطفنا الذى نتظاهر به ، الذى يحاول أن يلاطف الجميع ، ويتجنب أن يُغضب أحدا .

وما هى هذه المحبة التى تحدث عنها ربنا ورسله ؟ ليست هى فقط العواطف الطيبة ، أو البواعث الكريمة . ليست هى قطعا التظاهر بالحنو ورقة الإحساس الذى يُظهر ذاته فى التنهدات أو فرط السرور . ليست هى التودد للآخرين . لكن هى ، قبل كل شيء ، خدمة للآخرين ، وإنكار الذات ، وبذل النفس . هى تقديم مصالح الآخرين على مصلحتنا ، ليس لأنه حسن أن نفعل هكذا ، بل لأنه حق أن نفعل هكذا ، أن يتجه نشاطنا حول الآخرين ، أن نموت كل يوم مائة مرة فى إنكار الذات بغير تطفل . أن نتجنب التسرع فى الكلام ، والكلمات الجارحة ، والانتقاد الهدام . أن نخلى المكان المريح فى قطار السكة الحديدية من أجل محبة الله . أن نقود طفلا ضالا فى الطريق ونوصله إلى بيته ، لكى نسمع هذه الكلمة المفرحة « بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم » (مت ٢٥ : ٤٠) . أن نُظهر للمقيمين معنا فى البيت ، فى أتفه الأمور ، نفس العواطف التى يظهرها أهل العالم لمجرد الأدب والاحتشام ، وأن نفعل هذا من أجل المسيح . هذه كلها من مميزات المحبة التى ليس لها وجود أصلا فى القلوب البشرية ، لكنها تنبعث من الله ، وتنزل فى قلوب أتباعه ، وترجع منهم إليه ثانية . وهذا هو ما يطلبه منا الله .

ولنتأمل الآن فى علامات هذه المحبة ، ومسبباتها ، ومصدرها الإلهى . ليت الروح القدس ، الذى من أول ثماره « المحبة » (غل ٥ : ٢٢) ، يسكبها فى قلوبنا (رو ٥ : ٥) .

١- علامات المحبة

١- « عديمة الرياء » : الريـاء مرض يقاوم المحبة المسيحية بشدة . وقد حذرنا منه الرسول بولس فى رسائله أكثر من مرة (رو ١٢ : ٩ ، ٢ كو ٦ : ٦) . كلنا مجربون بأن نتظاهر بأكثر مما نشعر ، أن نقبّل من نفكر فى خيانته ، أن ندارى بالكلمات الناعمة الثغرات التى تزداد اتساعا يوما بعد يوم . فى كثير من

الأحيان نبدى لأصدقائنا عواطف لا نضمرها لهم فى قلوبنا . وفى كثير من الأحيان نتكلم أمامهم بغير ما نتكلم به وراء ظهرهم . و وفى كثير من الأحيان نجرب بالاحتفاظ بالمظهر الخلاب طمعا فى ربح خفى .

كثيرا ما كان لطفنا مجرد تظاهر ، وكثيرا ما كانت ابتسامتنا مغرضة ، وكثيرا ما كانت كلمتنا أنعم من الزبدة ، وقلوبنا سيوفا مسلولة (مز ٥٥ : ٢١) . كثيرا ما كان قبولنا لأعذار إخوتنا سطحيا كما ظن أخوة يوسف أن قبوله لأعذارهم سطحى وسيتغير الحال بعد موت أبيهم . يجب أن تكون محبتنا « عديمة الرياء » .

٢- **طاهرة** : « قد تكون القلوب غارقة فى النجاسة ، منساقة وراء الخطية والدعارة والمسكرات . أما محبة المسيحيين المتبادلة فيجب أن تكون طاهرة ، منبعثة من بواعث طاهرة وروحية ، وصادرة من وصايا المخلص أو من مثاله » . يجب أن تكون عين القلب بسيطة ، وتصرفاته بلا دنس ، وبواعثه « بيضاء كالنور » . يجب أن لا يكون هنالك تفكير فى الشهوات الجسدية .

إن محبة العالم طالما انتهت بالشهوة ، فتتحطم المثل العليا ، ويصير الجو الصافى معتما . وهنا نجد التجربة . من الخطأ أن نظن بأنه لا يوجد أى خطر من تدنيس أرواحنا الرقيقة الحساسة طالما كنا نحضر الاجتماعات الروحية ، ونتحدث عن الترانيم ، والعظات ، والمواضيع الروحية . إن محبتنا كثيرا ما كانت غير طاهرة .

٣- **ملتهبة** : « من قلب طاهر بشدة » [١] لا بقوس مرتخى الوتر ، بل بكمنجة مشدودة الأوتار لأقصى حدودها . هذا مثال يبدو أمامنا بأنه مستحيل التحقيق . إنه أيسر لنا أن نكون ملتهبين من أجل أنفسنا عن أن نسعى لخير الآخرين بنفس الغيرة الملتهبة . يندر أن تتعدى محبتنا حد المتوسط ، وهى لن تصل إلى درجة

(١) « محبة حارة » حسب الترجمة البولسية ، أو « محبة ملتهبة » حسب الترجمة الإنجليزية .

الغليان . لم نتعلم سر القلب الذى يغلى . ومحبتنا ليست ملتهبة . لا نبكى على سقطات إخوتنا ، ولا نفرح لنجاحهم كما نفرح لنجاح أنفسنا ، ولا تحبهم المحبة التى تنتزع الشر منهم .

كانت صلاة ربنا الأخيرة أن تكون محبتنا هكذا . لقد قصد أن نطرح عنا « الغضب السخط التجديف الكلام القبيح » (كو ٣ : ٨) ، وأن نلبس « أحشاء رأفات ولطفا وتواضعا ووداعة وطول أناة » (كو ٣ : ١٢) . وبهذا يمكن للعالم أن يؤمن (يو ١٧ : ٢١) .

٢- مسببات هذه المحبة

إنها تأتى عن طريق « طاعة الحق » . هذا أمر عجيب جدا . كنا نظن أن محبتنا بعضنا للبعض تنمو باجتماعاتنا للتمتع بالنواحى الاجتماعية ، وبازدياد معرفتنا بعضنا للبعض ، وبالاشتراك المستمر فى الخدمة الروحية . لكن ليست هذه هى طريقة الله . فالوسيلة الوحيدة التى بها تصفو القلوب هى « الحق » .

١- **يجب أن نعرف الحق** . إذا وضعت مرآتين ، الواحدة تجاه الأخرى ، فلا يمكن أن تعكس الواحدة أى نور على الأخرى . أما إذا وضعت بينهما شمعة ، فإن أشعة النور تنعكس عليهما بكيفية لا يمكن لإحداهما أن تفعلها بمفردها . هكذا لا يمكن لاحتكاك المؤمن بالمؤمن أن يحدث بالضرورة قلب الملتهب ، إلا إذا وجد بينهما الحق الإلهى .

إذا درست حياة أقدس القديسين وجدت أنهم اختبروا يقينا بأن محبتهم لله وللناس كانت تنمو بنسبة اكتشافهم لكنوز الحق الإلهى . عندما كانت مواهبهم تنصرف إلى اكتشاف أعماق غنى حكمة الله وعلمه كانت قلوبهم ترقص طربا ، وتمتلىء فرحا لا يعبَّر عنه . « ألم يكن قلبنا ملتهبا فينا إذ كان يكلمنا فى الطريق ويوضح لنا الكتب » (لو ٢٤ : ٣٢) .

٢- **يجب أن نطيع الحق** . عندما تعمل تتعلم . وعندما تطيع تحب . يحاول البعض أن يسموا المحبة باستخدام الألقاب الرفيعة ، أو بتكرار اختباراتهم التى لا تنتهى ، أو بقراءة العبارات التى تثير السرور . لكن كل هذه المحاولات لا تجدى .

إنه لألف مرة أفضل أن ننمى المحبة بطاعة الحق . يجب أن لا نتغافل عن أية وصية . يجب أن نطيع كلمة الله بكل تدقيق . يجب أن نطبق كل الوصايا على حياتنا اليومية ، وعندئذ يزداد فهمنا لكلمات ربنا : « الذى عنده وصاياى ويحفظها فهو الذى يحبنى » (يو ١٤ : ٢١) .

٣- **وعندما نطيع الحق نتطهر به** : « طهروا نفوسكم فى طاعة الحق » . يزكى الشاب طريقه ويطهره بحفظه إياه حسب الكلمة الإلهية (مز ١١٩ : ٩) . والعريس يطهر العروس « بغسل الماء بالكلمة » (أف ٥ : ٢٦) . يا جميع من تئنون تحت الشعور بالقلب الملوث ، هاكم أحد أسرار التطهير : أطيعوا الحق .

سوف يقرأ هذه الكلمات الكثيرون ممن يتعطشون للطهارة والمحبة . إن البراءة المطلقة لن يمكن أن تكون من نصيبهم ، البراءة التى لا تعرف الشر ، ولا توجَّه إليها التجربة . لكنهم يشتاقون لتلك الطهارة التى تجتاز وسط الشر دون أن تتلوث ، كأشعة الشمس التى تجتاز وسط الأجواء الموبوءة دون أن تتلوث ، ويشتاقون إلى تلك المحبة التى لا تستطيع المياه الكثيرة أن تطفئها ، والسيول لا تغمرها (نش ٨ : ٧) .

يعتقد الملحد أن هذه أمور مستحيلة ، فإنه ليس له رجاء فى الله ، ولا ثقة فى الناس . هو ينظر نظرة سوداء لكل مهنة ، ويشك فى كل حركة . أيها الحبيب ، لا تسمح بأن تكون آراؤه سببا فى تحطيم رجائك ، أو تثبيط همتك . تشجع ، واستمر فى طلب القلب الطاهر الملتهب . ولا بد أن يجاب طلبك أخيرا .

لست فى حاجة إلى أن تصعد إلى السماء لطلب هذا القلب ، أو أن تهبط إلى الهاوية ، « فالكلمة قريبة منك فى فمك وفى قلبك » (رو ١٠ : ٨) . طهر قلبك فى طاعة الحق للمحبة الأخوية عديمة الرياء .

وعندما نتعمق فى فهم الحقيقة التالية ، نجده ميسورا أن نفهم كيف أن مثل الطريقة البسيطة تقدر أن تأتى بمثل تلك النتيجة العظيمة .

٣- المصدر الإلهى للحياة الداخلية

« مولودون ثانية » (ع ٢٣) . إن حياتنا الروحية « ليست من مشيئة جسد ، ولا من مشيئة رجل ، بل من الله » (يو ١ : ١٣) . نحن قد ولدنا مرتين ، فى المرة الأولى ولدنا بالطبيعة من أصل آدم الأول ، وفى المرة الثانية ولدنا بالنعمة من أصل آدم الثانى ، الرب من السماء . « شاء فولدنا بكلمة الحق لكى نكون باكورة من خلائقه » (يع ١ : ١٨) . والدليل الجوهرى على هذه الحياة هو الثقة فى المخلص . « وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله أى المؤمنون بإسمه ، الذين ولدوا » (يو ١ : ١٢ و ١٣) .

أما الحياة التى غُرست فينا فهى - كالميراث الذى ينتظرنا - لا تفنى ولا تتدنس (ع ٤) ، وهى بلا عيب ولا دنس كالدم الذى اشترانا (ع ١٩) . ولذلك لا يمكن أن تحدد بالحدود الضيقة ، حدود الزمن ، أو الحواس ، أو حدود هذا العالم الزائل . فهى تتخطاها كلها ، وتتحداها . هى تشترك فى طبيعة الله غير المحدود ، الأزلى الأبدى . ينتج من هذا أن التقوى التى تبعثها تكون لها طبيعة سماوية ، والمحبة التى تظهرها تكون هى المحبة الحقيقية الإلهية التى بلا رياء . إن أفضل ضمان لدوام ويقينية الحياة المسيحية والمحبة المسيحية هو التطلع إلى الحياة التى انبعثت منها ، والتى غُرست بالميلاد الثانى . وأفضل طريقة للتأمل فى هذه الحياة هى أن نتطلع إليها فى « الزرع » الذى نبتت منه ، وغُرست فى قلب المؤمن .

هذا « الزرع » يختلف عن حياة البشر الخارجية . « لأن كل جسد كعشب » ، كل البشر يزولون مثل عشب المراعى الذى يزول باستمرار ، « وكل مجد إنسان كزهر عشب » (ع ٢٤) . إن مصير الزهور الجميلة كمصير الأوراق التى تحيط بها . وهذا يدل على أن الثروة أو القوة أو الجمال أضعف من أن تقاوم فعل الزمان . وبعكس هذا يقف الحق الإلهى الأبـدى ، الذى تحمله كلمة الله . « العشب يبس ، وزهره سقط ، وأما كلمة الرب فتثبت إلى الأبـد » (ع ٢٤) . هى الكلمة الحية ، المحيية . وهى « تثبت إلى الأبد » .

إن بقاء الكتاب المقدس إلى الآن ، رغم كل ما بُذل لإبادته ، بالنار ، وبالبحث والتفتيش عنه ، وبالسيف ، يشهد على أن فيه خواص تميزه ، بما لا يعبِّر عنه ، عن سائر الكتب . إنها لحقيقة واضحة أن كل أقوال الكتاب المقدس « روح وحياة » (يو ٦ : ٦٣) ، لن يزول منه « حرف واحد أو نقطة واحدة » (مت ٥ : ١٨) .

وإن بقاء الكتاب المقدس إلى الآن ، رغم كل المقاومات التى وجهت ضده ، يبرهن على أن فيه شيئا من حياة الله الأبدى الأزلى غير المحدود . واضح جدا أن الله فى هذا الكتاب ، فبقاؤه يبرهن على أن الله فيه . ولذلك فإن حياة الله هى التى تدخل فى نفوس البشر الميتة بكلمة الله فتحييها . والحياة التى تولد فيهم هكذا هى أبدية مثله . ولهذا فإنها ترفعهم إلى السماء ، وتمكنهم من أن يحبوا ، لا بالمحبة البشرية الفاترة ، بل بالمحبة الإلهية الطاهرة بلا رياء .



١ : أطفال الله وغذاؤهم

« فاطرحوا كل خبث وكل مكر والرياء والحسد وكل مذمة . وكأطفال مولودين الآن اشتهوا اللبن العقلى العديم الغش لكى تنموا به ، إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالح »
(١ بط ٢ : ١ - ٣) .

هذه الآيات مرتبطة بما قبلها ارتباطا وثيقا . فى الآيات السابقة تعلمنا كيف إننا ولدنا ثانية ، ودخلنا بالميلاد الجديد فى أسرة الله . وهنا نستأنف نفس الفكرة . فالرسول يخاطبنا كأطفال فى الأسرة الإلهية ، ويأمرنا بأن نطلب الغذاء الذى يناسب علاقتنا المباركة المقدسة .

١- حالتنا كأطفال الله

« كأطفال مولودين الآن » . إن الاستعارة مؤثرة للغاية . فالعالم ليس إلا دار حضانة يقضى فيها ورثة الله أيام طفولتهم الأولى استعدادا لحياة النضوج الكامل هناك فى نور الله . إن أعظم المتقدمين فينا فى المعرفة وفى المواهب ليسوا إلا أطفالا بالمقارنة مع ما سوف يكونون . وإن أبعد ما يصل إليه النظر ، وأوسع المدارك الكاملة ، وأعمق التعبيرات عن الحق ، ليست إلا أفكار أطفال لم ينالوا أى قسط من التعليم ، بالمقارنة مع ما سوف يكون فى الحياة الناضجة الكاملة التى تشير إلينا من هناك .

نفس هذه الفكرة ينقلها إلينا الرسول بولس فى قصيدته الرائعة عن المحبة المسيحية . فقد حاول أن يبين أن هذه المحبة ، التى هى أفضل كل النعم المسيحية ، أبدية فى طبيعتها ، وأنها تبدأ فى النمو هنا ، متحدية شتاء وصقيع الموت ، ثم تزهر فى صيف السماء الأبدى . ولكى يزيد فكرته وضوحا بين الفرق الشاسع بين المحبة والمعرفة . وأكد بأن أعمق معرفة لا بد أن تزول ، لأننا فى هذا العالم لسنا إلا أطفالا .

« لما كنت طفلا كطفل كنت أتكلم ، وكطفل كنت أفطن ، وكطفل كنت أفتكر ، ولكن لما صرت رجلا أبطلت ما للطفل » (١ كو ١٣ : ١١) .

وهكذا أيضا ، فى الحياة العتيدة ، عندما نحتفظ بالمحبة التى كانت لنا فى هذه الحياة ، فإننا نبطل المعرفة لأنها جزئية وغير ناضجة ، فإننا سنكون رجالا فى المسيح بعد أن كنا أطفالا . لا داعى لنا لكى نربك أنفسنا الآن بالأفكار العميقة التى تحملها هذه الكلمات . لكن يكفينا أن ندرك هذه الفكرة ، أن الرسول بولس اعتبر نفسه طفلا بالمقارنة مع نضوجه فى الأبدية .

هذه الكلمة تعلمنا التواضع . « إن أعظم سرعة لنا فى السير هنا فى طريق الطاعة إنما يشبه أولى خطوات الطفل عندما يبدأ يتعلم المشى ، وذلك بالمقارنة مع طاعة المجد الكاملة ، حينما نتبع الحمل حيثما ذهب (رؤ ١٤ : ٤) . كل معرفتنا هنا ليست إلا كجهل الأطفال ، وكل تعبيراتنا عن الله وعن تسبيحه ليست إلا لعثمة الأطفال عندما يبدأون الكلام ، وذلك بالمقارنة مع المعرفة التى سوف نعرفه بها فيما بعد ، عندما نعرف كما عرفنا ، ومع التسابيح التى سوف نقدمها إليه عندما نتعلم الترنيمة الجديدة فيما بعد » (رؤ ٥ : ٩) .

لهذا يليق بنا أن لا نتعب أنفسنا بالأمور العظيمة ، أو الأمور التى هى فوقنا ، بل لنهدىء ونسكت أنفسنا كفطيم نحو أمه ، وهكذا تكون نفسنا كفطيم

(مز ١٣١ : ٢) . يجب أن لا نتعجب إن كان لا يوجد من يبالى بنا أو يعرفنا . يجب أن لا نغضب إن كان الناس يعاملوننا بشىء من الاحتقار . ويجب أن لا نيأس إن واجهتنا أسرار غامضة لا تدرك . إن إدراكنا لا زال فى بدايته ، ومقدرتنا لا زالت ناقصة ، ومواهبنا العقلية محدودة . فليبعد عنا القلب المتكبر ، والنظرات المتغطرسة ، وروح الغرور ، والاكتفاء بما نحن فيه . وما نحن إلا أطفال صغار بدأنا نتعلم الكلام .

وهذه الكلمة تعلمنا أيضا **الرجاء** . لا يوجد شىء صغير أضعف من الطفل ، الذى يظل مدة طويلة يعتمد على عناية والديه . لكن الله الذى حدد شهور الطفولية الطويلة قد أمد الأم والأب بالمحبة والصبر اللذين يمكنانهما من استقبال ذلك المولود الجديد وتربيته . يندر أن تنسى الأم رضيعها ، ويندر أن لا ترحم ابن بطنها (أش ٤٩ : ١٥) . أثناء المرض والضعف ، وأيام الانزعاج والاضطراب ، وليالى السهر ، يكون الملاكان الحارسان (الوالدان) مهتمين بالطفل . أقل صرخة منه يتنبه لها والداه . وهل يمكن أن يضع الله فى البشر صفات غير متوفرة فيه ؟ هل يرتب كل هذه العناية بنا فى ولادتنا الأولى ولا يرتب شيئا لولادتنا الثانية ؟ ألا تعتبر محبة الوالدين عيّنة ضئيلة من المحبة الإلهية ؟ أليس هو الأب والأم معا ؟

يقينا أن هذا هو كذلك . طالما كان هو قد ولدنا فى أسرته فلا بد أن تتوفر فيه محبة الوالدين للطفل ، ولا بد أن تكون لنا حقوق عليه كما أن للطفل حقوقا على والديه . بقدر ما يزداد ضعف الطفل ، وجهله ، واعتماده على والديه ، تزداد حقوقه عليهما . نعم ، وبقدر ما يزداد ضعفه ومرضه ، تزداد مطالبه نحو سرعة العناية به إلى أن يشتد عوده ويشفى من مرضه . من ذا الذى يغضب على الطفل لأنه ضعيف البنية ، أو مريض ، أو غبى ؟ من ذا الذى لا يتخذ من هذه الظروف أسبابا لزيادة العناية بالطفل ، لدرجة أنه يقال إن الأمهات تزداد محبتهن للأطفال الذين كلفوهن تعبا أكثر .

أليس هذا هو الحال مع الله ؟ فإن ضعفك ، وأمراضك ، وإرهاق أعصابك ، والخطية المحيطة بك ، والعادات الردية الموروثة ، وقصر النظر - هذه لا تبعد الله عنك ، بل تزيده اقترابا منك ، وتزيده محبة لشخصك الضعيف . فيجلس بجوارك كما تجلس الممرضة بجوار المريض ، ويراقب كل ما يطرأ عليك ، ويعنى بك دون أن ينعس أو ينام ، ويسد كل أعوازك ، ويعلمك أشياء تخفى على الحكماء والفهماء ، لكنها معلنة للأطفال ، بكلمات لا يقدرون أن يفهموها . هو لن يهدأ حتى تكون قد صرت كاملا فى المسيح .

وهذه الكلمة تعلمنا أيضا **كيف يكون موقفنا الصحيح نحو الله** . اطرح نفسك على يديه كطفل . ألق عليه مسئولية إرشادك ، وحمايتك ، وإنقاذك . إن كنت لا تقدر أن تدرك مشيئته فتوقع أن يعلنها لك . إن لم تكن عواطفك كما ينبغى ، فآمن أن عواطفه من نحوك لا تتغير . إن كنت مغلوبا من الخطية ، فتأكد بأنها لن تحرمك من محبته ، كما أن الطفل المصاب بالجدرى لن يحرم من قبلة أمه لشفتيه الذابلتين . أيها الرجال والنساء الأقوياء ، لا تشامخوا ولا تكفوا عن أن تذكروا بأنكم أطفال الله . استمعوا إلى ما صرح به : « ربيت بنين ونشأتهم » (أش ١ : ٢) .

٢- طعامنا

« اشتهوا اللبن العقلى العديم الغش » . فى الأصحاح السابق شُبهت كلمة الله بالزرع ، وهنا شُبهت باللبن . لكن المبدأ واحد تحت أشكال مختلفة . فالحياة الجديدة تغذّى بما غُرست به أولا . هنالك أوجه للشبه عميقة بين عالم الطبيعة وعالم النعمة ، وهذه تشهد لوحدة القصد الذى يتحكم فى المسكونة ، جاعلا المنظور وغير المنظور وحدة واحدة عظيمة .

لا يوجد ما يبرهن حقيقة الوحى فى الكتاب المقدس بقدر ملاءمته لتغذية حياة النفس الجديدة . طالما كانت هذه الحياة غير متوفرة فإن كلمة الله لا تكون لها جاذبية ،

ويبقى الكتاب المقدس على الرف دون أن يسترعى الانتباه . لكن حالما تبدأ الحياة الجديدة ، وتكون فى أدوار تكوينها الأولى ، فإنها تطلب كلمة الله ، كما يطلب الطفل لبن أمه ، وفى الحال تبدأ فى النمو . إن هذه القرابة بين الحياة الإلهية فى النفس والكتاب المقدس تثبت أنهما صادران من مصدر واحد ، هو الذى أنشأهما . إن الحياة البشرية فى الطفولة تتغذى فى معظم الحالات من منتجات الحياة التى ولدتها . وبما أن الحياة الإلهية فى الإنسان تتغذى بكلام الكتاب المقدس ، فيقينا أن هذا يبرهن بأن مصدره إلهى ، وأنه سام فى صفاته ، وسماوى فى تكوينه ، ولم يتدخل فيه أى شيء أرضى أو بشرى ، كما هو الحال مع الحياة التى يخدمها .

آه ، ليتنا نستطيع أن نقدم للأشخاص المتجددين حديثا حولنا المزيد من كلمة الله الطاهرة الحقة . هذا هو ما يحتاجون إليه حقا . ربما يكونون قد جذبتهم وقتيا الأقوال البراقة وفصاحة اللغة ، لكن هذه لا يمكن أن تشبع نفوسهم . فتحت كل مظاهرهم يوجد جوع شديد للبن الصافى الذى للكلمة . وعندما تقدَّم إليهم هذه الكلمة فى ملئها وبساطتها فإنهم - بشهيتهم المتعطشة - يلتفون حولها كانجذاب النحل نحو الزهور . « قبل تجديد الحياة قد تجذب المرء إلى كلمة الله فصاحة اللغة أو ذكاء الواعظ ، وقد يكون هذا سببا فى تجديد حياته . لكنه بعد التجديد يكون محتاجا إلى اللبن نفسه » .

وهنا ندرك حقا السبب فى ضعف نمو الكثيرين من المسيحيين فى حياتهم الروحية . إنهم يحتاجون إلى العناية المستمرة ، والتغذية الدائمة ، والافتقاد ، لأن معلميهم لم يزودوهم بالغذاء الذى هم فى حاجة حقيقية إليه . لما يكون الغذاء غير مناسب ، فإنه - مهما كان كثيرا - يظهر على وجه الطفل الشاحب . هكذا تبين حالة الخور والضعف فى حياة الكثيرين من المسيحيين عدم ملاءمة الطعام الذى زُودوا به . إنهم لم يقدم لهم حتى اللبن ، وبالتالى لم يقدم لهم الطعام القوى . من هذا يمكن القول أن كنيسة الله تشبه كثيرا عنابر الأطفال فى المستشفى .

٣- كيف تُخلق الشهية للكلمة

« اشتهوا » . من أخطر الأعراض الصحية فقد الشهية . إنها علامة الخطر التى تنذر بأن الشر كامن فى الداخل . ولا يوجد دليل على انهيار الحياة الروحية ، وعلى اعتلال الصحة ، أقوى من انعدام الشهية لكلمة الله . وكيف يمكن خلق هذه الشهية فى حالة انعدامها ، أو إنعاشها فى حالة ركودها ؟ الإجابة نجدها فى الآيات موضوع تأملنا .

١- **« اطرحوا » الشر اللاصق بكم** . وكلمة « اطرحوا » نجدها أيضا فى (كو ٣ : ٨) . والفكرة التى تحملها هذه الكلمة هى تغيير الملابس ، وطالما استعمل هذا التشبيه فى الكتاب المقدس للتعبير عن تغيير عادات النفس . فى هذه الآيات نجد قائمة - ويا لها من قائمة مروعة - بالملابس التى يجب أن نطرحها عنا . إنه لما يؤسف له جدا أن يحتاج الأمر لتقديم النصيحة للمسيحيين ليطرحوا عنهم هذه الشرور ، بل مما يؤسف له أكثر وجودها فيهم .

الخبث ، وهو الحقد الكامن فى الداخل ، الذى يفرح فى مصائب الآخرين . **المكر** ، الذى تُشتم منه رائحة الدهاء والاختيال . **الرياء** ، كتصرف يهوذا الذى أخفى الخيانة تحت ثوب الصداقة . **الحسد** ، الذى يتضجر لما يأتى الخير للآخرين . هذا وأن الخبث والحسد يظهران نفسيهما فى « المذمة » [١] .

هذه الشرور تعطل الشهية لكلمة الله ، كما تعطل الحلوى الشهية الجسدية . كثيرون لا يتلذذون بكلمة الله لأن ذهنهم منصرف إلى تلك الأطايب

(١) « الاغتياب » حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الإنجليزية .

السامة ، أو إلى الكتب التى تثير الشهوة البغيضة ، أو إلى المسرات العالمية ، أو إلى الأفكار الشريرة . كل هذه يجب طرحها فى الحال ، وإلى الأبد . يجب أن تختار الصليب . يجب نبذ أعمال الظلمة المخجلة ، وبهذا فقط توجد وتشتد الشهية لكلمة الله . أزل الأقذار فيتفجر الينبوع طبيعيا من الأرض .

٢- **اذكر بأن نموك يتوقف على التغذية بالكلمة** . من منا لا يتوق إلى أن ينمو ، ويتمثل بالمسيح ، ويكون مقدسا ، وتقيا ، وأن ينمو فى المعرفة وفى النعمة ؟ لكننا كثيرا ما نتوهم بأننا ننمو عندما نحضر الاجتماعات الروحية ونقوم بالخدمات المسيحية . هذا خطأ فاحش . وما لم ندرك بأن النمو يتناسب مع درس الكتاب المقدس ، فمن المستحيل أن نصل إلى كمال وجمال قامة المسيح ، بل نظل دواما أطفالا ، محمولين بكل ريح تعليم .

لا تقرأ الكتاب المقدس لأنك تريد أن تفعل هكذا ، بل لأن هذا حق ، ولأنه لازم لحياتك . ادرس الكلمات تحت إرشاد الروح القدس . وعندئذ تعود الشهية تدريجيا ، فيزداد تقديرك لكلمة الله أكثر من طعامك الضرورى .

٣- **أنعش رغبتك بتذكر البركات الماضية** . « إن كنتم قد ذقتم أن الرب صالح » . نحن نطلب الطعام ليس فقط لأن الجسد يتطلبه ، بل أيضا لأننا نتذكر حلاوته لحلقنا فى الماضى . ونحن كثيرا ما نأكل أكثر مما يلزم لإشباع الجوع لأن الطعام شهى .

ما أحلى الرب العزيز للحنك (مز ١١٩ : ١٠٣) . ليس بين بنى البشر من يشبهه . لقد ملأت محبته نفوسنا أحيانا بفرح وسعادة لا يعبِّر عنهما . وكل من تذوق تلك المحبة وجدت فيه شهوة لا تنمو إلا بالتغذية . لأنهم ذاقوا فإنهم لا بد أن يأتوا مرارا لإشباع الشهية التى تزداد تعطشا ولو كانت تأكل دواما .

ألا تذكر أياما كهذه ، أيام الولائم والأغانى ، حينما كنت تؤخذ إلى بيت وليمته ، أو تجلس تحت ظله بسرور عظيم ؟ إن كان الأمر كذلك فإن تذكرك لها لا بد أن يُنهض الشهية المتعبة ، إلى أن تصرخ مع العروس : « اسندونى بأقراص الزبيب انعشونى بالتفاح ، فإنى مريضة حبا » (نش ٢ : ٥) . عندما تذوق النفس أن الرب صالح فإنها تدرك أن أفراح العالم تافهة . « ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب . طوبى للرجل المتوكل عليه » (مز ٣٤ : ٨) .

١١ : حجر الزاوية الكريم

« الذى إذ تأتون إليه حجرا حيا مرفوضا من الناس ولكن مختار من الله كريم . كونوا أنتم أيضا مبنيين كحجارة حية بيتا روحيا كهنوتيا مقدسا لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح . لذلك يتضمن أيضا فى الكتاب ها أنذا أضع فى صهيون حجر زاوية مختارا كريما ، والذى يؤمن به لن يخزى . فلكم أنتم الذين تؤمنون الكرامة ، وأما الذين لا يطيعون فالحجر الذى رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية وحجر صدمة ، وصخرة عثرة ، الذين يعثرون غير طائعين للكلمة ، الأمر الذى جعلوا له . وأما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكى ، أمة مقدسة ، شعب اقتناء ، لكى تخبروا بفضائل الذى دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب . الذين قبلا لم تكونوا شعبا ، وأما الآن فأنتم شعب الله . الذين كنتم غير مرحومين ، وأما الآن فمرحومون » (١ بط ٢ : ٤ - ١٠) .

بطرس ، « أنت تدعى صفا الذى تفسيره بطرس »[1] (يو ١ : ٤٢) ، لقد تحدث كثيرا عن سيده بأنه هو « الحجر » ، ورسم فى صورة رائعة الجمال تلك الإشارات الكثيرة التى تعبر عن صفاته وعمله ، والتى تعتبر لآلىء متلألئة على صفحات الكتاب المقدس .

لما رقد يعقوب على سرير الموت فى مصر تذكر الحجارة الضخمة المتناثرة فى أرض ميلاده ، والتى كان لها شأن عظيم فى إحدى المناسبات فى أحلامه ، ثم قال عن « الراعى » الأعظم ، الذى كان مزمعا أن يأتى ، بأنه هو « صخر إسرائيل » (تك ٤٩ : ٢٤) . وموسى ، فى نشيده الرائع عند توديعه للشعب ، وعندما أراد التحدث عن عظمة اللـه ، قال : « هو الصخر » (تث ٣٢ : ٤) . وداود ، فى كلماته الأخيرة ، رسم صورة رائعة عن الملك الحقيقى ، وقال : « إلى تكلم صخرة إسرائيل » (٢ صم ٢٣ : ٣) .

أعطيت لهذه الفكرة أهمية خاصة من حادث قيل إنه حدث عند بناء هيكل سليمان . كانت الأحجار تهيأ وتصقل فى مكان بعيد عن موقع الهيكل ، لكى لا يُسمع صوت أزميل عند بناء بيت اللـه .

كما ينمو نخيل الصحراء ، أو شجر البلوط فى الغابة ، بهدوء وبدون جلبة ، هكذا أقيم ذلك الصرح المقدس بدون جلبة على قمة جبل صهيون . وفى إحدى المناسبات قُدّم للبنائين حجر لم يوجد له مكان فى أى حائط من الحوائط الجارى بناؤها . وبعد محاولات كثيرة فاشلة لإيجاد مكانه المناسب وُضع وحده فى مكان منعزل ، وسرعان ما نُسى ، وربما تكون قد نمت فوقه الأعشاب . وأخيرا عندما قارب البناء على أن يكمل ، وُجد أن حجرا ذا شكل معين مطلوب لكى يربط حائطين معا ، ويشغل زاوية معينة . فاقتضى الأمر الرجوع إلى الحجر الذى كان قد رُفض وأخذ من المكان الذى كان مهجورا فيه . « فالحجر الذى رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية » (ع ٧) . وقد قيل

(١) « حجر صغير » حسب الترجمة الإنجليزية .

أن هذا الحادث هو الذى أوحى بتلك الإشارة فى المزمور الخالد (١١٨ : ٢٢) ، التى اقتبسها الرب وطبقها على نفسه ، وأشير إليها فى مواضع مختلفة من العهد الجديد غير هذا الموضع من رسالة بطرس الأولى : (مت ٢١ : ٤٢ ، مر ١٢ : ١٠ ، لو ٢٠ : ١٧ ، أع ٤ : ١١ ، أف ٢ : ٢٠) .

وترى الفكرة ثانية ، مع اختلاف بسيط ، فى نبوة أشعيا . كان الناس فى عصره متشبعين بفكرة عقد معاهدة خارجية كأفضل وسيلة لتدعيم المملكة ، التى كانت وقتئذ فى خطر شديد للانهيار بسبب الانقسامات والفتن من الداخل ، والتهديد بالغزو من الخارج . وعندئذ تكلم الله على لسان نبيّه ، وشبه هذه المحاولة ، والسلام المزعوم ، بعقد معاهدة مع الموت ، وملجأ الكذب ، وتنبأ عن هبوب عاصفة ، تعجز أمامها كل هذه التدبيرات عن أن تحمى الذين فكروا فيها . وردا على مخاوف الشعب من ذلك البرد ، وتلك المياه الجارفة ، قال : « ها أننا أؤسس فى صهيون حجرا ، حجر امتحان ، حجر زاوية ، كريما ، أساسا مؤسسا . من آمن لا يهرب » (أش ٢٨ : ١٤ - ١٨) .

ودانيال يضيف حلقة أخرى لسلسلة تلك الأفكار المقدسة عندما شبه ملكوت الله بحجر عظيم قُطع بغير يدين من شق أحد الجبال . ومع أنه لم تمتد إليه أية يد بشرية فقد شكل نفسه ، وانتزع نفسه من مكانه الصخرى ، وبدأ يتدحرج فوق سفح الجبل ، ساحقا كل ما يعترض طريقه . إذا ما توقف هذا الحجر لحظة وسقط عليه إنسان ترضض ، هو « حجر صدمة وصخرة عثرة » (ع ٨) ، وإذا ما سقط هذا الحجر على أى إنسان مار بجواره سحقه . فى كثير من الأودية التى ترعى فيها الغنم صيفا توجد صخور كبيرة انسلخت من الجبال المشرفة على هذه الأودية . وويل لذلك الرجل الواقف بجوارها ساعة سقوطها . لا شك فى أنه يتحطم فى لحظة وينسحق سحقا . هذه كلمات رهيبة . لكن الرب يسوع المسيح نفسه قد اقتبسها من نبوات دانيال (دا ٢ : ٣٤ ، مت ٢١ : ٤٤) .



١-٦ فلنحاول فهم الفكرة التى تحملها هذه الآيات

إنها مليئة بالتشابيه والاستعارات المختلفة . فيها نرى صورة فوق صورة ، وفكرة تضاف إلى فكرة . هنا نرى حجرا ، يليق بأن يكون رابطة الاتحاد ، يربط كل البناء ، جاعلا الاثنين واحدا . إنه ليس مجرد حجر ، لكنه هو « حجر الزاوية » (أف ٢ : ٢٠) .

انظروا ذلك الحجر . إن الله العالم بكل شىء يتطلع إليه ، ونقشت عليه يداه رموزا فى غاية الروعة والجمال ، تعجز عن نقشها أيدى أمهر البشر (زك ٣ : ٩) . يا لجمال هذا الحجر الذى هو « مختار » وأيضا « كريم » . لقد اختير يسوع قبل كل الدهور لتخلق به كل الخليقة ، وليتمم عملية الفداء ، وليكون رأسا للجنس البشرى الجديد ، وحجر الأساس للكنيسة . أما من جهة كرامته وقيمته فإنه لا يمكن أن يثمن ، هو اللؤلؤة التى لا تقدر قيمتها ، هو تاج السماء ، « معلم بين ربوة » (نش ٥ : ١٠) ، « كله مشتهيات » (نش ٥ : ١٦) ، هو لؤلؤة قلب الله .

ولعله قد قامت مشاجرة بين البنائين ، مع أن الحجر كان بين أيديهم فإنهم تعمدوا رفض الأساس المعد من الله . لقد أعجب البعض بالنقش الذى عليه ، أو بالموضع الذى اختير له . أما الأكثرية فقد انتقدوه ، أو احتقروه ، أو حسبوه لا يصلح إلا لعمليات بسيطة . وبعد عدة مناقشات بين البنائين المغرورين بأنفسهم احتفوا به ، وهكذا صار « مرفوضا من الناس » (ع ٤) . وبعد ذلك بدأوا يشيدون بناء أساساته على طبقة من الرمل ، فصار مصيره أن يبقى أثرا على حماقتهم دون أن يكمل .

لكن قصد الله لا يمكن أن يفشل . إن لم يرد الناس أن يبنوا على أساسه ، فإنه لا بد أن يبنى عليه بناء شامخ لمجده . هنا أمر عجيب حقا . فإن الحجر لا يزال حيا . « حجرا حيا » . « مملوء عيونا » . والأكثر من هذا أنه جذاب كحديد المغنطيس . إنه يجذب لشخصه حجارة أخرى ميتة ، وثقيلة ، وصلبة ، متناثرة حوله .

وإذ يقتربون إليه ببطء ، الواحد بعد الآخر ، فإنهم هم أيضا يبدأون بأن يحيوا . « الذى إذ تأتون إليه حجرا حيا . . كونوا أنتم أيضا مبنيين كحجارة حية » (ع ٤ و ٥) .

لكن العجب لا يقف عند هذا الحد . فإنه كما حدث فى رؤيا النبى (حزقيال) إذ انتزعت العظام نفسها من أكداس القتلى ، وبنت نفسها فى وضعها الصحيح فى الجسم البشرى ، هكذا نرى أن حجرا يأتى بعد حجر ، كأن يدا غير منظورة تجمعها ، وتبنى بيتا غير مادى ، بل روحيا ، لأن الحجارة إذ انتقلت إلى الحياة طرحت عنها جزءها الثقيل فصارت روحية ، لكى تليق بأن تكون أجزاء فى « بيت روحى » .

إن بيت الله ليس فى السماويات فحسب ، وليس فى أى بيت يبنيه البشر ، بل هو البناء المكون من أرواح القديسين المخلصين ، الذين كانوا سابقا ماديين وأمواتا كالحجارة ، أما الآن فإنهم ، باتصالهم بيسوع المسيح ، قد تطهروا ، وتقدسوا ، وصاروا « يهتمون بالروح » . « هذه هى راحتى إلى الأبد . ههنا أسكن ، لأنى أشتهيها » (مز ١٣٢ : ١٤) .

وفى هيكل كهذا لا بد أن يوجد كهنة [1] . وهنا أيضا لا يمكن أن يفشل القصد الإلهى . فإن أولئك الذين كانوا يوما ما حجارة صغيرة متناثرة على سفح الجبل ، لا يكونون الآن فقط جزءا من البناء الروحى ، بل بتغيير سريع فى الفكر ، صُوِّروا الآن كأنهم يؤدون مهام الكهنوت . « كهنوتا مقدسا » ، يرتدون الثياب الرسمية للقداسة والجمال .

ونظرا لأن الكاهن ينبغى أن يكون لديه ما يقدمه ، ونظرا لأن هؤلاء الذين يحتلون الهيكل الحقيقى لا يقدرون أن يظهروا أمام الهيكل ، أو يدخلوا قدس

(١) المقصود هنا المؤمنون ، فالمؤمن إذ يقدم عبادته الفردية أو العائلية ، يقدم ذبيحة روحية (رو ١٢ : ١) . وهذا لا يغنى عن إقامة كهنة رسميين متخصصين لخدمة الشعب وإتمام الطقوس الكنسية (المعرّب) .

الأقداس ، بأيد فارغة ، فقد أعدت « ذبائح روحية » . ومع ذلك [وهنا تتغير الفكرة مرة أخرى] فإن هذه الذبائح ليست مادية ، وليست أيضا كفارية ، لكنها ذبائح روحية ، متضمنة فى الحياة المكرسة وتسبيحات الفرح والتهليل التى لأولئك الذين رُفعوا من المزبلة « لتقديم ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح » .

وليس هذا هو كل ما فى الأمر . فإن الذين يعاشرون المسيح ينالون منه تقدير ومحبة الله . ففى إحدى الآيات يقول الرسول إن ربنا « كريم » فى تقدير الآب ، فهو ابنه الحبيب ، العزيز ، الوحيد . وفى الآية التالية تُنسب إلينا هذه الكرامة : « فلكم أنتم الذين تؤمنون الكرامة » . ليس يسوع كريما فى أعيننا فقط ، كحبيبنا وصديقنا ، بل إن قدره وجماله فى نظر الله قد انتقلا إلينا نحن المؤمنين ، حتى أن طبيعتنا الغبية أصبحت تلمع فى سمو جماله . نعم ، ونحن « نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد » (٢ كو ٣ : ١٨) .

هكذا صار صيادو الجليل حجارة كريمة فى أساسات أورشليم الجديدة . وما يصدق عنهم يصدق عن جميعنا إلى حد محدود . عندما يلمس الحديد حديدا ممغطسا يصبح ممغطسا . وعندما تلمس الحجارة ذلك الحجر الكريم تصبح لآلىء . هكذا يصنع الله حجارته الكريمة ، فإن وجهها متى صقل هنا بالألم لمع إلى الأبد بنور مجده هناك .

وقبل أن ننتقل من هذه النقطة لنتأمل مرة أخرى فى البنائين العصاة غير المؤمنين . لقد سقط البعض فوق ما أعده الله فترضضوا دون أمل فى الشفاء . والبعض يهيمون على وجوههم فى الجبال المظلمة ، فتحل عليهم الدواهى ، إذ يسقطون فى هاوية سحيقة ، أو يقضون نحبهم . ويبقى بناؤهم ، الذى افتخروا به ، قائما كبرج بابل ، ليهزأ بهم العالم . وعندئذ « يخزون » حقا ، وهذا لن يكون مصير الذين يبنون على أساس الله المختار . إنه لمما يؤسف له أن الناس يسيئون إلى نفس الوسائط التى أعدها الله لخلاصهم وسعادتهم .

٢- التطبيق الشخصى

« **وأما أنتم فجنس مختار** » . هنالك أجناس مختارة فى العالم ، وصلوا إلى قمة المدنية ، ليس لأنفسهم فقط ، بل للآخرين . وكلما عظم الامتياز عظمت المسئولية . هذه طريقة الله فى إدارته لاختيار الأمم أو الأجناس الموهوبين بصفة خاصة ، لكى يؤهلوا لمساعدة وخلاص أخوتهم . أما مركز أمة إسرائيل ، الذين كان « لهم التبنى والمجد والعهود » (رو ٩ : ٤) ، فقد اؤتمنوا عليه قديما لكى يبارك الله عن طريقهم كل أمم الأرض . أما فى العصر الحالى ، عصر رفض اليهود للمسيح ، فقد دعيت الكنيسة المسيحية لهذه الخدمة المجيدة أن تصير إناء يبارك به الله البشرية .

« **وكهنوت ملوكى** » . كانت كل من هاتين الوظيفتين وقفا على شاغليهما فى إسرائيل . ولما أراد عزيا الملك أن يشغل كليهما معا ، طُرد من الهيكل « وخرج برص فى جبهته » (٢ أى ٢٦ : ١٦ - ١٩) . أما فى المسيح فقد اجتمعا معا : « ويكون كاهنا على كرسيه »[(١)] (زك ٦ : ١٣) . وكل أتباعه يكونون ملوكا وكهنة (رؤ ١ : ٦) ككهنة نحن نعبد الله عن قرب ، وكملوك نحن نتسلط على الناس بسلطان المحبة التى تبارك وتخلص .

« **أمة مقدسة** » . هذا التعبير ، كسابقيه ، نشأ من العهد القديم الذى قطعه الله مع إسرائيل فى جبل سينا (خر ١٩ : ٦) . لم يحفظ إسرائيل هذا العهد فنُبذوا كأمة . أما الأفراد ، يهودا كانوا أم يونانيين ، الذين قبلوا المسيح ، فقد كوّنوا أمة أخرى لا يُحصى لها عدد ، تعيش فى كل العالم ، تخضع لناموس أدبى أسمى ، وهم مواطنو المدينة التى لن تزول .

---

(١) « عرشه » حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الإنجليزية .

« **شعب اقتناء** » . المحبة تحن إلى الاقتناء . وقلب الله لا يمكن أن يشبع إلا إذا وجد له شعبا خاصا اقتناه لنفسه . آه ، طوبى للذين لبوا دعوته ، وخضعوا له خضوعا كاملا ، فإنه قد اقتناهم لنفسه . لقد سيَّج حولهم كما يُسيَّج البستان ، وفلحهم كحقل ، وسكن فى وسطهم كبيت ، حرسهم وحفظهم وأحبهم بكيفية سامية جدا لا يعرفها أحد . كل ما لله تحت تصرف أولئك الذين لا يحجزون عنه شيئا .

ماذا نرد له من أجل كل ما صنعه معنا عندما نقارن ما نحن عليه الآن بما كنا عليه سابقا ؟ كنا قبلا فى الظلمة ، أما الآن فنحن فى النور العجيب . لم نكن قبلا من شعب الله ، أما الآن فإننا نعتبر جزءا منه . كنا قبلا بلا رجاء فى الرحمة ، أما الآن فإننا نتقبل الرحمة التى لا يعبَّر عنها . فماذا نقول ؟ واجبنا أن نشكره ، لا بأفواهنا فقط بل بحياتنا ، ونطرح أكاليلنا عند قدميه ، ونتخذ نصيبنا فى تسبيحة الحمد التى تقدمها كل الخليقة حول عرشه . فلنقدم له الحمد والثناء والتسبيح .

١٢ : الحياة التى بلا لوم

« أيها الأحباء أطلب إليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التى تحارب النفس . وأن تكون سيرتكم بين الأمم حسنة لكى يكونوا فيما يفترون عليكم كفاعلى شر يمجدون الله فى يوم الافتقاد من أجل أعمالكم الحسنة التى يلاحظونها » (١ بط ٢ : ١١ و ١٢) .

والآن ننتقل من التعاليم النظرية إلى العملية . جميع الرسل يبدأون رسائلهم بوضع أساسات متينة لحق الإنجيل ، وعلى هذه الأساسات يشيدون مبانى فاخرة من النصائح المؤدية إلى التقوى العملية . لعل هذا التقسيم لا يلاحظ كثيرا فى كتابات الرسول بطرس بقدر ما يراعى فى كتابات أخيه المحبوب بولس . ومع ذلك فهنا نرى انتقالا واضحا عند هذه النقطة . إن العظة التى يلاحظ فيها تطبيق شخصى عظة فاشلة . والتعاليم العقائدية بدون النصائح تؤدى إلى جفاف الحياة الروحية . والنصائح بدون التعاليم العقائدية تؤدى إلى شكليات جافة عديمة القوة .

هذه النصائح تقدَّم إلينا بكل رقة . ليس أمرا هينا أن نصدق بأن بطرس ، الرجل الصخرى القوى ، هو الذى يتكلم هنا لكن سنى الحزن عملت عملها نحو صقل صفاته الخشنة . وهنالك رقة فى صوته عندما يتوسل إلى أعزائه ويقول : « أيها الأحباء » . ولا بد أن هذه اللهجة كان لها تأثير قوى مقنع للتحلى بالحياة التى طلبها .

لا بد أن هذه الحجة ، نحو الحياة التى بلا لوم ، كان لها تأثير قوى ، لأنها كانت مشبعة بالمحبة ومعززة بها . وقوة التعبير أعظم لأننا قلما نجد الرسول بطرس يتوسل هكذا . لا تتطلب الحياة المسيحية دواما استخدام تعبيرات رقيقة متدفقة . فهذه تكون دواما مقترنة بخطر فقد معانيها وقوتها بسبب التكرار المستمر . لكن هنالك مناسبات ، سيما حينما نشتاق إلى خير الآخرين ، نتوسل إليهم فيها بالحرى من أجل المحبة ، حتى وإن تجاسرنا على أن نوصيهم الوصايا اللائقة .

الشهوات الجسدية . فى (غل ٥ : ١٩ - ٢١) ، وفى مواضع أخرى كثيرة من الكتاب المقدس ، نجد بالتفصيل قائمة بهذه الشهوات . الشهوة رغبة مفرطة ، رغبة نحو خير جزيل ، أو نحو شر مستطير . والشهوات الجسدية هى تلك التى تطلب إشباعها عن طريق مسالك الطبيعة الجسدية التى وهبها لنا الله . كلنا زُوِّدنا بغرائز ورغبات طبيعية ، وُضعت فينا للأغراض النافعة المستقيمة ، وهى تكون بريئة وصالحة عندما نسترشد بإرادة الله .

لكن هذه الشهوات الطبيعية تحاول دواما أن تتخطى الحدود ، وتتوق إلى إشباعها بالطرق غير المشروعة : فتغلى وترغى وتزبد كموج البحر عندما يندفع نحو حاجز الميناء . إن كنت تستسلم لها ، إن كنت تحب أى شىء خارجا عن دائرة مشيئة الله ، إن كنت تتبع غرائزك الجامحة دون مراعاة لضبط النفس الذى يتطلبه الضمير ، إن كنت تنساق وراء ناحية واحدة من طبيعتك دون مراعاة النواحى الأخرى ، إن كنت تنحرف فى تفكيرك أو فى ملذاتك فى أية ناحية ، فحينئذ كن على حذر ، لأنك تحتاج بصفة خاصة إلى الحذر من « الشهوات الجسدية » ، التى يتحدث عنها الرسول بطرس هنا .

إنها « تحارب النفس » . كلمة « تحارب » تعطى فكرة زحف جيش لمهاجمة مدينة ، كما زحف اليونانيون قديما لمحاصرة « طروادة » واقتحامها . بدأ هذا الهجوم بحرب علنية ، وانتهى بخدعة ، إذ أتى المحاربون بخيول خشبية نزلوا منها إلى

قلب المدينة فى ظلام الليل . طبيعى أننا جميعا يجب أن نعترف بأن التطرف فى أية شهية يضر الجسد ، سيما الأعضاء التى عن طريقها ارتكبت الخطية ضد كل الجسد .

لكن لعلنا كلنا لا ندرك كيف أن الشهوات الجسدية تهدم الحياة الداخلية . فهى تهجم عليها ، وتغلبها ، وتستعبدها ، وتضعف نشاطها ، وتلوث طهارتها ، وتخفض صوتها ، وتهد قوتها الأدبية . فاذكر إذن ، عندما تجرَّب بالخضوع لأى فكر دنس ، حتى بمجرد التفكير أو الرغبة ، أنك تعرض نفسك لإضعاف قوتك الروحية ، هذا يعرقل مساعيك ، فيكون مصيرك الفشل والهزيمة . كل سقطة فى الشهوات الجنسية تؤذى أنفسنا حتما . قد يغفر الله الخطية ، ويرفعها عنا ، بدم المسيح . لكن النفس لا تصير إلى ما كان ممكنا أن تصل إليه لو كانت التجربة قد انتُصِرَ عليها ، وتمت نعمة ضبط النفس .

يوجد حولنا كثيرون جدا موهوبون بمواهب ممتازة تمكنهم من قيادة شعب الله ، لكنهم يطحنون فى بيت السجن ، مثل شمشون ، لتسلية أعدائهم ، وذلك لأن شهواتهم تسلطت عليهم ، مع أنهم كان يمكنهم كبحها ، كما يكبح الخيَّال حصانه الجامح . إن انغمست فى شهوات الجسد صرت ضعيفا ، وإن كبحت جماحه صرت قويا .

نحن نحتاج إلى أن ندرك كيف يتحقق الامتناع عن الانغماس فى الشهوات الدنسة . وقد يساعدنا أن نذكر النقط التالية :

١- **يجب أن ندرك بأن كبح جماح النفس أمر ممكن** . صحيح أننا أبناء جنس خاطىء ، وأننا دخلنا العالم وفينا دنس الخطية . لا تحتاج هذه الحقيقة إلى برهان ، فهذا هو اختبار كل فرد . لو لم يكن الأصحاح الثالث من سفر التكوين والأصحاح الأول من رسالة رومية قد كتبا لشعرنا بأن هنالك ثغرة فى تاريخ الجنس البشرى ، أو أن مصيرا أسيفا قد كتب على هذا الجنس البشرى . منذ البداية يوجد فينا أجمعين ميل وراثى لإشباع إيحاءات الشهوات الطبيعية بإفراط .

وعلاوة على هذا فإننا بتعدياتنا الفعلية نعمل على تقوية هذه الميول الموروثة . واستسلامنا المتكرر لها يزيدها قوة . ونحن نشبه المصارع الذى سمح للناس بأن يربطوه بخيوط قطنية . هو يستطيع فى لحظة أن يقطع كل خيط على حدة . لكنه يعجز عن أن يقطعها متجمعة .

ورغم هذا ، فصحيح أنه لا يمكن أن تصيبنا تجربة لا تصيب عامة البشر ، أو لا يقدر الله أن ينجينا منها . إنه من الكفر أن نقول بأن الله سمح للشر بأن يصل إلى حد لا يقدر هو أن يعالجه ، أو بأنه توجد بعض الخطايا التى تهدد عرشه فى قلوبنا بحيث لا يقدر أن يقمعها .

ليس أمرا ذا بال إن كانت ميولك الموروثة نحو الشر قوية ، أو إن كانت العادات التى كونتها بتكرار التصرفات الخاطئة قوية . فالله قادر أن يخلصك ، ويحفظك من الهزيمة . من الميسور لك أن تمتنع عن الشهوات الجسدية المتسلطة عليك ، كما تسلط الموآبيون والفلسطينيون على أرض إسرائيل الجميلة أيام القضاة . إن كل وصية تقترن بوعد . وهذا التوسل ، المملوء محبة ، لكى تحيا حياة أفضل وأطهر ، ينطوى تحته وعد بأن الله يتعهد بأن تكون أعظم من منتصر [أى « يعظم انتصارك »] ، وتطأ على الجسد وعلى الذات ، وتملك بعد أن كنت تئن من العبودية . تشجع ، فإنه من الميسور حتى لك أنت بأن تمتنع عن الشهوات الجسدية ، فالله قادر أن يحفظك .

٢- **اختر الموت** . هنالك معنى قوى فى أننا كلنا متنا فى يسوع المسيح ربنا ، عندما أسلم الروح فى يدى الآب إذ كان على الصليب . وهنالك أيضا معنى قوى أننا يجب أن نموت كل يوم بإنكارنا لذواتنا كل يوم . لكننا يجب أن نختار الموت نهائيا ونفضله عن الذات ، وعن العالم ، وعن الجسد ، وعن إبليس . هذا ما يعنيه الرسول عندما قال بصيغة الماضى : « قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات » (غل ٥ : ٢٤) .

كثيرون جدا منا لم يصلوا بعد إلى هذا الحد . فنحن نقبل تسلط الشر علينا كأمر محتم يجب أن نتعرض له فى هذا العالم . فنستسلم ، ثم نتوب ، ونجلب اللعنة على أنفسنا ، ونستسلم ثانية . كثيرا ما تحدّث المسيحيون عن الخطية المحيطة بهم كضعفات طبيعية لا يقوون عليها ، ويجب أن يتحملوها كالأمراض التى تطرأ على الأطفال . وقليلا ما يتحدثون عن عزمهم على التحرر منها لكى يعيشوا حياة طاهرة .

وإن وجدت عزيمة كهذه فكثيرا ما كانت ناقصة . إنها تغلق الباب الأمامى للطبيعة ، وتترك الباب الخلفى ، على أساس أنه لا بد من الاستسلام لهذه الضعفات . إنها تترك خيطا ، يكاد يكون غير منظور ، لتوصيل النفس بالشرور التى تشتاق أن تتخلص منها ، وعن طريق هذا الخيط تنتقل العدوى بسهولة . وطالما أنه توجد أقل ثغرة فى نزاهة قصد النفس ، فلا يوجد أى أمل فى النجاة . يجب أن نقطع كل علاقة ، ونغلق كل نافذة ، ونكف عن كل تفكير فى الشهوات الجسدية بكل صورها وأشكالها . وبالإيجاز ، يجب أن نختار الموت .

أليس هذا هو سر سقطاتك المتكررة ؟ لقد سمعت عن قوة الله الحافظة ، وطلبتها . لكنك لم تُحفظ . لقد غلبتك الخطية رغم أنك صرخت طالبا الإغاثة . وأنت لا يمكن أن تحيا الحياة المشتهاة إلا إذا قبلت الموت . وعندما تحسب كل شيء نفاية من أجل المسيح فإنك تربحه . وعن طريق الموت سوف تأتى إلى فجر القيامة . فالموت هو باب الحياة . وعندما تُصلب مع المسيح فإنك تجد أن حياته قد دبت فيك ، فتحيا الحياة المنتصرة . « مع المسيح صُلبت فأحيا » (غل ٢ : ٢٠) .

يوصينا العهد الجديد بإلحاح شديد لكى تكون لنا هذه العزيمة القوية . وهى بصفة خاصة المفتاح للأصحاح السادس الرائع من رسالة رومية ، الذى يؤكد لنا بأننا إذ متنا مع المسيح فقد تحررنا من الخطية . فيه نجد تعبيرات ، قد نخاف

منها لأنها عنيفة جدا أو متطرفة ، تبين كيف تكون النجاة كاملة لمن اشتركوا مع المسيح فى شبه موته . لا يوجد أقل شك فى أن نجاتنا من سلطان كل الشهوات الجسدية يكون بنسبة اعتقادنا فى قطع كل علاقة معها ، الأمر الذى تحمله هذه الكلمة الواحدة « الموت » ، الذى يقطع كل علاقة .

٣- **« اسلكوا بالروح »** (غل ٥ : ١٦) . هنالك مسيحيون يعيشون بالروح لكنهم لا يسلكون بالروح . « إن كنا نعيش بالروح فلنسلك أيضا بحسب الروح » (غل ٥ : ٢٥) . إن الفرق واضح . فنحن نعيش بالروح ، لأننا بالروح نشترك فى حياة المسيح ، الحياة التى هى أبدية وإلهية . لكن قليلون هم الذين يسلكون بالروح من ساعة إلى ساعة ، ويتوقفون فى كل خطوة لعل الروح يعمل أو يتكلم ، طالبين منه الإرشاد فى كل خطوة ، وسالكين فى الطريق الذى يرشدهم إليه ، كما كانت السحابة قديما ترشد بتحركها فى الصحراء .

ولا يمكن أن يكفى شىء أقل من هذا . فالرسول يقول : « اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد » (غل ٥ : ١٦) . لا يكفى أن نعزم على الامتناع ، فمجرد العزيمة لا تكفى لإبقاء الباب مغلقا أمام ضغط التجربة . يجب أن يكون هنالك شىء إيجابى ، لا سلبى . فإن حلول الروح بملئه فينا هو وحده الذى يكفى لسد أعوازنا . وهذا لا يمكن أن يتم إلا بالشركة المستمرة بين النفس والروح القدس .

وعندما تكون النفس ممتلئة دواما بشخص الروح القدس وقوته ، فإنه يسهل عليها الامتناع عن الشهوات الجسدية ، وتفقد شهيتها للأشياء التى كانت تتلذذ بها قبلا ، وتتبينها وهى لا تزال بعيدة ، وترتعد عند اقترابها . وإذ تشبع بخيرات بيت الآب ، فإنها تهجر خرنوب الخنازير مشمئزة منه .

أما البواعث على هذا الامتناع فهى كثيرة .

١- « **نحن غرباء ونزلاء** » (ع ١١) .

« تأمل فى حالتك التى أنت عليها . إن كنت مواطنا لهذا العالم فاسلك كما يسلكون ، واتبع نفس الشهوات . أما وقد دُعيت للخروج من هذا العالم ، وأُدرِجت ضمن جماعة جديدة ، وتحررت ، ونقلت إلى مملكة أخرى ، فيجب أن يكون هنالك فرق بينك وبين أهل العالم ، يجب أن تسلك كغريب وإن كنت فى العالم ، لا تتلذذ بملذات أهل العالم ، ولا تشته أطايبه ، بل عش بحذر وانتباه وبوقار وصحو » .

مهما كانت دار الضيافة مبهجة ومريحة ، فإن السائح يسرع إلى وطنه . لا يليق به أن يربك نفسه بإغراءات البلاد التى يمر بها . فإنه فى الواقع ليس لديه وقت لهذه الإغراءات ، وقبل أن يُصطاد فى الفخ يكون قد انصرف ومضى إلى حال سبيله . أما إغراءات أسرته العزيزة التى تنتظره فإنها تشغل قلبه وتفكيره بحيث لا يلتفت إلى الإغراءات الدنسة التى تقدَّم إليه فى غربته . فماذا يحببنا إذن فى الشهوات الجسدية إن كنا مواطنى السماء ، التى منها ننتظر المخلص ؟

٢- **يجب أن نفكر فى تأثيرنا على العالم** . يجب « أن تكون سيرتكم بين الأمم حسنة » ، أو جميلة ، ليس من أجلنا فقط ، بل من أجلهم . يجب أن لا يدهش أتباع المسيح إذا ما « افترى عليهم كفاعلى شر » . إن كان العالم قد قال عن الرب إنه « بعلزبول » ، فكم يُفترَى على عبيد بيت المسيح ؟ لقد انتشرت أشر الأنباء فى كل الامپراطورية الرومانية عن الطقوس التى قيل بأن المسيحيين كانوا يمارسونها سرا فى اجتماعاتهم . ومن أجل هذه الأنباء حُكم عليهم بالتعذيب والقتل .

لا زالت توجّه مثل هذه التهم التى لا أساس لها . وينبغى أن نحرص على أن لا نعطى لها فرصة فى سلوكنا وتصرفاتنا . بل يجب أن نعيش بكيفية تُلزم الناس على الاعتراف بقيمة ديانتنا ، ويمجدوا الله الذى أعاننا على احتمال الآلام ، وذلك إذا ما حان وقت التجربة .

هنالك حجج تبرز من نيران التجارب التى يُدعَى المسيحيون لاجتيازها ، وهذه الحجج تُخرس المفترين ، وتلزمهم على الاعتراف بتوفر قوة وصبر وشجاعة لا يدرك سرها فلاسفتهم . وفى كثير من الحالات يتحول التجديف إلى إعجاب ، والشتيمة إلى مديح .

وإذ لنا هذه البواعث التى تبعث فينا الهمة ، ليتنا نلبى هذا النداء الذى يدعونا إلى حياة بلا لوم ولا دنس .

١٣: عبيد الله

« فاخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب.
إن كان للملك فكمن هو فوق الكل . أو للولادة فكمرسلين للانتقام من فاعلى الشر وللمدح لفاعلى الخير . لأن هكذا هى مشيئة الله أن تفعلوا الخير فتسكتوا جهالة الناس الأغبياء . كأحرار وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر بل كعبيد لله . أكرموا الجميع . أحبوا الأخوة . خافوا اللـه . أكرموا الملك » (١ بط ٢ : ١٣ - ١٧) .

مما يلاحظ باهتمام شديد أن الذين كتبوا العهد الجديد أكثروا من استعمال كلمة « عبد » لكى يصفوا علاقتهم الحقيقية بالله . وقد كان اللقب المحبوب الذى استعمله الرسول بولس عن نفسه « رسول وعبد » ، بل كان يفتخر بأنه لابس سمات عبد يسوع . أما بطرس الرسول فلم يقل عن نفسه هنا فقط بأنه عبد ، بل أيضا فى افتتاحية رسالته الثانية . وفى سفر الرؤيا استعملت هذه الكلمة كثيرا مقترنة بنور سماوى . وممجدة . لقد كُتب هذا السفر العجيب للعبيد ، الذين قيل عنهم إنهم مختومون ، وإنهم ينالون أجرهم ، ويرون وجه الله ، ويحملون اسمه على جباههم . السماء تأخذ أشنع ألقابنا ، وتجعلها تنير بنورها ، إلى أن يصير رمز الرعب هدفنا لأنبل مقاصدنا . إن عبيد بيت الملك أشراف .

كل هذا غريب جدا . لأن العبودية التى انتشرت فى جو العالم الوثنى المسمم كانت من أقسى وأشر ما رآه المجتمع . كانت العبودية فى الامبراطورية الرومانية شريرة جدا . فكان العبد ملكا لسيده ، يُستخدم فى أعنف الأعمال ، وفى التعذيب المرير ، وفى الجرائم المخلة بالشرف . لم يكن هنالك مجال لأى ملجأ يلجأون إليه ، ولا رجاء فى الإنصاف ، ولا مجال للهرب أو النجاة إلا بالموت . ومع ذلك فإن الذين كتبوا العهد الجديد ، لم يملوا من تطبيق هذه العبودية على علاقتنا بيسوع المسيح . إنها تقدم إليهم المثل الأعلى الذى يثير فيهم الغيرة المتقدة .

لعل البعض كانوا يتوقعون أن الرسل كان ينبغى أن يهاجموا هذا النظام ويحاربوه ويشجبوه ، ويستأصلوا هذه الشوكة من حقل العالم . لكن ليست هذه هى طريقة الله . فالله لا يعالج المجتمع كوحدة كاملة ، بل يعالج الأفراد ، فردا فردا ، لا يعالج المساوىء ، بل الروح التى تصدر منها ، لا يعالج السياسة ، بل المبادىء . كان الرسل بهدوء يبلّغون رسالة محبة الله ، مذكرين الناس أنه فى المسيح لا عبد ولا سيد ، ومؤكدين أن موقفهم الحقيقى لا تحدده ظروفهم الخارجية ، بل صفاتهم الداخلية . وإذ فعلوا هذا ، خلقوا عالما لا يمكن أن تعيش فيه العبودية . ولعل البعض منا الذين لا يشتركون فى إخراج نفوس الأفراد من الظلمة إلى النور ، ومن سلطان الشيطان إلى الله ، هم فى الواقع يطهرون المجتمع ككل ، ويرفعون مستواه . إن أحسن طريقة لخلاص العالم هى خلاص الأفراد الذين يتكون منهم العالم .

وبدلا من أن يشجبوا العبودية استخدموا اسمها للتعبير عن موقف حياتهم ، واستعملوه فى صُلب عظاتهم . وبينوا أننا فى الواقع عبيد الله . وهكذا وجد الرسول بطرس مادة لنصائحه فى هذه الآيات موضوع تأملنا الآن .

١- سلطان الله المطلق

قد يبدو أن هذا التعبير شديد الوقع على نفوسنا . لكنه تعبير كتابى تماما .

وفى الرسالة الثانية نجد ما يؤيده (٢ بط ٢ : ١) [١] . ونجد ما يؤيده أيضا عندما نذكر سلطان المسيح المطلق على خاصته .

نحن نتهاون كثيرا فى معاملاتنا مع ربنا يسوع المسيح . نحن « ندعوه معلما وسيدا . وحسنا تقول ذلك لأنه هو كذلك » (يو ١٣ : ١٣) . لكننا لا ندرك كل ما ينطوى عليه هذا التعبير ، كذلك نحن لا نفعل كل ما يقول . هو قائدنا الأعلى ، ونحن يجب أن نذهب ، أو نأتى ، أو نفعل كما يأمر ، ليس لأننا نرى أنه من الصواب أن نتمم أوامره ، بل لأنه هو الذى **يصدرها** . **هو مالكنا** ، ونحن ملك له ، فهو قد اشترانا لقصد معيّن ، ولا يمكن أن تتم مقاصده إلا إن أطعناه طاعة كاملة ، مطلقة . هو مؤسس الكون ، ويقينا أنه له الحق علينا فى أن نطيعه طاعة عمياء .

لقد « رفعه الله بيمينه رئيسا [٢] ومخلصا » (أع ٥ : ٣١) . ونحن نميل كثيرا إلى أن نعكس الوضع ، فنجعله مخلصا ورئيسا ، ونميل إلى التفكير فى أننا خلصنا به أكثر من التفكير فى إتمام ما يأمر به . ولأننا لا نعرف إلا قليلا عن يسوع كملك ، لذلك لا نختبر إلا قليلا عن يسوع كمخلص .

إنه نافع لنا أن نأخذ الأناجيل ثانية فى أيدينا ، وندرسها دراسة وافية ، وأمامنا هذا الغرض الواحد ، وهو أن نلاحظ مطالبتها المستمرة لنا بالطاعة . كل شىء فى الحياة المسيحية يتوقف على أن نعمل ما نؤمر به .

ليس لنا أن نتساءل عن السبب
ليس لنا أن نتحاجج فيما طلب
بل علينا أن نفعل ما نؤمر به

---

(١) « إذ هم ينكرون الرب [أو « السيد » حسب الترجمة الإنجليزية المنقحة] الذى اشتراهم » . انظر أيضا (٢ تى ٢ : ٢١ ، يه ٤ ، رؤ ٦ : ١٠) .

(٢) « أميرا » حسب الترجمة الإنجليزية .

إن حقوق الرب يسوع فى ممارسة هذه السلطة المطلقة مؤسسة على اعتبارات كثيرة ، وقد لا يكون هذا هو الوقت المناسب لشرحها بالتفصيل . لقد بذل نفسه عنا . وعطيّته العظمى لنا ، إذ أعطانا نفسه ، تتطلب أن نسلم أنفسنا له تسليما كليا . ودمه الذى سفكه على الجلجثة هو الثمن الذى اشتُرينا به ، ونحن لا يمكن إلا أن نكون ملكا لمن اشترانا . وحقوقه علينا مؤسسة أيضا على العطية التى أعطاها الآب للابن [١] قبل كل الدهور ، وهم الذين سوف يأتون إليه بمرور الزمن .

وعلاوة على كل هذا فنحن أنفسنا جثونا على ركبنا معترفين برغبتنا فى أن نكون له وحده إلى الأبد ، بكليتنا ، نفسا وروحا وجسدا ، . فمن ذا الذى يجرؤ على الاعتراض على حقه فى أن يكون له السلطان المطلق ؟ نظرا لما هو عليه من كرامة وسؤدد ، نظرا لصفاته ، ونعمته اللانهائية ، نظرا لأنه عليم بكل شىء ، فإننا بسرور واطمئنان نستودع حياتنا بين يديه ، لنكون تحت سلطانه المطلق ، مقدمين له طاعة لا نجرؤ على تقديمها لأى كائن حى ، طاعة مطلقة عمياء .

٢- تأثير هذه الفكرة

« **فاخضعوا** » . انظر كيف يطلب الرسول من أولئك القديسين المغتربين فى الشتات أن يطيعوا . ربما كانوا يميلون إلى التردد فى الخضوع « لكل ترتيب بشرى » . أما هو فقد سكّت احتجاجهم ، وسهّل عليهم نيرهم ، إذ همس فى آذانهم قائلا : « اخضعوا من أجل الرب » . لعلهم قد تساءلوا لماذا يجب أن يستمروا فى عمل الخير ، صابرين وسط افتراءات ومقاومة « جهالة الناس الأغبياء » . أما هو فقد سكّت كل اعتراض بالقول : « لأن هكذا هى مشيئة الله » .

(١) فى (يو ١٧) تحدث المسيح ست مرات عن الذين أعطاهم له الآب قائلا : « الذين أعطيتنى » .

قد يفتخرون بحريتهم إذ دخلوا فى العهد الجديد الذى بدأت أنباؤه وقتئذ أن تتسلل إلى كل العالم . أما الرسول فقد قابل حجتهم بتذكيرهم بأنهم وإن كانوا قد صاروا أحرارا فيجب أن لا يستخدموا حريتهم « سترة للشر » ، فإنهم « عبيد لله » .

هنالك تباين عجيب فى هذه الكلمات . فالذين يقفون مستقيمين فى حضرة الله كأخوة المسيح يؤمرون بالخضوع لكل ترتيب بشرى . والذين يعتزمون على أن يعيشوا وفق مشيئة الله فقط تبينوا بأن هذه المشيئة تعمل عن طريق أناس جهلاء وأغبياء . وأحرار الله عبيد له ، ولذلك فهم خدام الناس . عظيمة حقا ، وكاملة ، وغنية ، هى تلك الحياة الحقيقية التى نحياها فى شركة مع الله ، حتى إننا نستطيع أن نكون أحرار الفكر عند إطاعة مطالب الهيئات التى تحيط بنا طالما كانت لا تتعارض مع ولائنا لربنا .

وهنالك عون كبير فى هذه الكلمات . عندما يُطلب منا الخضوع لأمر تعسفى فإننا فى غالب الأحيان نستاء منه . وتظهر آثار هذا الاستياء على الوجه ، وفى العينين ، وقد نثور ونحتد قائلين : « لماذا أقوم بهذا العمل ؟ » عندئذ يقترب منا الرب ويقول : « اخضع من أجلى . تممه لأننى أريد هذا . إن كنت ترى بأن احتجاجك يفيد فاحتج بمنتهى الرقة واللطف . أما إن كنت لا تقدر أن تغير الوضع أو تصلحه ، فارتض بأن تخضع . فإننى أريـد هذا » . هذا يجعل الحديد البارد يطفو على وجه الماء ، (٢ مل ٦ : ٦) ، يبدل مارة إلى ايليم (خر ١٥ : ٢٣ - ٢٧) ، ويملأ جثة الأسد بالعسل (قض ١٤ : ٧ - ٩) .

آه ، ليتك تكف عن أن تشكو ، أو تتبرم ، أو تحتد على الناس . اخبر ملكك بأحزانك ، انتظره بالصبر ، فيحررك . وإلا فثق بأن هذا الذى سمح به هو من ترتيبه . وثق بأنك عندما ترتضى ذلك النير الثقيل ، أو ذلك الترتيب البشرى ، فإنك تتمم مسرة الله الصالحة . إن سر النصرة فى كل هذه الحالات ، ومفتاح سلام الأرض كما هو فى السماء ، يوجد فى هذه العبارة البسيطة « من أجل الرب » .

وهذه الكلمات معقولة جدا . لقد أبغض العالم ديانة يسوع منذ البداية ، واعتقد أنها عدوة لنفسها ، واتُّهم المسيحيون الأوائل بأنهم يتآمرون لقلب الامبراطورية الرومانية ، وخَلع قيصر عن عرشه ، إرضاء لواحد اسمه يسوع . قيل عن اجتماعاتهم السرية بأنها تُعقد لمقاصد سياسية غير شرعية . لذلك كان من الضرورى أن يُزال من عقول الناس ذلك الفكر بأن هناك مؤامرة لهدم أى مجتمع قائم .

من أجل هذا كان المسيحيون الأولون يحَثون بصفة خاصة بأن يمتثلوا - على قدر ما يستطيعون - لمطالب وعادات الشعب الذى يعيشون بينه كغرباء ونزلاء . كان يجب أن يعطوا ما لقيصر لقيصر . طالما كانوا قد ارتضوا بالحياة الوطنية بما فيها من امتيازات ، ونظام ، وأمن ، فيجب أن يساهموا فى نفقاتها ، ويخضعوا لنظام الحكم الذى وجدوه قائما ، على أن لا يحاولوا تعديله أو تغييره إلا بالطرق القانونية . لذلك كان يُطلب منهم أن « يعطوا الجميع حقوقهم . الجزية لمن له الجزية . الجباية لمن له الجباية ، والخوف لمن له الخوف . والإكرام لمن له الإكرام » (رو ١٣ : ٧) . كان يجب أن يعيشوا حياة هادئة مسالمة ، خاضعين للقانون ، ويكون هدفهم فعل الخير . وهكذا يستطيعون بمرور الزمن أن ينتزعوا الأحقاد ، ويصطلحوا مع أعدائهم ، بإظهار نعم الحياة المسالمة ، الرقيقة ، الخيرة .

جميل جدا أن نلاحظ كيف أن هذه النصائح تمت حرفيا . فترتوليانوس بيّن الفرق بين المسيحيين والوثنيين . فهؤلاء الأخيرون كانوا يتلذذون بالمعارض التى تسفك فيها الدماء فى المصارعات ، أما المسيحى فكان يُقطع من عضوية الكنيسة إذا ما ذهب إلى تلك المعارض . وبينما كان الوثنيون يهجرون أقرب أقاربهم لدى انتشار وباء الطاعون ، كان المسيحيون يخدمون المرضى . بينما كان الوثنيون يتركون أمواتهم بغير دفن فى ساحات الحرب ، ويطرحون الجرحى فى الشوارع ، كان التلاميذ يسرعون لإسعافهم . وهكذا « سكتوا جهالة الناس الأغبياء » . وعندئذ انعكس الوضع . فإنه بقدر ما دقق العالم فى البحث عنهم بقدر ما اتضح له أن صفات جديدة بلا لوم ازدادت انتشارا . قال « پلاينى » Pliny فى خطابه للامپراطور تْراچان Trajan أنه لا يوجد

أى عيب فى اتباع الديانة الجديدة سوى اعتقادهم بخرافات شاذة . وقال ميريفال Merivale أن سيرة المؤمنين الأوائل كانت أحد أسباب أربعة أدت إلى تغيير حياة الامپراطورية الرومانية .

وطبيعى إنه توجد حدود لتطبيق هذه الكلمات . فخدمتنا الأولى ينبغى أن تتجه دائما إلى الله . وعندما تتعارض أوامر الملوك مع وصايا ملك الملوك فلا يبقى هنالك مجال للخضوع ، بل يجب أن تُرفض . وللحال تدرك النفس أنه لا يوجد مجال للتردد أو التذبذب ، أو الحيرة . فالرسل كانوا أول من نادى بإطاعة السلطات القائمة ، كانوا أيضا أول من صرّح بأنه إذا تعارضت تلك السلطات مع الضمير ، وجب أن يطاع الله أكثر من الناس . وكانوا يتحملون النتائج المريرة التى تترتب على هذا .

ينبغى أن لا تتعارض الحكومات المدنية مع ملكوت الله . فنحن نقدر أن نطيع الله بالخضوع لكل ترتيب بشرى . يمكننا أن نحتفظ بولائنا لأمپراطورية قيصر دون أى نقص فى ولائنا للمسيح . والأكثر من هذا إننا نكون مواطنين صالحين لقيصر لأننا مواطنون لملكوت السماء . ولكن إذا ما تعدى قيصر حدود الماديات والأمور المنظورة ، وتدخل فى الروحيات والأمور الأبدية ، وجب عدم الخضوع له ، ولو أدى بنا الأمر إلى السجن . وحتى فى هذه الحالة نكون نحن أحرار الله ، لأننا عبيده .

٣- التطبيق فى أربع نواح

١- « **أكرموا الجميع** » ، أو « اعرفوا قدر الجميع » حسبما ورد فى النص اليونانى . كان يجب أن يُظهروا اهتماما كريما بجميع الناس ، ناشئا من معرفة قدر كل واحد . فى أتفه إنسان توجد فضائل . فى كل إنسان يرى الله أشياء لها قيمتها اللانهائية . الدرهم الذى يُفقد، ويتدحرج إلى التراب ، يستحق كنس البيت للعثور عليه (لو ١٥ : ٨ و ٩) . إن وضعت أشر إنسان فى كفة ، وكل ذهب العالم فى كفة أخرى ، وجدت أن كفة الإنسان ترجح . إن الذى يعرف قدره هو

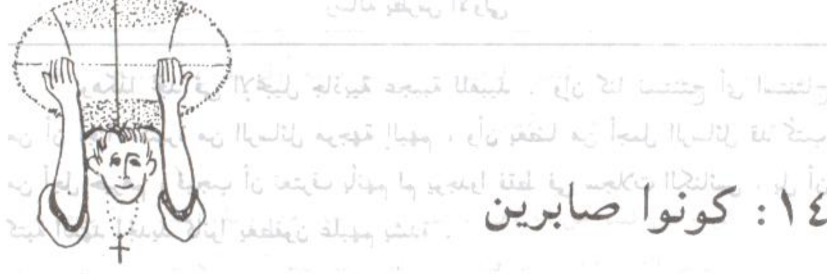
المسيح وحده . فلنجتهد بأن ننظر إلى الناس كما ينظر إليهم الله ، وبهذا نتمم هذه الوصية .

٢- « **أحبوا الأخوة** » . ليست المحبة مجرد عواطف ، لكنها تضحية الذات . ليس مطلوبا أن نحب كل إنسان فحسب ، بل أن نجعل الآخرين الهدف الرئيسى من حياتنا دون محبة الذات . هذه هى الروح التى ينبغى أن نظهرها لكل الذين يعترفون بأبوة الله ، ولذلك فهم أخوة لنا .

٣- « **خافوا الله** » . « المحبة الحقيقية الكاملة تطرد الخوف إلى خارج لأن الخوف له عذاب » (١ يو ٤ : ١٨) ، وتنشىء خوفا مقدسا يرهب أن يغضب الله . وكل خطوة فى سبيل النمو فى القداسة تقاس بمقدار ازدياد هذا الخوف . قال أحدهم : « المحبة تقنع الناس بصلاح الله وجُوده ، لكى يخافوا أن يغضبوه » .

٤- « **أكرموا الملك** » . احترموا المنظمات البشرية . ذكر هذا الدرس فى مقدمة هذه الآيات ، ثم كُرر فى ختامها . ويقينا أنه إن كان قد ذكر كل هذا نحو إكرام الملك الأرضى ، فبالأولى جدا ينبغى أن نكرم ملك الملوك . آه ، ليت البشر يكرمونه الإكرام اللائق . « مستحق هو أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة ، لأنه ذُبح واشترانا لله بدمه » (رؤ ٥ : ٩ و ١٢) . فلنكرمه بمحبة لا نهائية .

إن الذين يسلمون حياتهم لله تسليما مطلقا يعيدها الله إليهم كاملة لكى يعيشوا للآخرين . المسيح يجعلنا أعضاء فى عالم آخر ، لكنه فى نفس الوقت يأمرنا أن نهتم بشدة بكل ما يمس البشرية المحيطة بنا ، وذلك **من أجله** .



١٤ : كونوا صابرين

« لأنه أى مجد هو إن كنتم تُلطمون مخطئين فتبصرون . بل إن كنتم تتألمون عاملين الخير فتصبرون فهذا فضل عند الله »

(١ بط ٢ : ٢٠).

إن الخدم الذين يخاطبهم الرسول هنا هم خدم البيت وعبيده ، وهؤلاء كانوا يُستخدمون بكثرة فى ذلك العصر . كان ذوو الثروة والمراكز الرفيعة يفتخرون بكثرة عدد الخدم الذين يحتفظون بهم . وكانت حياة هؤلاء الخدم والعبيد رخيصة جدا . وإذا ما اشتُرى العبد كانت إعالته لا تكلف سيده كثيرا . وقد أتخمت الامبراطورية الرومانية بالعبيد ، فكانوا سببا فى خرابها .

ولا عجب إن سمعنا بأن الكثيرين من هؤلاء المساكين كانوا يهربون ليلجأوا إلى الكنيسة المسيحية ، كما يبحث الشريد عن الطعام . كانت هنالك على الأقل حرية للأسرى ، محبة ومساواة بين العبد وسيده ، بين السيد والعبد الذى يفلح أرضه . وشـراء نفس العبد قد كلف ابن الله نفس القدر من الآلام بقدر ما تحمّله من أجل أغنى إنسان . والمحبة التى رفرفت فوق الكوخ الذى لجأ إليه أنسيمس كانت قوية ورقيقة بقدر المحبة التى توسلت إلى فليمون . والسماء التى استقبلت لعازر المسكين هى نفس السماء التى استقبلت شهداء الرسل .

وهكذا نجد فى الإنجيل جاذبية عجيبة للعبيد . وإن كنا نستنتج أى استنتاج من أن أجزاء كثيرة من الرسائل موجهة إليهم ، وأن بعضا من أجمل الرسائل قد كُتب من أجل خيرهم ، فيجب أن نعترف بأنهم لم يوجدوا فقط فى سجلات الكنائس ، بل أن كتبة العهد الجديد كانوا يعطفون عليهم بشدة .

كانت الرسالة الوحيدة التى وجهها روح الله إليهم ، والتى طالما كُررت فى هذه الصفحات ، تلخص فى هذه الكلمات : **اخضعوا ، احتملوا ، استسلموا ، كونوا صابرين .**

يجب أن نذكر بأنهم لم يكونوا يقدرون أن يعطوا إنذارا لترك مراكزهم كلما أرادوا . إن كانت لهم الحرية الكاملة ليفعلوا هذا عندما يقدرون على شرط أن يكون هذا بلا لوم ، وبدون إتلاف للمهمة التى ائتمنوا عليها من الله أو من الناس . « إن استطعت أن تصير حرا فاستعملها بالحرى » (١ كو ٧ : ٢١) . لكن هذا كان فى حكم النادر . لم يكن أمامهم بديل - فى أغلب الحالات - سوى أن يبقوا فى أماكنهم إلى أن يريحهم الموت . لمثل هؤلاء كُتبت هذه النصائح الخاصة .

هنالك شعور قوى بعدم الراحة بين المستخدمين فى المجتمع . فالخدم ينذرون بمغادرة أماكنهم . والشبان يسعون لتحسين مراكزهم . والرجال يتنقلون من عمل إلى عمل . وكقاعدة عامة يمكن القول أن هذه التغييرات المستمرة لا تجنى الكثير ، حتى من الوجهة العالمية . أما الحياة الثابتة الهادئة المتئدة فهى التى تنجح بسرعة وتتنعم كثيرا . ومع ذلك فإن التغيير ليس خطية ، إن كان لا يتم لمجرد محبة الذات والأنانية ، أو طمعا فى مكاسب عالمية .

عندما تُقدم الشهادة المسيحية بوضوح فتُرفض بوضوح ، عندما يكون بقاؤنا فى نفس المكان معثرا بدلا من أن يكون بانيا ، عندما نحس بأننا نقدر أن نطلب من الله أن يفتح بابا آخر فيجيب طلبتنا ، عندما نستطيع أن نجد مركزا آخر دون إتلاف للمصالح

التى اؤتمنا عليها ، عندما نقدر بالتغيير أن نخدم خدمة أوفر لملكوت المسيح - **عندئذ** لا يكون هناك أى مانع من التغيير .

لكن ، فى كثير من الحالات ، كما كانت الحال مع أولئك الخدم ، لا يوجد مبرر كاف لترك المركز الذى أقامنا الله فيه . قد نَلقَى كل يوم الظلم العنيف ، والقسوة التى لا تحتمل ، والكلمة السامة ، والطبع المثير العيّاب ، الذى لا يشبع من الشتيمة قط ، ولا يريح قط . قد يكون هذا هو موقف الطفل مع أمه ، أو الممرضة مع مريضها ، أو الصبى تحت التمرين مع مخدومه ، أو الزوجة مع زوجها . مثل هذه المراكز لا يمكن تغييرها ، ويجب احتمالها إلى النهاية بعدما قبلناها .

هنا نجد النصيحة الإلهية : إذا شُتمت لا تَشتم عوضا ، عندما تُلطم وأنت عامل الخير فلا تقابل غيرك بالمثل ، عندما تُتهم كذبا ، أو تُعاقب زورا وبهتانا ، فاحتمل بالصبر . هذه كلها تؤدى إلى حياة ليست فقط مماثلة لحياة من ترك لنا مثالا لكى نتبع خطواته ، بل أيضا تبعث تأثيرا قويا فعالا مخلصا فى أعنف مقاومى الإنجيل ، كما أن الله يَشْتَمّ منها رائحة زكية ، ويعلن رضاه ومحبته .

هنا يشير الرسول إلى تصرفين :

١- اللطم بسبب الأخطاء

كلنا قد ارتكبنا أخطاء ، ونعرف معنى التوبيخ والقصاص . وفى مثل هذه الظروف لا يكون لنا الحق فى الشكوى . وأحسن خطة ، عندما يكون هذا هو موقفنا ، أن لا نلتمس لأنفسنا المعاذير ، ولا نلوم الآخرين أو الظروف ، ولا نتفوه بألفاظ تنم عن الغضب الشديد ، بل لنتحمل كل شىء بالصبر . وإن كان لا بد من أن نتكلم فلنعترف بأخطائنا ، ونطلب الصفح .

في هذا الصدد قدم لنا المرنم العظيم مثلا رائعا . فإنه عندما كان نازلا على منحـدر جبل الزيتون متجها إلى الأرض ، خـرج رجل من بيت شاول يدعى شمعى ، « وإذ كان داود ورجاله يسيرون فى الطريق كان شمعى يسير فى جانب الجبل مقابلة ويسب وهو سائر ويرشق بالحجارة مقابله ويذرى التراب » . فاغتاظ أبيشاى جدا وطلب الإذن من الملك لكى يقطع رأسه . فقال الملك : « كلا دعوه يسب لأن الرب قال له سب داود » (٢ صم ١٦ : ٥ - ١٣) .

كأنه أحس أن خطيته تستحق التوبيخ العلنى ، وبتواضع ، اعتبر بأن الله إذ سمح لشمعى بأن يسبه كأنه قد قال له أن يسب . بمثل هذه الروح يجب أن نحتمل كل لطم يأتينا بسبب أخطائنا . اصمت . اجلس وحدك . واصمت . ضع فمك فى التراب . حوّل خدك لمن يلطمك . الرب لن يرفضك إلى الدهور (مز ٧٧ : ٧) ، بل يردك إلى نفسه . اذكر فقط أنه لا يوجد فى هذا ما تفتخر به . فهذا هو واجبك العادى . « أما الصبر فليكن له عمل تام لكى تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين فى شىء » (يع ١ : ٤) .

٢- اللطم ونحن عاملون الخير

إن رؤساءنا ، أو مخدومينا ، قد يكونون شكسين ، لا يسهل إرضاؤهم ، كثيرى الانتقاد . ومع أننا قد نبذل كل ما في وسعنا لإرضائهم ، فإننا لا نلقى منهم إلا اللطم والتوبيخ . ومع ذلك ينبغي أن نقابل كل شىء بالصبر .

لا ضرر من أن نبيّن بهدوء وأدب ظلم التهمة وعدم صحتها وعدم معقوليتها ، أو نبين كيف قد بذلنا الجهد لكى نؤدى عملنا على أحسن وجه . عندما اتُهم الرب بإخراج الشياطين بالتحالف مع رئيس الشياطين ، أوضح كيف أن هذه

التهمة غير معقولة . وعندما لُطم ، قال : « إن كنت قد تكلمت رديا فاشهد على الردى ، وإن حسنا فلماذا تضربنى » (يو ١٨ : ٢٣) . يجوز لنا جدا أن نعطى ردا هادئا لينا كهذا . أما إن لم يكف هذا لتحويل الغضب ، فيجب أن نقابل كل شىء بالصبر .

احرص على أن لا يكون صمرك صبر الجبن والخنوع . ليس لنا فضل فى هذا ، بل ليكن مبعثا من إرضاء الله . قدم صبرك لله على المذبح الذى يقدس العطية ، فيكون الباعث على تقديم الذبيحة ثمينا فى عينيه . « هذا فضل عند الله » . ويحمل النص اليونانى معنى كهذا : « يقول لك الله شكرا » . نعم هذا معقول . فإنه إن وُجد فى بيت كبير خادم مسكين ، أو إن وجد فى مدرسة تلميذ مضطهد واستطاع ، من أجل الله ، أن يكظم غيظه ، ويحتمل الظلم ، فإن قلب الله يتأثر جدا ، لدرجة أنه ينحنى ويقول « شكرا » . إن البطل المكتشف قد تشكره بلاده ومَلكه ، أما أضعف قديس خامل الذكر فقد يتقبل الشكر من القدير .

نستطيع أن نحصل على نعمة الصبر هذه من اعتبارات كثيرة :

حتى وإن كان الاتهام خاطئا وباطلا ، فقد كانت هناك فرص كثيرة فى حياتنا نلنا فيها نصيبا وافرا من الشكر أكثر مما نستحق . فلعل هذا يعوض ذاك . هكذا يكون الشر فى قلوبنا لدرجة أن جراثيم الخطايا ، التى نسبت إلينا زورا ، تكون كامنة تنتظر الفرصة لإظهارها ، وكان يمكن أن تظهر من قبل لولا نعمة الله .

وعلاوة على هذا ألا تنم هذه الرغبة - فى الحصول على مدح الجميع واحترامهم - عن قلب عالمى ؟ لماذا نطلب مدح البشر ؟ لو أعطى لنا ما نستحقه لأعطيت إلينا لطمات كثيرة بدلا من مدح واحد . وإن كان المخلص الذى بلا شر ولا دنس قد صمت كنعجة أمام جازيها ، وسط عاصفة من الإهانات التى أحاطت به ، فخليق بنا أن

نصمت ، لأن هنالك أسبابا كثيرة تدعو إلى توبيخنا تبرر أشر ما قيل عنا ، وأسوأ منها أننا نشبه مجرما يحسن به أن يحتمل بالصبر حكما صدر عليه من أجل جريمة لم يرتكبها ، لئلا إذا كثر صياحه يعطى الفرصة لفحص عدة جرائم لم يُتهم بها ، لأنها لم تُعرف .

وعلاوة على هذا ينبغى أن نعطف على مضطهدينا. أسفا عليهم . إن حالتهم تحزن ، تدعو إلى الرثاء . يقينا إنهم يحتاجون إلى العطف لا إلى الغضب ، إلى الرحمة لا إلى العنف . ولعل وداعتنا التى لا تعرف الشكوى تمس قلوبهم أكثر مما تفعله كلمات الحدة والغضب ، كما فعلت تنهدات وتأوهات الشهداء الأولين إذ نخست ضمائرهم مضطهديهم ، ودفعتهم إلى الرب .

وعلاوة على هذا فإنه أمر تافه أن يدينا الناس . إن مدحنا إنسان فماذا يفعل لنا مدحه ؟ وإن لامنا فلا يكون لومه إلا نفخة فى الهواء . الحياة قصيرة مهما طالت ، والأبدية قريبة على الأبواب . وابتسامة الله ، عندما نقترب من عرشه ، تجعلنا شاكرين إذ تعرضنا لظروف التوبيخ التى أهّلتنا لننال مثل هذا الأجر الجزيل .

أليس مفروضا أن الله سوف يعلن حقنا بعد لحظة ؟ نعم ، سوف يعلن . « أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهارا وليلا وهو يتمهل عليهم ؟ أقول لكم إنه ينصفهم سريعا » . (لو ١٨ : ٧ و ٨) هو « سينير خفايا الظلام » (١ كو ٤ : ٥). « يخرج مثل النور برك وحقك مثل الظهيرة » (مز ٣٧ : ٦). فمن ذا الذى ، إذن ، يعطى مكانا للغضب طالما كان الرب قد قال : « لى النقمة أنا أجازى » (رو ١٢ : ١٩) . « فلنسلم أنفسنا لمن يقضى بعدل » كما فعل يسوع (ع ٢٣) وعندئذ نجد أنه أظهر حقنا ، وجعل أعداءنا يعضون الشراب ، كما فعل هامان إذ قاد مردخاى ممجدا فى شوارع شوشن .

٣- بواعث الاحتمال بالصبر

١- **سوف يقول الله « شكرا »** كما سبق أن رأينا . وسوف تسمع النفس بفرح هذا الشكر يوما ما عندما تقف فى حضرته فى ذهول ، قائلة : « متى فعلت ما أستحق عليه كل هذا ؟ » وردا على تذكر حوادث كثيرة تافهة ومنسية ظهر فيها اللطف والوداعة أثناء الإساءات والتوبيخ . ثم يقول الرب : « هذا ما رأيته فيك ، يا بنى ، فسرنى . مرحبا ، نعم ما فعلت » .

٢- **« لأننا لهذا دعينا » (ع ٢١)** . لم ندع قط لنفرح ، ونخلص ، ونمجد ، بل دعينا لنتألم كما تألم المسيح . كان هو رب البيت ، لكنهم بصقوا عليه ، ولطموه ، وهزأوا به ، وصلبوه . ومع ذلك « لم يهدد » . ونحن قد دعينا لنتمثل به .

ولكى يزيد الرسول كلامه وضوحا ، استخدم كلمات يفهمها الأولاد . فإنه عندما كان المعلم اليونانى يعلم الكتابة ، كان يكتب بحروف غير واضحة ، وكان التلميذ يكتب فوقها . كان هذا هو فكر الرسول . ونحن قد دعينا لكى نتبع كل خطوة ، ونسير وراءه فى كل منحنى ، وكل عطفة ، وهكذا يرى العالم صورة حية من حياته . « تاركا لنا مثالا لكى تتبعوا خطواته » (ع ٢١) .

٣- **نحن ندرك أننا فى الطريق المستقيم إلى وطننا** . لقد اجتاز ربنا العالم تاركا وراءه آثار خطواته . وفى غابة استراليا الكثيفة يشعل المرء النار فى جذوع الأشجار ، أو ينثر فروعها وراءه ، لكى يعرف الطريق كل من يتبعه . هكذا عندما نقابَل بالبغضة والتوبيخ ، ليس من أجل أخطائنا ، بل لأننا للمسيح ، ونقدر بأن نحتمل بالصبر ، فلنتأكد بأننا مقتفون آثاره ، التى تقودنا إلى الموت ثم إلى مجد القيامة ، إلى شاطئ نهر الحياة . « هؤلاء هم الذين يتبعون الحمل حيثما ذهب » (رؤ ١٤ : ٤) .

وهل هذا الصبر ميسور ؟ نعم ، ولكن ليس بقوتك الشخصية ، بل هو موهبة من إله الصبر بالروح القدس . حدثنا الكتاب ثلاث مرات عن صبر يسوع الذى احتمل التهديد والإساءات دون أن ينطق بكلمة تهديد . آه ، يا لهذه النعمة العجيبة . وكل ما فعله لم يفعله من أجل نفسه فقط ، بل من أجل كل الذين يؤمنون . وهو ينتظر أن نتمثل نحن به . فلنتمثل به فى كل لحظات الغضب والغيظ ، قائلين مع من قال : « هدىء ثورة غضبى يا حمل الله » ، أو هامسين برقة : « هبنى صبرك يا رب .

• هكذا ليت الروح القدس يرشدك إلى صبر يسوع المسيح .

١٥ : آثار الغنم

« لأنكم لهذا دعيتم . فإن المسيح أيضا تألم لأجلنا تاركا لنا مثالا لكى تتبعوا خطواته . الذى لم يفعل خطية ، ولا وُجد فى فمه مكر . الذى إذا شُتم لم يكن يَشتم عوضا . وإذ تألم لم يكن يهدِّد . بل كان يسلِّم لمن يقضى بعدل . الذى حمل هو نفسه خطايانا فى جسده على الخشبة ، لكى نموت عن الخطايا فنحيا للبِرِّ . الذى بجلدته شفيتم . لأنكم كنتم كخراف ضالة لكنكم رجعتم الآن إلى راعى نفوسكم وأسقفها »

(١ بط ٢ : ٢١ - ٢٥) .

« خراف ضالة » . ألا تقدر أن تراها ؟ لقد خرجت من ثغرة ضيقة فى السياج ، وجالت بعيدا لترعى فى المراعى الجميلة التى أغرتها ، فأفزعتها الكلاب وطاردتها ، فهامت على وجهها ، وسقطت فى حفرة ، أو ارتمت على الأرض منهكة ، وصارت فريسة للأسد أو للذئب . صارت بعيدة عن الحظيرة ، جريحة ، مطاردة ، منزعجة ، لطختها الأقذار ، تكاد تهلك ، إلا إذا افتقدها الراعى . هكذا كنا كلنا . « كلنا كغنم ضللنا » (أش ٥٣ : ٦) .

كيف نستطيع أن نشكر راعى النفوس الأعظم ، الصالح ، لأنه لم يتركنا للمصير التعس ، بل سعى وراءنا وسط شقوق الجبال ، والأرض الشائكة ، وفوق الصخور المدببة ، وصار يبحث حتى وجدنا ، وحملنا على كتفيه ، وأعادنا إلى الحظيرة ؟

« لكنكم رجعتم » الآن آمنين فى حظيرته . ونحن نستمع إليه وهو يدعونا بأسمائنا . ونحمل اسمه موسوما علينا . لا نخشى التعرض للتجارب ، لأننا واثقون أنه « متى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها ، والخراف تتبعه » (يو ١٠ : ٤) .

لكن اتباعنا لراعى نفوسنا* وأسقفها يتضمن الآلام . « فإن المسيح أيضا تألم لأجلنا تاركا لنا مثالا لكى تتبعوا خطواته » (ع ٢١) . فخليق بنا أن نتأمل جيدا فى هذه الآثار التى تقودنا إلى أسفل ، إلى الطرق المظلمة قبل أن تقودنا إلى أعلى ، إلى القمم العالية ، إلى القيامة والصعود .

١- الآلام هى مصير كل البشر . « الإنسان مولود للمشقة كما أن الجوارح لارتفاع الجناح » (أى ٥ : ٧) . العمل هو نصف الحياة ، والألم هى النصف الآخر . نصف الكرة الأرضية يستنير بنور شمس العمل ، والنصف الآخر فى ظلال الآلام . الجميع يتألمون ، إما فى النفس أو فى الجسد ، فى أشخاصهم أو فى عائلاتهم ، يتألمون مما يملكون أو مما لا يملكون . يتألمون من خبث زملائهم ، أو من ضغائن الأرواح الشريرة ، أو من حماقاتهم وأخطائهم .

لقد كابد يسوع كل هذه الآلام ، ما عدا الآلام الأخيرة . لقد عرف معنى الجوع ، والعطش ، والتعب ، والفقر ، وضعف الجسد ، والآلام الجسدية ، والحزن من أجل وفاة الأحباء . كل هذه يكابدها الإنسان . هو يأكل خبزه بعرق وجهه . وبها تكون أخلاق المرء . وبها يتسلط على الطبيعة . ولأن الرب « وُجد فى الهيئة كإنسان » (فى ٢ : ٨) ، فقد أحنى رأسه الطاهرة الملكية ليحتملها . ومع أنه هو سيد الكل ، وملك الكل ، فقد اختار أن يجرّد نفسه من المادة ، ولا

يكون له أين يسند رأسه ، لكى لا يقدر أى إنسان بشرى أن يفتخر بكثرة آلامه ، لأن ابن الله سبقنا فى الآلام ، وتفوّق علينا فيها . « كان ينبغى أن يشبه إخوته فى كل شىء » (عب ٢ : ١٧) .

٢- **هنالك أيضا آلام انفرد بها المسيح كنائب عنا وكمخلص** . لقد شدد الرسول على هذه الناحية لأنها هى الأساس الجوهرى لعلاقتنا بالله . فإنه « **تألم لأجلنا** » . هذه تدل على أنه قبل على نفسه اللعنة ونتائج خطيتنا ، لكى يعفينا منها إلى الأبد . ولكى يشدد الرسول على العمل الذى قام به المسيح كنائب عنا ، اقتبس مرة أخرى من نبوة أشعياء ، النبى الإنجيلى ، التى فيها أعلن الروح القدس مقدما الناحية الكفارية فى آلام الفادى (أش ٥٣) .

« **الذى حمل خطايانا** » . هذه تعبر عن عمله الكفارى كان اليهودى قديما يضع يده على رأس الذبيحة المهيأة للذبح نيابة عنه ، وكان الحمل البرىء يحمل العبء ، ويموت تحت حمله . هكذا حمل المسيح خطايانا فى جسده على الخشبة . لم يكن تفكيره مقدما فى التعذيب الجسدى المقترب هو الذى سبب حزنه فى جثسيمانى ، أو فجّر العرق كقطرات دم منه . بل كان هو ضغط خطايانا التى كانت قد بدأت فعلا تضغط على قلبه الحنون ، والتى انتهت بموته على الصليب .

لم يكابد أى متألم حزنا كهذا . ولم يوجد له مثيل فى تاريخ كل الأجيال ، ولن يوجد . « ولكنه الآن قد أظهر مرة عند انقضاء الدهور ليبطل الخطية بذبيحة نفسه » (عب ٩ : ٢٦) . لم يحدث فى تاريخ البشرية هذه المأساة سوى مرة واحدة ، حيث ظهرت فيها هذه المحبة ، إذ وُضعت على الحبيب خطايا ربوات لا يحصى لها عدد لكى يكفر عنها وتبطل إلى الأبد (أش ٥٣ : ٦) .

سوف لا نطيل التأمل فى العبارة التى تؤكد ضرورة تقديم « جسده » لإتمام عملية الفداء . ذلك الجسد الذى وُلد بلا خطية « وحل فيه كل ملء اللاهوت

جسديا » ، والذى بدا عندما نزل فى مياه الأردن فى بداية الأمر كأنه حُسب مع الخطاة ، مع أنه بلا خطية ، كان هذا الجسد مسكنا لله الذى هيأه له ، والذى كان أداة استخدمها لنطق بكلمات مباركة كثيرة ، ويتمم أعمالا مجيدة - هذا الجسد جُعل ذبيحة خطية ، وكأنه قد أحرق بالنار خارج المحلة ، كما كانت أجساد الثيران والتيوس تُحرق فى عهد الناموس اللاوى .

كذلك سوف لا نطيل التأمل فى « الخشبة » [1] ، فنشبهها بالحطب الذى حمله إسحق على كتفيه إلى جبل المريا . لكن يكفى أن ندرك أن هذه الشجرة قد أصلت أصولها فى عالمنا ، وملأته بأغصانها المتفرعة ، التى تتآوى فيها حتى طيور السماء - هذه هى شجرة الحياة الحقيقية ، التى تملأ ثمارها كل الأرض ، « وورق الشجرة لشفاء الأمم » (رؤ ٢٢ : ٢) .

ومع هذا ، فهناك فكرة تستدعى انتباهنا قبل أن نتجاوز هذه التأملات . هى أن تلك الآلام التى انفرد هو بها ، والتى لا نقوى نحن على احتمالها ، والتى تتحدى كل إنسان فى العظمة الفريدة ، قد حررتنا من تحمل القصاص العادل ، الذى نستحقه بسبب نقض وصايا الله . قد نلتزم بأن نتحمل النتائج الطبيعية لأخطائنا وقصاصاتها . فالسكّير الذى تتجدد حياته يحمل إلى نهاية الحياة آثار إدمانه رغم غفران خطاياه ونجاته من قصاص غضب الله . بل حتى هذه الآثار قد تتحول إلى بركات بنعمة الله . فمن الآكل يخرج أكل ، ومن الجافى حلاوة .

أما النتائج الأبدية لخطايانا ، فقد حملها الرب نيابة عنا بآلامه . لقد أزالها عنا إلى الأبد إلهنا العظيم ، وذلك فى شخص الرب يسوع المسيح . ولأنه تألم بسببها ، فلا حاجة بنا لكى نتألم نحن أيضا بسببها . لأنه حملها فلا حاجة بنا لكى نحملها نحن أيضا . لأن الجلدات العنيفة ألهبت ظهره ، فلا حاجة بنا لكى نُجلد نحن أيضا . « الذى بجلدته شفيتم » (ع ٢٤) .

(١) « الشجرة » حسب الترجمة الإنجليزية .

كان العبيد الذين كتب إليهم الرسول يعرفون تماما معنى الجلد . والكلمة اليونانية تعنى « الحبر » (١) . لقد خرج المخلص من القبر حاملا جروح جلدات كثيرة ، جروحا فى يديه وقدميه وجنبه . لكن هذه الجروح إذ تحدثنا تملأ قلوبنا فرحا جزيلا . عندما « أقيم من الأموات راعى الخراف العظيم ربنا يسوع بدم العهد الأبدى » (عب ١٣ : ٢٠) ، والتقى بأتباعه الجبناء فى العلية « أراهم يديه وجنبه . ففرح التلاميذ » (يو ٢٠ : ٢٠) .

ونحن عندما نتأمل فى الحمل ، وكأنه مذبوح ، وننظر هذه الآثار الثمينة ، آثار عمله الذى تممه عنا ، فإننا نحن أيضا نترنم ترانيم جديدة مثل الذين فى السماء . هذه الجلدات هى ثمن فدائنا ، ودليل شرائنا ، وعلامة الغفران . ليت كل واحد منا يردد هذه الكلمات : « وهو مجروح لأجل معاصىَّ ، مسحوق لأجل آثامى ، تأديب سلامى عليه ، وبحبره شفيت » (أش ٥٣ : ٥) .

لكن موت المسيح له ناحية مزدوجة . فهو أولا يتطلع إلى العدل الإلهى الذى قُدّم إليه تكفيرا لخطايانا الكثيرة . كل هذا تم دون أى تدخل من جانبنا نحن الذين تم من أجلنا .

ثم هو أيضا يتطلع إلى الإنسان فى النتيجة التى يعملها فيمن يدركون معناه الحقيقى . « لكى نموت عن الخطايا فنحيا للبِّر » (ع ٢٤) . هنالك اتفاق عجيب بين هذه العبارة وبين ما ورد فى الأصحاح السادس من رسالة رومية . والواقع إننا نجد فى هذه الكلمات تعليما من أقوى تعاليم الكتاب المقدس . فإننا فى نظر الله نعتبر كأننا ممثَّلين فى ربنا ، حتى أن النبوات التى

(١) ولهذا قيل فى (أش ٥٣ : ٥) « وبحبره شفينا » وفى الترجمة الإنجليزية « وبجلداته شفينا » . والحبر هى الآثار المتخلفة عن الجلدات .

قيلت عنه يصح أن تنطبق علينا . فنحن قد متنا بموته ، وقمنا بقيامته ، ونجلس معه فى مجده . وينبغى أن يكون القصد والهدف من حياتنا أن نحقق بالإيمان ، وبالاختبار العملى ، كل ما يختص بنا حسبما هو فى فكر الله وقصده . أنتم قد متم : « احسبوا أنفسكم أمواتا » (رو ٦ : ١١) . وقمتم « اهتموا بما فوق » (كو ٣ : ١ و ٢) ، وأجلستم فى السماويات ، فاسلكوا كما يحق لدعوتكم العليا . بنعمة الله ينبغى أن يكون هنالك موت مستمر عن كل طلب يأتينا من الجسد ، أو من العالم ، أو من إبليس ، كما ينبغى أن نلبى بالتمام كل الإيحاءات والطلبات التى تأتينا من الروح القدس التى تدعونا لحياة البر .

وآلام المسيح إلكفارية تقتضى منا أن نتألم . فإننا يجب أن نسلم أنفسنا للموت كل يوم ، يجب أن نحمل صليبنا ونتبعه ، يجب أن نقع فى الأرض لنموت . يجب أن يكون هنالك إنكار للذات باستمرار ، يجب أن نتمثل الصليب أمامنا فى كل أيام حياتنا ، يجب أن نتشبه بموته ، ونشرب كأسه ، ونصطبغ بصبغة آلامه - كل هذه ضرورية للخلاص من محبة الخطية وقوتها ، ذلك الخلاص الذى تممه من أجلنا . بهذا نقدر أن نتبع خطوات فادينا .

٣- **آلام من لم يعرف خطية** . لقد شهد الجميع بأن المسيح كان بلا خطية . لم يخلُ أى حمل أو ثور من العيوب كما كان هو خاليا من كل عيب . فيهوذا الأسخريوطى ، الذى كان يعرف دقائق حياة المسيح ، صرّح قائلا : « سلمت دما بريئا » (مت ٢٧ : ٤) . وبيلاطس كرر مرارا بأنه لم يجد فيه علة . والتهمة الوحيدة التى وجهها إليه الكهنة هى أنه ادعى الألوهية . « الذى لم يفعل خطية ، ولا وُجد فى فمه مكر » (ع ٢٢) . لم يقل نعم ولا ، « لأن مهما كانت مواعيد الله فهو فيه النعم وفيه الأمين » (٢ كو ١ : ١٩ و ٢٠) . هو « الشاهد الأمين الصادق » (رؤ ١ : ٥ ، ٣ : ١٤) .

وكم كان جميلا جدا صمته أمام متهميه . فقد صمت أمام السنهدريم ، بينما كان شهود الزور يتقدمون فى فشل مخز . وصمت أمام هيرودس ، لدرجة أنه لم ينطق بكلمة منذ دخوله قصره إلى خروجه منه ، إشارة إلى صمت الله أمام الذين أغلقوا قلوبهم أمامه . وصمت أمام پيلاطس إلا عندما عبّر ذلك المسكين عن أفكار وآراء تنم عن خبث قلبه . صمت فى دار الولاية ، صمت على الصليب ، إلا فى بعض كلمات للبركة وللصلاة .

وكيف كان أمرا محتما أن قداسته ، رغم صمتها وعدم شكواها ، التى لم تصارع ولم تصرخ ، ولم يُسمع فى الشوارع صوتها ، تصطدم مع روح عصره ، وفى هذا الاصطدام تألم آلاما مريرة . كما أن الشمس المشرقة تبعث الروائح الكريهة من البركة الراكدة ، هكذا كان وجود يسوع بين البشر ، إذ أظهر الشر الكامن فى قلوبهم . ولا بد أن هذا الشر كان فى حد ذاته باعثا على ألم مرير لشخصه الحساس جدا ، والرقيق جدا ، والطاهر جدا . بقدر ما يزداد التقدير للموسيقى المتناسقة النغم ، يزداد النفور من النغم غير المتناسق .

هل تستطيع أن تحصى عناصر الألم التى كانت فى كأس المسيح ؟ لقد كان البشر ، الذين جاء لأجلهم ، منحدرين جدا فى الخطية ، حتى اضطر أن يتنفس جوهم المدنس بعكس جو العالم الذى أتى منه . لقد احتمل الإساءات والاتهامات من شعبه ، لقد عومل كمجنون ومختل العقل ، لقد اضطر أن « يحتمل من الخطاة مقاومة لنفسه » (عب ١٢ : ٣) ، لقد قاومه وأبغضه أولئك الذين اشتاق أن يخلصهم ، لقد تعرض لتجارب البشر والشياطين . ومع ذلك فليست هذه كلها هى آثار آلامه الدموية ، التى أشار إليها هذا الشاهد العيان لآلام المسيح .

فى كل هذا « لنا مثالا لكى نتبع خطواته » . ولا بد أن نجتاز الكثير من هذه الاختبارات . عندما نتمثل بالمسيح ، فإننا يجب أن نجتاز نفس الخطوات ، ونعامَل بنفس المعاملة التى عومل بها . لن يعطف علينا العالم الذى عامل السيد بمنتهى

القسوة . وبقدر ما نحيا بروح المسيح ، سوف نصطدم مع روح العالم ، ونتألم بسبب عدم ملاءمته لأقدس غرائز النفس .

توقع بأن تُشتم وتُلطم ، يسيء الناس فهمك ويصورونك على غير حقيقتك ، تُنبذ وتُصلب ، كما احتمل ربك . لا يمكن أن تتوقع الغنم مصيرا أفضل من مصير الراعى ، فإنهم يعرفون أنهم يتبعون آثاره ، عندما يلتزمون بأن يتبعوا آثاره فى الآلام والأحزان .

لكن النهاية مجيدة عندما يتجمع كل القطيع على جبال الأبدية . « إن كنا قد متنا معه فسنحيا أيضا معه . إن كنا نصبر [(١)] فسنملك أيضا معه » (٢ تى ٢ : ١١ و ١٢) . « أنتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى . وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبى ملكوتا » لو ٢٢ : ٢٨ و ٢٩) .

(١) « نتألم » حسب الترجمة الإنجليزية .

١٦ : مركز المرأة فى البيت

« كذلكن أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لا يطيعون الكلمة يربحون بسيرة النساء بدون كلمة . ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف . ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلى بالذهب ولبس الثياب . بل إنسان القلب الخفى فى العديمة الفساد زينة الروح الوديع الهادئ الذى هو قدام الله كثير الثمن . فإنه هكذا قديما كانت النساء القديسات أيضا المتوكلات على الله يزين أنفسهن خاضعات لرجالهن . كما كانت سارة تطيع إبراهيم داعية إياه سيدها . التى صرتن أولادها صانعات خيرا وغير خائفات خوفا البتة .

« كذلكم أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائى كالأضعف ، معطين إياهن كرامة كالوارث أيضا معكم نعمة الحياة لكى لا تعاق صلواتكم » (١ بط ٣ : ١ - ٧) .



كانت هنالك قديما عائلات طاهرة فاضلة فى عالم الإغريق والرومان ، لا زالت ذكرياتها باقية إلى اليوم . فمن ذا الذى ينسى پانثيا Panthea التى قالت عندما تركها زوجها ليحارب تحت قيادة الملك كورش المعروف : « إن وُجدت امرأة تحترم زوجها وتحبه أكثر من نفسها فإنى أنا هذه المرأة » ؟ ومن ذا الذى ينسى رفض كورنيليا Cornelia أن تتزوج بأى واحد من الكثيرين الذين تقدموا إليها ، وكانوا من الأسرة الملكية ، لأنها أصرت على زواجها بالنبيل تيطس جراكوس Titus Gracchus لا يزال قائما حتى بعد موته ؟ ومن ذا الذى لا يتأثر من ذلك الوصف الرائع الذى كتبه ذلك الرجل العظيم پلايني Pliny واصفا به زوجته إذ قال : « إنها تحبنى ، وهذه أضمن علامة على فضيلتها . وقد أضافت إلى هذا ميلها العجيب للعلم ، الأمر الذى اكتسبَته من محبتها لى . فهى تقرأ كتبى ، وتدرسها ، بل تحفظها عن ظهر قلب . وإنك لتعجب بها إذ ترى مقدار اهتمامها عندما أطلب منها أى أمر ، ومقدار فرحها عندما تتممه . كانت تبذل الجهد لكى تتلقى أول نبأ عن النجاح الذى ألقاه فى البلاط الملكى . كانت تقرن أشعارى بآلتها الموسيقية ، دون أن يكون لها معلم سوى المحبة ، وهى أفضل معلم . ومحبتها ليست مبنية على مقدار ما أستحقه ، ولا على شخصى ، بل كانت تحب الجزء الخالد فىّ » .

لكن هذه أمثلة فريدة ، وقد حرص التاريخ على تدوينها لأنها نادرة جدا . فشعراء الامپراطورية الرومانية ومؤرخوها دونوا أسود الصفحات عن الاستخفاف بالعلاقة الزوجية ، وعن الانحطاط الأخلاقى المزرى الذى قوّض أركان الدولة ، وأدى إلى دمارها . هذا الوصف تثبته بالحجة النقوش المدونة على أسوار پومپ Pompii . إلى ذلك العالم ، الذى سادته ظلمة حالكة ، والذى كانت تنير فيه نجوم قليلة ، جاءت ديانة ربنا يسوع المسيح . وكانت العائلة المسيحية هى من أول ما خلقته هذه الديانة . من أجل هذه الأسرات ، ومن أجل كل ما وهبته كنيسة المسيح لذلك الجيل وكل الأجيال ، يجب أن تعترف البشرية أنها مديونة لإنجيل الرب يسوع المسيح .

❀❀❀

حتى الشعب اليهودى تراخى فى علاقاته الزوجية . فقد كان الربيون يسمحون

بالطلاق لأتفه الأسباب . فإن لم يرض الزوج عن تصرفات زوجته ، أو إن أفسدت الطعام الذى تطبخه ، أو إن أصيبت بمرض جسدى شديد ، فإنه يمكنه أن يطلقها . لم يُعط هذا التيسير إلا لشعب إسرائيل كامتياز خاص ، لكنه لم يُعط لأية أمة أخرى . إزاء حالة المجتمع هذه ، صدرت كلمات الرب يسوع الرائعة ، الذى كرر مرارا بأن الزواج ينبغى أن يعود إلى وضعه الأول : امرأة واحدة لرجل واحد ، وأصر على أن الاثنين يجب أن يعيشا معا فى البيت ، فى علاقة لا تُفصل إلا بالموت أو بالخيانة .

من الضرورى جداً أن تعاد كلمات المسيح وكنيسته هذه فى آذان العالم . إن الثورة المتزايدة التى تشنها الطبقات والجماعات على بساطة المسيحية تبعها تفكك الرابطة الزوجية والعلاقات العائلية . وقد تزايدت حالات الطلاق سريعا جدا فى المحاكم .

وهناك ما يقولونه : يقينا إننا نحتاج إلى قوانين أسهل للطلاق . ينبغى أن لا نكون متزمتين . ينبغى أن نعترف مع ستروس Strauss أن بالعهد الجديد آراء تقشفية بصدد الزواج ، وأن عظة المسيح على الجبل تنقصها معرفة الطبيعة البشرية ، وأن العلم يناقض الكتاب المقدس . [وهذه ضلالة صارخة] .

وهم يطلبون منا أن نتجاوز عن الأخطاء التى ارتكبها بعض عظماء المفكرين وأشهر الكتّاب فى عصرنا ضد سر الزواج ، كأن ذكاءهم يحررهم من الالتزامات الأدبية ، أو يبيح لهم أن يتبعوا نظاما خاصا .

من حالة التراخى والانحلال هذه ، التى تهدد بزحزحة عظمة بلادنا [(١)] ، وتغاضينا عن دروس الماضى التى تنبىء بتقويض أركانها ، ننتقل بارتياح للتأمل فى الفكرة الإلهية الطاهرة السامية عن مركز المرأة فى البيت المسيحى ، وعن زينتها ، وعن معاملتها .

(١) بريطانيا العظمى .

١- مركزها

كان مقام المرأة قد انحط منذ عدة أجيال ، كما هو منحط الآن فى الشرق ، وفى البلاد التى لم تصل إليها المسيحية . كان يُنظر إليها بأنها خالية من الروح ، أو أنها أمَة ، أو ألعوبة ، أو قطعة من الأثاث ، ثمينة أو غير ثمينة ، حسبما تكون الحال . لكن تعاليم الإنجيل جاءت كأشعة نور الفجر ، فأعلنت أن المرأة معينة للرجل نظيره ، أُخذت لا من رأسه أو قدمه ، بل من جنبه ، لتكون رفيقة له . وفى المسيح تساوت المرأة مع الرجل . والروح القدس لم يتحيز فى عطاياه ، بل أعطى مواهبه للمرأة فى الكنيسة الأولى بالتساوى مع الرجل . والرب نفسه قرّب المرأة إلى شخصه ، وقبلها فى الدائرة الداخلية من صداقته ، وأبرز أنبل صفاتها . والعالم كله يذكر بالتبجيل العذراء مريم ، ويذكر النسوة اللاتى خدمنه ، واللواتى سكبن عليه الطيب ، واللواتى كن آخر من بقى معه عند الصليب ، وأول من أتى إلى القبر . ومعجزة عرس قانا الجليل كانت علامة على بركته لسر الزواج .

وإذ مرت هذه المناظر أمام المرأة ، واستوعبتها فى قلبها ، لبت دعوة يسوع بسرور وفرح . لقد طرحت نفسها عند قدميه صارخة بفرح عظيم قائلة : « ربونى » . هرعت إلى كنيسته حيث نالت الترحيب الكامل . وكان هنالك خطر لئلا تكون نشوة الفرح الذى وجدته أخيرا سببا فى تفكك الالتزامات المقدسة الكائنة منذ القدم ، والتى لا يمكن للإنجيل أن يفصلها أو يرخيها . لم يأت المسيح لكى ينقض طقس الزواج القديم ، بل ليكمله ، ويبيّن أنه عيّنة لتلك الرابطة الأبدية التى لا تنفصل ، والتى ارتبط بها مع كنيسته .

هذا هو أصل الوصية التى تقضى بالخضوع . لقد قيلت مبدئيا للذين اعتنقوا المسيحية منذ زواجهم . كان هنالك تفكير طويل لدى الكنيسة الأولى نحو واجبها فى تلك الظروف . هل تترك المرأة زوجها ؟ هل تغير سلوكها نحوه ؟ هل تطلب شيئا من الرئاسة ؟

أما الرسول فقد قال : كلا ، البثى أيتها المرأة حيث أنت ، مهما كان موقفك أليما ، ومهما كان الوسط غير متجانس ، ومهما كانت تصرفات زوجك مثيرة . كونى عفيفة ، رقيقة ، محبة ، خاضعة ، باشة ، لكى يلين قلب الزوج الذى لم يسمع قط كلمة الإنجيل ، ويربح بجمال وقداسة وكمال حياتك .

طبيعى أنه حيثما توفـرت المحبة الصادقة بين الزوج والزوجة ، وحيثما كان الاثنان مسيحيين حقيقيين فإن الأمر لا يحتـاج لهذه النصيحة . لا مجـال للخضوع إن لم توجـد هنالك أوامر استبدادية . أو مطالبة كل من الطرفين بحقوقه ، أو صراع للاستقلال . إن غرائز المحبة الحساسة تحدد بالضبط ما لا يمكن أن تحدده الكلمات ، تحددمركز كل من الزوج والزوجة . وبغض النظر عن هذه النصيحة ، إن طبيعة المرأة المحبة هى أن تخضع ، وتعتمد على شخص أقوى منها ، وأن تكرس حياتها لأعمال خدمة المحبة .

لو عاشت كل النساء المسيحيات هكذا ، لقلت الحاجة لوعظ أزواجهن الذين لم تتجدد حياتهم بعد . « يربحون بسيرة النساء بدون كلمة » (ع ١) . يربحون ؟ إن الشخص الذى تتجدد حياته يربح لنفسه ، يربح للراعى ، أو للصديق ، أو للزوجة أو للزوج ، الذى أو التى طلبت هذا التجديد ، يربح ليسوع المسيح ، يضاف إلى خزينته ، فإنه لم يحسب دمه أثمن من أن يسفك ليربحه . وأى تعويض أو أجر تناله الزوجة بسيرتها الطيبة وخوفها للـه أعظم من أن تعـرف أن زوجها سوف يصبح لؤلؤة فى تاجها ، وأنها قد ربحته للرب .

لا مجال هنا للكلام مع من يريدون أن يتزوجوا بعيدا عن الرب . فإنهم قد أمروا صراحة بأن لا يكونوا تحت نير مع غير المؤمنين . وسوف يجدون - عندما يدفعون الثمن غاليا - مرارة مخالفة وصية واضحة كهذه . لا رجاء فى أن يربح الواحد شريك أو شريكة حياته طالما كانت كلمة الله قد أهملت منذ البداية . لكن إن تجددت حياة أحد الطرفين بعد الزواج ، فهنالك يكون أمل فى ربح الطرف الآخر .

إيه أيتها النسـاء الكسيرات القلب ، البائسات ، الحزينات ، القريبات من اليأس ، اللاتى كدتن تفقدن كل رجاء . لا تفشلن فى عمل الخير ، تمسكن بالمحبة التى لا تسقط أبدا ، اذكرن ، وأنتن جالسات فى الظلمة ، أنكن يجب أن تضربن مثلا للمحبة من أجل الرب العزيز المتطلع إليكن ، والذى لا يسمح لكن بأن تجرَّبن فوق ما تقدرن أن تتحملن ، اعتمدن عليه من أجل المستقبل ، وآمن بأن الله سوف يجعل أزواجكن يسافرون معكن فى السفينة وسط الأمواج الهائجة .

يا له من درس هنا للجميع . نحن لا نقدر كلنا أن نعظ بالكلام ، لكننا نقدر أن نعظ بسيرتنا . ومثل هذا الوعظ عظيم فى نتائجه ، وتأثيره يبقى إلى الأبد .

٢- زينتهـا

يبدو أن الرسول لا ينهى عن ضفر الشعر ، أو لبس الذهب . وطبيعى أيضا أنه لا ينهى عن لبس الثياب . فالتقوى لا تقوم بتوفر هذه الأشياء أو انعدامها . إن لبسناها لا تكون حياتنا أحسن ، وإن لم نلبسها لا تكون أسوأ . يقينا أن المخلص لا يبالى إن كنا نلبس الحرير أو البفتة [أبسط قماش] ، إن كنا نلبس الثياب الملونة أو غير الملونة . إن الناموس الوحيد هو : أن نلبس ما يتفق مع المركز الذى وضعنا فيه الله ، وبكيفية لا تجذب الأنظار إلينا .

طبيعى أنه إن كان أسلوب معين من الملابس لا يستخدمه إلا أهل العالم وغير المتدينين ، أو إن كان يُحدث تأثيرا سيئا فى الذين يراقبوننا عن قرب ، فيشنعون فيما ينظرونه فينا ، أو إذا كانت ملابسنا تلفت النظر بشكل مثير يخجلنا ، فيحسن بنا أن نتجنبها .

لكن إن لم يكن هذا هو الحال ، فيجب أن نلتزم الحشمة الحقيقية فى عاداتنا لئلا نلفت الأنظار إلى تكلفنا الحشمة أو إلى كبريائنا ، وهكذا نجلب على أنفسنا اللعنة بسبب محبة الشذوذ .

ومما يؤسف له جدا أن يعتل الضمير المسيحى فى هذه النواحى . يتساءل البعض باستمرار عما يريده الرب أن يلبسوه ، لدرجة أنهم يفقدون الكثير من الشركة معه . طبيعى أننا يجب أن نختار ملابسنا طالبين منه الإرشاد فى الاختيار . والسيد له كل الحق فى أن يقول لعبيده ما يجب أن يلبسوه ، ويخبرهم عن كيفية صرف أمواله . وطبيعى أنه يجب أن يبلغهم إرادته بكل رقة . الق عليه كل المسئولية ، ثم انشغل بالتفكير فيه أكثر من التفكير فى الملابس .

إن النقطة الجوهرية لكل واحد منا هى : **أين هى زينتى ؟** إن كانت « خارجية » فنحن فى أشر حال ، أما إن كانت داخلية « إنسان القلب الخفى فى العديمة الفساد زينة الروح الوديع الهادىء » ، فإننا نترك الأمور الخارجية لترتب نفسها بنفسها ، وعندئذ لا ننشغل بها ولا نفكر فيها أكثر من اللازم . قال « سنيكا » : « عظيم هو المرء الذى يتمتع بإنائه الفخارى كأنه طبق ، ولا يقل عظمة ذلك الذى يرى بأن كل طبق عنده ليس إلا إناء فخاريا » .

كثيرون هم الذين يبالغون فى تزيين جسدهم الخارجى ، أما إنسانهم الداخلى فهو فى خرق بالية . بينما نجد غيرهم يرتدون الملابس البسيطة لكنهم من الداخل يرتدون أجمل الثياب ، ثياب البر والقداسة . فما هى ملابسنا فى نظر الله ؟ هل نعرف شيئا عن هذا الروح الوديع الهادىء ، الذى هو قدام الله كثير الثمن . وهو مبارك وسط ضجيج العالم ؟

يبدو أن المفتاح للحصول عليه كامن فى هذه الكلمات : **« هكذا كانت قديما النساء القديسات أيضا المتوكلات على الله »** (ع ٥) . حوّل قلبك إلى الله ، تجد أن النتيجة تظهر نفسها فى استقامة السيرة ، والتلذذ بعمل الخير ، والتحرر من الخوف ، وهكذا تزين الإنجيل ، وتنال رضى الله .

٣- كيف نعاملها ؟

يحسن أن تضاف لهذه الكلمات الموجهة للأزواج تلك التى وجهت إليهم فى رسالة أفسس ، التى طلب منهم فيها أن يحبوا نساءهم كما أحب المسيح الكنيسة ، وأن يهتموا بهن كاهتمامهم بأجسادهم .

وهنا نجد ثلاثة نصائح جميلة ، وفيها الكفاية :

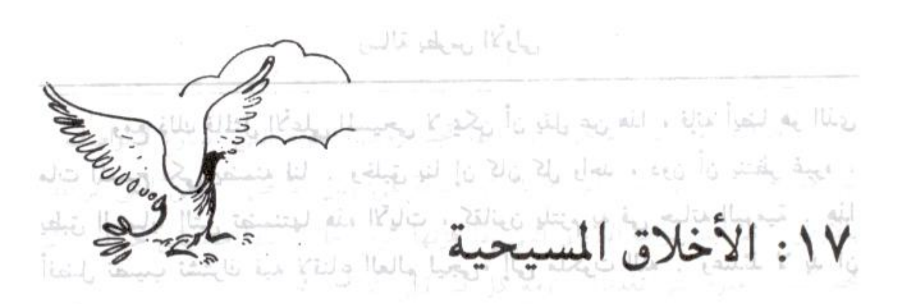
١- أكرم الزوجة على أساس أنها هى « الإناء الأضعف » (ع ٧) . كل البشر خرجوا من بين يدى الفخارى الأعظم . لكن البعض أقوى من غيرهم . وتقضى شريعة المسيح بأن الأقوى ملتزم بالاهتمام بالأضعف . إن الأدب ، والتربية العالية ، والبطولة ، واللطف - هذه كلها نجدها مقلدة فى المجتمع . أما أصلها فيوجد حيث تممت المسيحية عملها الكامل . لا يقدر المرء أن يحصل عليها إلا إذا كُتبت هذه الوصايا فى قلبه . هى تخرج من الداخل إلى الخارج ، لكنها لا تدخل من الخارج إلى الداخل . وكثيرون هم أولاد الله اللطفاء الذين لم يعترف بهم المجتمع .

٢- اذكر أنكما معا « وارثين نعمة الحياة » . لا توجد رابطة أقوى من رابطة الذين يتزوجون فى محبة الله ، والذين يجدون أن محبة الله تجعل محبتهم أعمق ، لانهائية . ولكى نصف مثل هذه العلاقة ، يحسن بنا أن نردد شعار تشارلز كنجزلى Charles Kingsley الذى كتبه على قبره ملخصا بركة حياته الزوجية : **« نحن نحب ، وقد أحببنا ، وسوف نحب »** . ليكن تفكيرك فى نعمة الحياة التى أعطيت لك بالتساوى مع شريكة حياتك سببا فى أن يجعل علاقتكما سامية ونبيلة .

٣- **احرص على أن « لا تعاق صلواتك »** . لا يوجد محك أفضل من صلوات الرجل الصالح . فإنه عندما يجثو أمام إلهه ، يدرك فى لحظة إن كان قد ارتكب خطأ أم لا فى الساعات السابقة ، وإن كان قد ارتكب ، فأين ارتكبه . وهو قد أمر بأن يترك قربانه على المذبح ويذهب ويصطلح أولا مع أخيه ، ثم يرجع ليقدمه . وكل ما يكشفه القلب من أخطاء يجب نبذه . وكل ما يعيق الزوج والزوجة عن الصلاة معا ، أو عن الصلاة العائلية ، يجب أن يعالج بدون رأفة كمعوق . وإن كنا أمناء فى تصرفاتنا اليومية ، فإن صلواتنا لا تكون فقط بعيدة عن أن تعاق ، بل يدعمها الله ، وندرك محبة الله لنا ، وسط تقصيراتنا ، تلك التى تعمق المحبة الزوجية فى قلوبنا ، وعندئذ ندرك ناحية أخرى من محبته « الفائقة المعرفة » (أف ٣ : ١٩) .

لا يوجد ما يكشف عن حياتنا بقدر طريقة سلوكنا فى الحياة العائلية . إن وقوفنا وسط جمع كبير لندعو المسيحيين لحياة التكريس الكامل أيسر من أن نحاول فى صباح اليوم التالى تطبيق هذه المبادىء السامية ونحن نتناول طعام الإفطار . ليس من العسير أن نعيش كقديسين إن كنا نتحرر من احتكاك ومسئوليات الحياة اليومية ، ونحاط بمن يحولون بيننا وبين أى شىء يثير غيظنا . وفى نفس الوقت إن فشل تديننا هنا فقد فشل نهائيا . إن لم تكن علاقتنا مستقيمة مع أقرب الناس إلينا ، تكون علاقتنا مع الله غير مستقيمة . فمحبتنا لله تتطلب محبتنا للناس . وإن كنا لا نحب الذين يعيشون معنا فى دائرة الحياة العائلية محبة ملتهبة ، لامعة ، جذابة ، غير أنانية ، فلا نكون بعد قد ذقنا محبة الله . ومتى كانت محبتنا كاملة ، صرنا أوانى تنسكب منها محبة الله لكى تبارك وتخلص .





١٧ : الأخلاق المسيحية

« والنهاية كونوا جميعا متحدى الرأى ، بحس واحد ، ذوى محبة أخوية ، مشفقين ، لطفاء ، غير مجازين عن شر بشر، أو عن شتيمة بشتيمة ، بل بالعكس مباركين ، عالمين أنكم لهذا دعيتم لكى ترثوا بركة . لأن من أراد أن يحب الحياة ويرى أياما صالحة فليكفف لسانه عن الشر ، وشفتيه أن تتكلما بالمكر ، ليعرض عن الشر ويصنع الخير ، ليطلب السلام ويجدّ فى أثره ، لأن عينى الرب على الأبرار وأذنيه إلى طلبتهم . ولكن وجه الرب ضد فاعلى الشر » (١ بط ٣ : ٨ - ١٢) .

عجيب جدا أن نجد أية جماعة تحت السماء تمثلت فيها هذه الوصايا العجيبة ، بحيث يكون الجميع متحدى الرأى ، مرتبطين معا فى وحدة مقدسة بعطف مشترك ، يخدمون القديسين ، يعطفون على الضعيف ، والخاطىء ، والمسكين ، لطفاء نحو نظرائهم ، هادئين ومسامحين عند الإساءة إليهم ، طالبين السلام ، نائلين رضا الله . أين نجد فى كل العالم جماعة من المسيحيين كهؤلاء ؟ هذه رؤيا جميلة تستحق أن نذهب إليها بعيدا لكى نراها . هذا هيكل للمحبة ، مسكن للسعادة السماوية . هذه واحة فى صحراء ، موسيقى سماوية متناسقة النغمات وسط حياة الذات البشرية الصاخبة المتنافرة النغمات . هذه أورشليم الجديدة نازلة من عند الله من السماء .

ومع ذلك فالمثل الأعلى المسيحى لا يمكن أن يقل عن هذا ، فإنه أيضا هو الذى مات المسيح لكى يضمنه لنا . وخليق بنا إن كان كل واحد ، دون أن ينتظر غيره ، يطبق الوصايا التى تضمنتها هذه الآيات ، كقانون يلتزم به فى حياته اليومية . هذا أفضل نصيب نشترك فيه لإقناع العالم ليجىء إلى ملكوت الله . وعندئذ لا بد أن ينتشر .

ألا تعلمنا كلمة الرسول هنا « والنهاية » [(١)] أن كل التعاليم المسيحية قُصد بها أن تؤدى إلى حياة المحبة ، التى لخصت فى هذه الآيات ؟ فلنتأمل فى هذا الضياء الكامل إلى أن يسطع نوره على وجوهنا ، فنعكسه على العالم .

١- المبدأ العام

« كونوا جميعا متحدى الرأى بحس واحد » [(٢)] . إن وحدة الرأى هذه لا تتطلب المماثلة فى كل شىء ، بل الوحدة مع التنوع . لا تتطلب أن يعتنق الجميع فكرا واحدا ، لكننا يمكننا أن نكون متحدى الرأى مع اختلاف التفكير والتعبير ووجهات النظر ، على أن يكون الباعث واحدا هو محبة المسيح ، والولاء واحدا نحو حقائق الفداء ، والمحبة واحدة لكل من يؤمنون بالمسيح ، ولو كانوا يختلفون معنا فى أمور بسيطة . وحدة الرأى لا تعنى المماثلة فى كل شىء ، فالحياة تكره هذه المماثلة .

هنالك تنوع فى جسم الإنسان . هنالك تنوع من هدب العين إلى القدم ، من القلب إلى الدم ، من المخ إلى أنسجة الأعصاب . ورغم كل هذا التنوع فكل عضو يدرك الوحدة الكائنة بين الأعضاء ، ويدرك أن هذه الوحدة لا تتجزأ .

(١) « أخيرا » حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الإنجليزية .

(٢) « مشفقين بعضكم على بعض » حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الإنجليزية .

هنالك تنوع فى الشجرة . فيها تجد فروعها القوية التى تصارع العواصف ، ثم تجد جذورها التى تمتد إلى مسافات عميقة فى بطن الأرض ، وهى التى تربطها بالأرض ، ثم تجد ربوات الأوراق التى إذا هزتها الريح خلقت منها موسيقى جميلة ، ثم تجد الثمار الحلوة التى تغذينا . ومع كل هذا فهى شجرة واحدة .

هنالك تنوع فى الكتاب المقدس . فيه نجد أشخاصا كثيرين اشتركوا فى الكتابة ، ونجد تنوعا فى الأسلوب ، وفى السنين المتنوعة التى كُتب فيها ، وحديثه يمتد من بناء الفلك إلى جزيرة بطمس . ومع ذلك فإن الأسفار الستة والستين جُمعت فى كتاب واحد ، هو الكتاب المقدس .

هنالك تنوع فى المسيحيين . قد تجد ، بل لا بد أن تجد ، كنائس مختلفة يجب أن تكون كلها واحدة ، فالروح القدس يخاطب الجميع « مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام » (أف ٤ : ٣) . هنالك حظائر كثيرة ، لكن يجب أن يكون هنالك قطيع واحد . هنالك أمزجة مختلفة ، لكن يجب أن يكون هنالك أسرة واحدة . هنالك عقول كثيرة ، لكن يجب أن يكون هنالك اتحاد فى الرأى .

إن المناقشات الكثيرة بين الكنائس المختلفة فى الوقت الحاضر ، ناشئة من عجزنا عن أن ندرك بأنه يوجد تنوع لانهائى فى طريقة تفكير البشر . لا يوجد اثنان ينظران إلى شىء واحد بطريقة واحدة . ولا يوجد اثنان يرويان حادثة واحدة بأسلوب واحد ، فكل منهما يصورها حسب مزاجه الخاص ؛ كما أن كل شىء فى الطبيعة يستمد من الشمس لونه الخاص . إن اجتمع اثنا عشر من الأتقياء المتعلمين لكى يتفقوا على وضع تعاليم واحدة للكنيسة ، فإن كل واحد يعتقد بأنه لن يتفق اثنان فى كل كلمة يضعانها . قد يختلف الناس فى التفكير ، لكن يجب أن يكونوا متحدى الرأى .

إن أردنا أن نطيع هذه الوصية ، الخاصة باتحاد الرأى ، فلنفكر فى الأشياء التى نتفق فيها أكثر من تفكيرنا فى الأشياء التى نختلف فيها . لقد أحب المسيح الجميع بمحبة واحدة ، واشتراهم بدم واحد ، والجميع ولدهم الروح الواحد ، ويجب أن يكونوا أعضاء فى جسد واحد ، أحياء بحياة واحدة ، راجين رجاء واحدا ، خاضعين لمتاعب واحدة ، مستقين أعوازنا من مصدر واحد ، هادفين إلى وطن واحد . ما أكثر ربط علاقاتنا وما أوثقها .

يقينا إنه يليق بنا أن نعطف بعضنا على بعض ، وأن يصحح الواحد أخطاء الآخر - إن لزم الأمر - وحدهما ، دون أن تكون هناك رغبة فى تعالى الواحد على الآخر ، بل يكون الهدف كله هو مجد الله . ولنحسن تفسير نقط الاختلاف ، متطلعين إلى كل شىء فى نور مجد الله . ولنطلب الامتلاء بروح المحبة والعطف الذى احتمل به الرب طويلا غباوة وضعفات أولئك الذين اختارهم ليكونوا أخلص أخصائه .

٢- التطبيق فى أربع نواح

١- **واجبنا نحو زملائنا المسيحيين . يجب أن نحبهم كأخوة** . « ذوى محبة أخوية » ، نحبهم بغض النظر عن ميولنا السابقة ، أو أمزجتنا . قد تقول إن هذا مستحيل . لكن اذكر بأنه ليس من الضرورى أن تنشأ المحبة من العواطف ، بل من الإرادة ، لا تقوم بما نحس به ، بل مما نفعله ، لا بميولنا ، بل بتصرفاتنا ، لا بكلمات ناعمة ، بل بأعمال نبيلة بعيدة عن محبة الذات .

المحبة تغير الهدف من الذات إلى الآخرين . عندما نحصر المحبة فى ذواتنا فإننا نبذل كل الجهود لنعظم ذواتنا ، ولا يكون لنا تفكير إلا فى أنفسنا . لكن عندما تتجه المحبة اتجاهها الصحيح يحدث لنا تحول عجيب . فإننا نفكر فيمن نحبهم أكثر من تفكيرنا فى أنفسنا . ونجد أن خططنا وجهودنا ونواحى نشاطنا قد صارت نبيلة ومجيدة بتفكيرنا فيما يرضى ويساعد ويبارك من أحببناهم . بمثل هذه المحبة يجب أن نحب زملاءنا المسيحيين .

لا تبدأ بأن تحاول أن تحب كل إنسان دفعة واحدة . فنحن لا نحسن صنعا أن ننزل من التعميم إلى التخصيص ، بل أن نصعد من التخصيص إلى التعميم . ابدأ بأقرب الناس إليك فى الكنيسة ، وفى الأسرة ، أو بالجماعة الصغيرة التى اعتدت الاختلاط بها . وعندما نحب الأفراد فإننا نأتى إلى محبة المجموع .

قد تقول إن هذا أمر شاق ، وأن هناك بعض المسيحيين القريبين جدا منك لا تستريح معهم . وهاك نصيحتى : لا تجتهد بأن تحس أنك تحبهم ، بل تريد أن تحبهم . قل لربك إنك تريد أن تحب ، أو تريد أن تكون راغبا فى أن تحب ، وتريده أن يخلق فى قلبك نعمة المحبة . اطلب منه أن يسكب فى قلبك من ينابيع محبته ، لكى يُحب هو عن طريقك ، وعندئذ تجد أخيرا أنك قد استنرت بنور محبته . سلم له شفتيك لكى يتكلم بهما الكلمات التى لا تقدر أنت أن تنطق بها . سلم له يدك لكى يعمل بها أعمالا لا تقدر أنت أن تتممها . وإن اعترافك بعجزك سوف يؤكد لك أن فيه كل الكفاية ، وأن ما لا تقدر أنت أن تتممه يقدر هو أن يتممه بك . كل شىء مستطاع عنده ، ومستطاع عندك إن آمنت به . فابدأ إذن بأن تعمل ما يجب أن تعمله ، تجد أنك قد عملته . تممه لأن ذلك حق ، تممه من أجل المسيح . تممه متوقعا أن يعمل الرب فيك وبك ، تجد أن ينابيع من الفيض الإلهى قد تدفقت فيك ، بعد أن ظللت طويلا عاجزا عن أن تعمل أى شىء . وإذ تبدأ هكذا بأن تحب زميلا لك فى المسيحية فإن قلبك ينفتح لمحبة الجميع .

٢- **واجهنا نحو الخطاة والضعفاء . « مشفقين »** . يا لعظمة شفقة ربنا المبارك . كثيرا ما رأيناها فى الإنجيل تمد يديها إلى الغنم التى بلا راع ، إلى الجياع والعطاش ، إلى المنكوبين الذين طلبوا مساعدته . من الأيسر جدا أن تضرب بالجلدات ، وتوبخ ، وتنتقد ، وتدين ، عن أن تشفق وتشفى . يجب أن لا نغمض عيوننا عن الخطية ، أو نستخف بما كلف الله ثمنا غاليا جدا ، وبما يجلب غضبه . لكن يجب أن نميز بين الخطية والخاطئ ، بين المرض والمريض . وكما أننا يجب أن لا نشفق على الخطية ، كذلك يجب أن نرحم الخاطئ جدا .

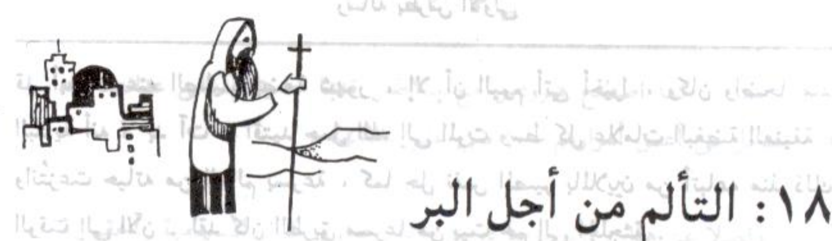
فكر فى خطاياك . كم مرة كنت قريبا جدا من الهاوية ، وكم أنت مدين لنعمة الله التى حفظتك منها . قدر الدَّيْن الذى كان العبد مدينا به بعشرة آلاف وزنة ، لكن سيده ترك له كل هذا الدين (مت ١٨ : ٢٤ إلخ) . وقد تكون إساءة أخيك أقل جدا من دَيْن هذا العبد . ومن ذا الذى يستطيع أن يقدر مقدار الظلمة التى تحيط به ، واليأس الذى كاد يقتله ، والأخطار التى تهدده . فكن مشفقا . وكن « ناظرا إلى نفسك لئلا تجرَّب أنت أيضا » (غل ٦ : ١) . امتنع عن الكلام ، وعن أى تصرف ، إلى أن تعرف كل شيء .

٣- **واجبنا نحو المساوين لنا . « لطفاء »** . يجب أن يكون اللطف المسيحى من الداخل ، وثابتا ، أكثر من لطف العالم . كن مستعدا للجلوس على أقل مقعد مريح ، وأن تفسح مكانك لأخيك ، وأن تقدم أخاك عنك فى الكرامة . لا تجلس فى آخر مكان فى الكنيسة أو فى صالة الاجتماعات لئلا يضطر المتأخرون فى الحضور للتقدم إلى الأمام ، فيخجلوا أمام الجميع ، ولئلا يرتبك الكاهن أو الخادم . قف أنت ودع الآخرين يجلسون . لا تزاحم ولا تدفع غيرك عند الدخول أو عند الخروج . سهِّل عملية دخول أو خروج النساء والأطفال والمرضى . أظهر فى سلوكك صفات أبيك السماوى ، لكى يدرك الناس أنك تنتمى إلى مصدر النبل واللطف ، ويعرفوا أن المسيحية لا تقدم للعالم فقط أبطالا فى المناسبات العظيمة ، بل آلافا من أعمال اللطف فى كل دقيقة فى الحياة اليومية .

٤- **واجبنا نحو الأعداء . لا تقابل المثل بالمثل** . « غير مجازين عن شر بشر ، أو عن شتيمة بشتيمة ، بل بالعكس مباركين » (ع ٩) . لقد بطل الناموس القديم « عين بعين » ، من أجل التشريع السامى الذى يأمرنا بأن نحسن إلى مبغضينا ، ونصلى لأجل الذين يسيئون إلينا ويضطهدوننا . لنكن كالصخرة التى كانت فى البرية ، والتى عندما ضُربت قدمت مياهها للجموع العطشانة .

نحن نستطيع أن نفعل هذا ، « لأننا دعينا لكى ترثوا بركة » (ع ٩) . البركة التى عندما نعطى منها بكلتا يدينا ، وبسخاء عظيم ، فإنه لن تنقص . وعلاوة على ذلك فإن هذه هى السياسة التى بها نحيا حياة هادئة صالحة مباركة . « لأن من أراد أن يحب الحياة ويرى أياما صالحة فليكفف لسانه عن الشر وشفتيه أن تتكلما بالمكر » (ع ١٠) . إن المرء الذى يبرر نفسه دواما ، ويصر على المطالبة بحقوقه ، يصبح فى حالة غليان واضطراب باستمرار ، ويخسر بركة الحياة الهادئة . والأفضل من كل هذا أن الله يتطلع إلينا ، ويحمينا ، وينجينا . « لأن عينى الرب على الأبرار وأذنيه إلى طلبتهم » (ع ١٢) . كل لطمة تأتينا لا يمكن أن لا يلاحظها . ولا يأتينا أى تهديد لا يسمعه . لا يدعنا نجرَّب فوق ما نستطيع أن نحتمل . عندما يتم قصد العدو يلقى الله القبض عليه . ومن بين السحاب يتطلع إلى جيوش أعدائنا ، ويزعجهم ، ويطرحهم فى قلب البحر . « ولكن وجه الرب ضد فاعلى الشر » (ع ١٢) .





١٨ : التألم من أجل البر

« فمن يؤذيكم إن كنتم متمثلين بالخير . ولكن وإن تألمتم من أجل البر فطوباكم . وأما خوفهم فلا تخافوه ولا تضطربوا . بل قدسوا الرب الإله فى قلوبكم مستعدين دائما لمجاوبة كل من يسألكم عن سبب الرجاء الذى فيكم بوداعة وخوف . ولكم ضمير صالح لكى يكون الذين يشتمون سيرتكم الصالحة فى المسيح يخزون فيما يفترون عليكم كفاعلى شر . لأن تألمكم إن شاءت مشيئة الله وأنتم صانعون خيرا أفضل منه وأنتم صانعون شرا » (١ بط ٣ : ١٣ - ١٧) .

فى هذه الآيات نلتقى مرتين بكلمة « تألم » . وفى كل منهما نجد ذلك النوع الخاص من الآلام التى يلقاها الأبرياء والقديسون من مبغضى النور الذى يسطع على ظلمتهم ، والذين يريدون أن يطفئوه إن أمكنهم .

كان لا بد أن يؤدى التجسد إلى الصليب . لو كان أى ذكى عليم بالطبيعة البشرية قد وقف مع يسوع فى بداية حياته ، وسمعه يتكلم ، أو رآه يعمل ، لحكم بأنه لا ينتظره سوى مصير واحد . ورغم أن أعمال المحبة والقدرة التى شغلت كل أيامه

قد أبعدت عنه الصليب بضعة شهور ، إلا أن اليوم أتى أخيرا ، وكان واضحا منذ البداية أنه لا بد آت . اقتيد حمل الله إلى الموت وسط كل علامات البغضة العنيفة ، وانتُزعت حياته من العالم بسرعة ، كما حل نفس المصير بالملايين من أتباعه منذ ذلك الوقت إلى الآن . لقد كان الطريق مسرعا من بيت لحم إلى الجلجثة .

وإن ما حدث لابن الله أيام تجسده يحدث لكل من يتجسد فى قلوبهم وحياتهم . فإنه عندما يدخل بالروح القدس فى طبيعة أولئك الذين كرسوا حياتهم له تكريسا كليا ، يبدأ يعمل فيهم بقوة ، فإنه لا يظهر فقط الكثير من نعمته وقوته ، لكنه أيضا يصطدم بأحقاد الناس الأشرار وبمصالحهم وبغضتهم الشنيعة ، وربما بمقاومتهم العنيفة .

أصل الاضطهاد

لا نستطيع أن نعلل بالتدقيق كل أسباب البغضة التى يحس بها العالم نحو المسيحيين . فهى كثيرة ، وواضحة . فمثلا ينبغى أن يكون أولاد الله ذوى ضمير حى . والمسعى الوحيد الذى يحاوله الأشرار هو أن يقضوا على توبيخات الضمير . من أجل هذا فإنهم ينغمسون فى المسرات ، أو ينشغلون بالأعمال التجارية ، أو الاكتشافات ، وينتقلون من منظر إلى منظر ، ويتجنبون كل ما يتصل بالله أو بمطالبه . لكنهم إذا ما التقوا بإنسان تقى ، فإنهم يجدون فيه اعترافا وتمسكا بهذه المطالب ، مع السعى لإتمامها بأمانة . وهنا يجدون البر مجسما ، ويرون أنهم محرومون منه ، الأمر الذى يذكرهم فى الحال بواجباتهم التى بذلوا كل ما فى وسعهم لكى يهربوا منها .

فيهم تجد كبرياء القلب التى لا تحتمل تفوق الآخرين عليهم ، وتجد الحسد الذى يحقد على النفوذ الذى يجذب به الصلاح الناس دواما ، وتجد الخبث الذى يتأذى إذ يرى الفرق الشاسع بين الطهارة والنجاسة . كل هذه الشهوات القوية فى القلب غير المتجدد ،

تتحاب معا - كما اصطلح هيرودس مع بيلاطس قديما - وتتحد فى عدائها للقداسة التى تتدخل فى أعمق أسرارهم ، وتقضى على سلامهم .

وفضلا عن هذا ، فإنه يوجد دواما **حالة هجوم فى المسيحية الحقيقية** ، وهذه تبعث فى الآخرين مقاومة عنيفة . إننا نعترف صراحة بأن المسيحية ، من إحدى النواحى ، لا تخاصم ، ولا تصيح ، ولا ترفع صوتها ، ولا يسمع أحد فى الشوارع صوتها . هى رقيقة كالنسيم ، هادئة كوقع أقدام الصباح ، لطيفة كسقوط قطرات الندى . هكذا سادت المسيحية كل أرجاء العالم .

ومع ذلك فهى تهدد بالخطر الصناعات الكثيرة ، وتقضى على العديد من التجارب المربحة الشريرة ، وتقوّض أركان مملكة الشيطان ، وتهاجم المصالح الثابتة ، وتقلب العالم من فوق إلى أسفل . حقا إن هذه الديانة الطاهرة التى بلا عيب متعبة ومزعجة للكثيرين ، وأعوان الشيطان ينزعجون عندما تنتعش المسيحية . « إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتى الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا » (يو ١١ : ٤٨) .

ألا نرى هنا مفتاح توقف الاضطهاد فى أيامنا ؟ صحيح أن كل عصر له سياسته الخاصة . أما عصرنا فقد لُعن بمحبة العالم ، ومحبة الشر ، وروح التراخى وعدم المبالاة ، وهذه تعيق ظهور المبادئ القوية الشجاعة . لكن ألا يوجد أيضا فرق شاسع بين حياتنا وحياة آبائنا الأوائل ؟ أين قداسة السيرة ، والغيرة على النفوس ، وتوبيخ الشر بعنف ، والتمسك بالمبادئ مهما كلف ذلك من تضحية ، إذ كلف القديسين حياتهم بذبحهم أو حرقهم ؟ لو كانت هذه الفضائل تظهر فى الحياة العملية اليومية لأغلب البشر ، كما هى ظاهرة فى أقلية ضئيلة من المسيحيين الحقيقيين ، فهل يوجد هناك أقل شك فى ماذا تكون النتيجة ؟ قد لا يتخذ الناس وسائل الأيام السابقة الوحشية ، لكنهم حتى بهذا يكرمون يسوع الناصرى وهم لا يدرون . لكنهم يبحثون عن طريقة أخرى يخلصون أنفسهم بها من الاحتجاج البغيض على حياة الأتقياء دفاعا عن شرورهم وأنانيتهم .

من أقسى أنواع التوبيخ الذى يستطيع المسيح أن يستخدمه هو أن يقول لأى واحد الآن ، كما سبق أن قال فى أيام تجسده « لا يقدر العالم أن يبغضك » (يو ٧ : ٧) . من أشنع المواقف التى يجد المسيحى نفسه فيها أن لا يبغضه العالم ، بل يحبه ويتملقه ويلاطفه . قال أحد الحكماء قديما : « أى شر عملته حتى يتحدث عنى الناس حسنا » . إن عدم بغضة العالم لنا يبرهن على أننا لا نشهد بأن أعماله شريرة . وشدة محبة العالم لنا تبرهن على أننا أصبحنا من العالم . إن صداقة العالم عداوة لله . ومن أراد أن يكون صديقا للعالم صار عدوا لله (يو ٧ : ٧ ، ١٥ : ٩ ، يع ٤ : ٤) .

طوباوية المضطهَدين

« طوباكم » . هذا التطويب مقتبس مما نطقت به شفتا يسوع ، وكُرر ثانية فى الفصل التالى (مت ٥ : ١٠ ، ١ بط ٤ : ١٤) . التطويب [أو الغبطة] درجة أسمى من السعادة ، وهو مرتبط بالظروف القاسية جدا . لكن الجميع شهدوا لتلك الغبطة التى لمعت على وجوه الذين قد تألموا من أجل البر ، ظهرت على شفاههم .

دوّن أحد الكتّاب الحديثين الشهادات التى تفوّه بها بعض الشهداء وقت موتهم . قال أحدهم عندما حُكم عليه بالموت : « فرحت بالقائلين لى إلى بيت الرب نذهب » .

ترنم يوحنا بنيان ، وهو فى سجن بدفورد ، بالترنيمة التالية ، بعد أن بُهرت عيناه بالصور التى رسمها له الملاك على الحائط :

هذا السجن حلو لى جدا
منذ أتيت إليه
وهكذا يكون أيضا الموت شنقا
إذا ما ظهرتَ لى وقتئذ يا ربى

وقال آخر عندما أشعل الحطب حوله : « أعتقد أنهم نثروا الورود عند قدمى » .

وكيف تأتى هذه الغبطة ؟ إنها تأتى إلى القلب بواسطة ذلك الطبع السماوى الذى يبعثه روح الله ، وهو فى حد ذاته غبطة . إنها تأتى عن طريق الضغط على النفس لتطلب لذتها وسعادتها فى محبة المسيح وصداقته ، فإنه هو صديق المضطهَدين ، وهو قريب جدا ممن يتشبهون به فى الآلام ، لأنهم يشبهونه فى صفاتهم وفى حياتهم . إنها تأتى عند التأكد من أننا سائرون فى الطريق الذى وطأه الأنبياء والأبرار ، الذين جازوا الماء والنار ، لكنهم غلبوا ، وجلسوا مع المسيح على عرشه . إنها تأتى لأن « روح المجد والله » يستقر فى القلب (١ بط ٤ : ١٤) . إنها تأتى لأن الجزاء الجزيل السامى يهل من السماء .

هنالك أبواب كثيرة للدخول إلى الغبطة ، بحيث لا يوجد إنسان ، مهما كان بعيدا ، أو مجهولا ، لا يقدر أن يدخل ويقيم فيها . فاختر لنفسك الباب الذى تبتغيه . وإن كنت تعجز عن أن تبيّن بأنك من أولئك المساكين بالروح ، أو الرحماء ، أو أنقياء القلب ، فتجاسر على عمل الخير بأى ثمن ، اسلك صابرا طريق النزاهة السامية والطهارة التى بلا لوم ، احتمل الآلام ، التى يتحتم أن تكون من نصيبك ، بالصبر ، والشجاعة ، وبدون تذمر أو شكوى . وعندئذ يُفتح لك الباب للدخول إلى ملكوت السعادة الذى أسس على الأرض ، وبأسواره التى من الياقوت الأزرق (رؤ ٢١ : ١٩) ، وبأبوابه ، وسط مبانى البشر ، دون أن يُلوّث بنجاساتهم ، حيث لا تراه إلا العيون الطاهرة . « إن تألمتم من أجل البر فطوباكم » (ع ١٤) .

تصرفات المضطهَدين

١- **لا تخافوا** . « **وأما خوفهم فلا تخافوه** » (ع ١٤) . يبدو أن بطرس الرسول تذكر هنا الكلمات التى كان قد سمعها منذ مدة طويلة : « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، وبعد ذلك ليس لهم ما يفعلون أكثر » (لو ١٢ : ٤ ، مت ١٠ : ٢٨) « لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب » (يو ١٤ : ٢٧) لا تكن وجوهكم شاحبة اللون ، ولا يظهر العرق على جباهكم ، ولا ترتعش أجسادكم .

وكيف يكون لنا قلب الأسد هذا الذى لا يعرف الخوف أمام أعدائنا ؟ هنالك رد واحد هو : اطرد الخوف بالخوف . اطرد الخوف من الناس بالخوف من الله . « **قدسوا الرب الإله فى قلوبكم** » (ع ١٥) . لقد جاءت إلينا هذه الكلمات من عصر عاصف فى تاريخ اليهود : « وأخبر بيت داود وقيل له قد حلت آرام فى أفرايم [1] . فرجف قلبه وقلوب شعبه كرجفان شجر الوعر قدام الريح » . وكلم الرب أشعياء عبده قائلا : لا تشترك فى هذا الخوف وهذا الصراخ ، ولا تقابلوا محالفة بمحالفة « ولا تخافوا خوفه ولا ترهبوا . قدسوا رب الجنود وليكن هو خوفكم وهو رهبتكم ، فيكون مقدسا » (أش ٧ و ٨) .

كثيرا ما رأينا الخوف يطرد الخوف . عندما تخاف المرأة من أن تشتعل فيها النيران تثور أعصابها ، وتنزل إلى أسفل من الأدوار العليا المشتعلة بالنار ، وذلك عن طريق مواسير المياه . وعندما يخاف الطائر الجبان من أن يفقد صغاره ، فإن هذا الخوف يدفعه إلى أن يطرح نفسه عند قدمى الرجل الواقف قبالته لكى يلفت نظره إلى الخطر المحدق به . والخوف من الكرباج يطرد خوف الحصان مما بعث فيه الخوف . ليت كل نفس ، إذ تدرك عظمة الله وقدرته ومحبته ، لا تتجاسر على أن تخطئ إليه ، بل بالحرى تفضل أن تضحى حتى بالعالم كله عن أن ترتكب أصغر خطية . قال شخص مخلص نبيل : « لم أفعل هذا بسبب الخوف من الله » .

وعندما يخاف الإنسان الله هكذا بحيث يخاف أن يخطئ إليه ، فإنه يجد أن الله حصن منيع له ، يلجأ إليه « إن نزل علىّ جيش لا يخاف قلبى . لأنه يخبئنى فى مظلته فى يوم الشر . والآن يرتفع رأسى على أعدائى حولى » (مز ٢٧ : ٣ - ٦) .

(١) « قد تحالفت آرام [أي سوريا] مع أفرايم » حسب الترجمة الإنجليزية .

٢- **كونوا « مستعدين دائما لمجاوبة كل من يسألكم** عن سبب الرجاء الذى فيكم » (ع ١٥) . ليس مطلوبا منا أن نتكلم دواما عن إيماننا ، بل أن نقيم البرهان عليه بأعمالنا الصالحة . وعندما يرى الناس ثمار إيماننا ، ويبدأون بالسؤال عن أساسه وسببه ، فيجب أن نكون مستعدين دواما بأن نعطيهم إجابة كافية .

كم هو جميل - إزاء الكثير من اعتراضات هذا العصر - أن نجيب هؤلاء المعترضين ، ونبيّن لهم معقولية الرجاء المسيحى . لا يطلب منا الكتاب المقدس أن نصدقه تصديقا أعمى . صحيح أن كثيرا من أقواله تفوق العقل ، لكن ليس فيها شىء ضد العقل . والله ينادينا باستمرار « هلم نتحاجج يقول الرب » (أش ١ : ١٨) . إن مناقشات الكبرياء عديمة الجدوى ، أما مناقشات الوداعة فإنها تصل يقينا إلى الاقتناع ، وإلى أعماق فكر الله .

أيها الشبان ، ليس فى الكتاب المقدس ما يخشى مناقشاتكم . لا يمكن أن الله الذى خلق مخكم ، وكلله بموهبة العقل الجميلة العجيبة ، يسىء إلى موهبة من أسمى مواهبه . كانت المناقشة من أحب الأشياء إلى الرسول بولس ، أعظم الرسل .

لكن العقل ينبغى أن يمسك دواما مشعل الإيمان . ينبغى أن يجمع الأدلة ليحكم حكما سليما . هو بمثابة العالِم الذى يقوم بعملية التحليل فى معمله الكيماوى . ولذلك ينبغى أن يحلل ، ويختبر ، ويفرز ، ويجمع ، ويطيل البحث إلى أن يصل إلى فكر الله ، كما قال كبلر . عندما يخضع العقل للروح القدس ، كما كان فى نيوتن ، وفارادای ، والمجوس الذين سجدوا للطفل يسوع ، فإنه يصير مجد وفخر الإنسان . ليست المشكلة مع الكثيرين هى استخدام العقل ، بل هى وضعه فى مكانه الخطأ . إن كان عقلك هو المتحكم فيك فإنك قد تدّعى بأنك مبصر ، مع أنك تكون أعمى . أما إن جلس على عرش قلبك الإيمان والرجاء ، على أن يتلقى العقل أوامرهما ، ويطيع وصاياهما ، فإنك عندئذ تصير « أحكم من أعدائك » ، « وأكثر فطنة من الشيوخ » (مز ١١٩ : ٩٨ - ١٠٠) .

فليكن لدينا سبب لإيماننا ، مؤسسا على اختباراتنا الشخصية ، أو ملاحظاتنا ، أو على درس الأدلة ، أو على إتمام النبوات ، أو فوق كل شيء مؤسسا على عمل الروح القدس فى قلوبنا . ورغم أنه لا مبرر لكى نتطفل على غيرنا بشرح إيماننا ، فيجب أن لا نحجم عن شرحه كلما طلب منا ذلك .

ثم يجب أن نقدم أسبابنا ، أو نرتب حججنا ، بطريقة تبرهن على صحة إيماننا ، يجب أن نتكلم « بوداعة وخوف » (ع ١٥) ، بوداعة أمام وجه الناس ، وبخوف أمام وجه الله ، معترفين بأننا مهما تقدمنا فى الحكمة فنحن لسنا إلا أطفالا ، نجمع بضعة أصداف من شاطئ محيط الحق اللانهائى .

٣- **« ولكم ضمير صالح »** (ع ١٦) . تحدث أيضا الرسول بولس كثيرا عن الضمير ، وعن ضرورة تدريب أنفسنا ليكون لنا دائما ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس (أع ٢٤ : ١٦) . خليق بنا أن نطيع هذه الوصايا المتكررة . فالمؤمن الذى يتبع بأمانة ذلك الصوت الداخلى ، ويطيع وصاياه فى كل شيء ، يعيش دائما بعيدا عن الزلل . إن « الضمير الصالح » يعنى « السلوك الصالح » فى المسيح .

تحدث الكتاب المقدس عن أنواع كثيرة من الضمير . لكن هذه التسمية « الصالح » كثيرة المعانى . هل يعرف القارئ ما هو الضمير الصالح ؟ هو الضمير المطهَّر من الأعمال الميتة (عب ٩ : ١٤) ، والمرشوش بدم المسيح (عب ١٠ : ٢٢) ، والمشهود له بالروح القدس (رو ٩ : ١) ، وهو الذى يحل فيه الفرح المملوء مجدا « لأن فخرنا [1] هو هذا شهادة ضميرنا أننا فى بساطة وإخلاص الله . . . تصرفنا فى العالم » (٢ كو ١ : ١٢) . وهو يعكس سماء مسرة الله من فوق كبحيرة هادئة ساكنة .

---

(١) « فرحنا » حسب الترجمة الإنجليزية .

إن ضميرا كهذا يكون لنا رفيقا صالحا فى النهار ، وملازما لنا فى فراشنا فى الليل . يجب بذل كل الجهد للاحتفاظ بنزاهته . وعندما تكون الحياة تحت هذا المؤثر الداخلى ، فإنها لا تبالى بكل الافتراءات والأكاذيب ، وتكتسح كل ضباب الحسد والخبث الذى حجب أشعتها الأولى ، وتكذّب كل الأنباء الكاذبة .

أما المفترون فإنهم سيخزون عندما يتلقون الرد الحاسم على تهمهم من جمال حياة المؤمن الحقيقية النقية التى بلا لوم « ولكم ضمير صالح لكى يكون الذين يشتمون سيرتكم الصالحة فى المسيح يخزون فيما يفترون عليكم كفاعلى شر » (ع ١٦). أما محبو الله فإنهم يتشجعون ويتشددون . « يرى ذلك المستقيمون فيفرحون ، وكل إثم يسد فاه » (مز ١٠٧ : ٤٢) .

ليت كل المضطهَدين يتجملون بالصبر . الآلام تأتى لجميع البشر . وإن كان لا بد من أن نتألم ، فإن « تألمتم وأنتم صانعون خيرا أفضل منه وأنتم صانعون شرا » (ع ١٧) . وحتى هنا نرى الآلام مفعمة بالغبطة . ومن ذا الذى يستطيع أن يقدر قيمة ثقل المجد الذى ينتظر كل واحد من جيش الشهداء النبلاء ، والمقدم إليهم من يسوع المسيح ، الذى اعترف الاعتراف الحسن أمام بيلاطس البنطى ، والمقدم أيضا لأصغر واحد فى ملكوته ، على أن يكون قد وقف ثابتا أمام هزء زملائه فى الدراسة أو زملائه فى العمل .





١٩ : عمل المسيح الكفارى

« فإن المسيح أيضا تألم مرة واحدة من أجل الخطايا ، البار من أجل الأثمة ، لكى يقربنا إلى الله » (١ بط ٣ : ١٨) .

« المسيح تألم » هذا هو قرار الترنيمة . كان أولئك المؤمنون يتألمون من أجل فعل الخير ، ومن أجل الضمير . وكانوا مثقلين بتجارب كثيرة . « مع أنكم الآن إن كان يجب تحزنون يسيرا بتجارب متنوعة [١] » (١ بط ١ : ٦) . هكذا ذكّرهم الرسول بأن « المسيح أيضا تألم » . وكم هى حلوة هذه الكلمة الصغيرة « أيضا » . اعتاد قيصر أن يشجع جنوده بقوله لهم « أيها الزملاء الجنود » . هذه هى قوة هذه الكلمة . هل أنت لا تملك بيتا ؟ هكذا **أيضا** المسيح لم يكن له أين يسند رأسه . هل أنت فقير ؟ هكذا **أيضا** المسيح افتقر من أجلنا . هل أنت مجرَّب ؟ هكذا **أيضا** المسيح تألم مجرَّبا .

لكن آلام المسيح فريدة . مع أنه هو « البار » فقد كابد آلاما لم يكابدها أحد غيره من أجل الخطايا . لأنه واضح هنا أنه تألم كنائب عنا . « البار من أجل الأثمة » .

---

(١) « تثقلون يسيرا بتجارب متنوعة » حسب الترجمة الإنجليزية .

إنه لصحيح جدا - كما قيل لنا مرارا - أن موت الرب يسوع كان له تأثير أدبى كبير على البشر ، إذ بيّن محبة الله ، وعلمنا ناموس تضحية الذات ، وبيّن مقدار حساسية المحبة الأبدية من نحو الخطية . وعلاوة على هذه الناحية السلبية لموت مخلصنا ، فهنالك أيضا ناحية إيجابية . فإنه لم يعمل فقط شيئا من نحو البشر ، إذ ليّن قلوبهم ، ووجههم ليفكروا فى حياة البذل والتضحية ، وفى أعمال البطولة ، الأمور التى لولا ذلك لجهلوها إلى الأبد ، لكنه عمل أيضا شيئا نحو إتمام نواميس الطبيعة الإلهية ، التى تؤدى إلى البر . ولو لم يكن قد تم هذا الأمر الأخير لكان الأمر الأول بلا جدوى . فلم يكن كافيا أن يعمل فى البشر ، الأمر الذى يتحدث عنه الكتاب المقدس والضمير . وبهذا فقط يمكن قبول الخطاة التائبين .

ليس ضروريا أن يفهم الناس فلسفة الكفارة لكى يخلصوا بها . لا شك فى أن هناك آلافا خلصوا بها مع أنهم كانت لهم أفكار خاطئة عن معناها الصحيح ، فى إحدى النواحى أو حتى فى كثير من النواحى . يقينا أننا نزداد تعزية ونزداد تأكيدا بنسبة ازدياد فهمنا لموت مخلصنا ، وفهمنا للكتاب المقدس فى هذا الصدد . إن خلاصنا لا يتوقف على دقة آرائنا العقلية ، بل على ثقتنا فى الرب يسوع المسيح كمخلص ، ذاك الذى بموته وقيامته « يخلّص إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله » (عب ٧ : ٢٥) .

إن صفة الموت النيابى [الكفارى] للمسيح منسوجة فى نسيج الكتاب المقدس . يمكن للناس أن يحرفوا كلام الكتاب الواضح ، لكنهم لن ينجحوا فى استئصال حقيقة موت المسيح الكفارى من صفحاته المقدسة .

لما ندرس ناموس موسى ، نجد الموت النيابى فى كل ذبيحة . فماذا كان يتضمنه أكثر من هذا حرصهم على أن تكون الذبيحة بلا عيب ، ووضع أيديهم عليها ، والاعتراف بالذنب على رأس الذبيحة البريئة ، وموت البرئ وانصراف المذنب إلى بيته حرا ؟ وأية حقيقة كان يعلنها الترديد المستمر لتلك العبارات التى نطقت بها شفتا

المخلص إذ تحدث عن نفسه بأنها « فدية عن كثيرين » ؟ (مت ٢٠ : ٢٨) . أى شيء آخر يمكن أن يفسر الحجج الرائعة والمناقشات البليغة الواردة فى رسالتى رومية وغلاطية ؟ إن كانت جماهير الشعب المسيحى تقرأ فقط الكتاب المقدس بتمعن ، بدلا من قراءة كتب كثيرة عنه لاضطروا للاعتراف بأن كل أسفار الكتاب المقدس اتحدت برأى واحد فى الشهادة بأن آلام المسيح كانت نيابية . فإنه مات من أجلنا ، أى نيابة عنا . لقد حمل إثمنا ، ولعنتنا ، والقصاص الذى كنا نستحقه . لقد قبل على نفسه القصاص الناتج عن خطية البشر ، ورفعه عنا إلى الأبد .

وإذ نصرّح بهذه التعاليم ، فلنتجنب بعض الأخطاء :

١- لنحذر من أن نصور الله بأنه لا يحب البشر إلا من أجل موت المسيح . هذا كلام غير منطقى ، كما أنه غير كتابى . لأنه من الأمور المسلم بها فى كل تفكير سليم أن الله كائن ، وأنه لم يتغير ، وأنه هو الكائن اللانهائى ، وأنه هو أمسًا ، أى فى الماضى ، وغدًا ، أى فى المستقبل ، واليوم ، أى فى الحاضر . أما لو صُوِّر موت المسيح بأنه سكّن غضب إله منتقم ، وجعله يحب الذين كانوا بغير هذا يجب أن يموتوا تحت بغضته التى لا ترحم ، فإن هذا يجعله إلها آخر ، وتكون الطبيعة الإلهية قد تغيرت ، وهذا أمر لا يقبله العقل ولا المنطق .

إن موت المسيح يرجع إلى محبة الله . فالله بذل ابنه لأنه أحب العالم . والصليب إنما يعبِّر عن محبة أقدم من أقدم النجوم ، أقدم من أقدم ما فى الكون ، طويلة كالأبدية ، متسعة كاللانهائية ، عميقة مثل كيان الله . بهذا ظهرت محبة الله أن الآب أرسل الإبن ليكون مخلص العالم .

٢- لنحذر أيضا من أن تفرق بين بر الله ومحبته . فالله لا يتعارض مع نفسه . وطبيعة الله لا توصف بأنها بر ، بل محبة . لو وُصفت بأنها بر لما وُجد

مجال للمحبة . أما وقد وُصفت بأنها محبة فالبر يكون متضمنًا بطبيعة الحال . ولا يوجد أى تعارض بين الاثنين فى الله ، لأن بره ثمرة من ثمار محبته . ينبغى أن يكون بارا لأنه محبة . هو يحب ، ولذلك فإنه ينبغى أن يضع عدلا [برا] لأنه هو ديّان كل الأرض .

كان أمرا لا يتفق مع محبته لو كان قد أغمض عينيه عن الخطية ، أو عن توقيع القصاص عليها ، أو لو كان قد سمح بأن يبطل استعمال الناموس الأدبى ، أو سمح لنا بأن نتحدى إيحاءات ضميرنا ، التى نوافق عليها حتى نحن . هل تُعتبر محبةً تلك التى تجعلنا نتساهل مع أبنائنا فنتركهم يتصرفون كما يحلو لهم دون أن نوبخهم أو نوقفهم عند حدهم ؟ هل تُعتبر محبةً تلك التى تسمح للقتل والشهوة والنهب بأن تكون لعنة لأمة ، فيها رعايا أبرار ، دون أية محاولة لتقديم الأثمة إلى المحاكمة ؟ ها تُعتبر محبةً لأى إنسان أن يُسمح له بالسير على هواه فى طريق الشرور التى لا تنتهى دون صده ؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة واضحة . فالمحبة تتضمن البر ، والإصرار على التمسك بالحق . وفى صليب المسيح لا يوجد أى تعارض بين صفات الله . « الرحمة والحق التقيا . البر والسلام تلاثما » (مز ٨٥ : ١٠) .

لكن إذا طلب منا الناس أن لا نؤمن بموت المسيح الكفارى ، لأن الله محبة ، ولذلك لا يتطلب إيفاء لمطالب عدله . فإننا نجيب بأنه يجب أن يكون عادلا لأنه هو محبة ، يجب أن يحافظ على ناموسه ، يجب أن يوقع القصاص بسبب كسر مطالب بره ، يجب أن يعمل فى دائرة الحياة الأبدية مثلما يعمل باستمرار فى دائرة الحياة الطبيعية .

٣- لنحذر من التفريق بين أقانيم الثالوث الأقدس فى عملية الفداء .
فى بعض الأحيان يتحدث البعض عن موت المسيح كأنه وقف بين الله والإنسان ، وتمم أمرا من إيحاء ضميره ، دون أى تدخل قط من الآب . وعندئذ ينشأ الاعتراض بطبيعة الحال : ولماذا جعل الله البرىء يتألم ، أو سمح بهذا ؟

لكن يجب ألا يُنسى مطلقا أن موت الصليب كان عمل كل اللاهوت . « إن الله كان فى المسيح مصالحا العالم لنفسه بيسوع المسيح » (٢ كو ٥ : ١٩) . « المسيح بروح أزلى قدّم نفسه لله » (عب ٩ : ١٤) . « الآب الحال فىّ هو يعمل الأعمال » (يو ١٤ : ١٠) . « لا يقدر الإبن أن يعمل من نفسه شيئا إلا ما ينظر الآب يعمل » (يو ٥ : ١٩) . وبالأولى جدا ، لم يكن ممكنا أن يُتمم أعظم عمل بمعزل عن الآب ، فقد كان ، وهو مستتر فى الجسد ، يعمل الأعمال التى رأى الآب يعملها .

وهكذا فى الصليب نرى الله الأبدى الأزلى يتحمل نتائج خطية الإنسان ، ويصير كفارة عن خطية العالم .

لا يمكن أن يكون هذا ظلما . إنه يُعتبر ظلما أن يُؤخذ ولد صالح ليتألم نيابة عن ولد شرير . لا يمكن أن يُعتبر ظلما إن كان أحد يضع حياته نيابة عن شخص آخر ، وإلا وجب أن تُمحى من تاريخ البشر أجلّ الأعمال وأنبلها .

نعم أيها القارئ العزيز ، يجب أن تصدق هذه الحقيقة ، وتردد هذا القول بالشكر : لقد تألم الله من أجلى فى شخص الرب يسوع المسيح ، البار من أجل الأثمة . لعلك لم تشكره قط ، ولم تنتفع ببركات موته ، كما يترك المرء رصيده يتراكم فى البنك دون المطالبة به . بل ربما تذخر لنفسك دينونة أبدية برفض محبة الله ونوره . وأنت فى نفس الوقت تختار أن تعيش فى ظلمة محبة الذات والإلحاد . ومع ذلك فحقا أن الله الأبدى - من أجل محبته العظيمة - فعل لك ما لم يفعله قط للملائكة ، وما يسعد حياتك إلى الأبد .

٤- **ولنحذر من أن نظن بأن المسيح قد كف عن أن يتألم .** صحيح بطبيعة الحال أن هنالك معنى فى القول أن مخلصنا « تألم مرة واحدة من أجل الخطايا » (ع ١٨) . إن عمل المسيح النيابى تم على الصليب ، وأكمِل نهائيا عندما قال المسيح : « قد أكمِل » . والقيامة تبرهن أن عمل الكفارة كامل .

لكن ينبغى أن لا نظن بأن آلام المسيح قد كفّت عندما صعد إلى السماء . فهو لا يزال يتألم فى كل عضو من أعضاء كنيسته . وعندما نعود لارتكاب الخطية عن عمد وإصرار فإننا نصلبه ثانية . وهو يتمخض إلى أن يأتى ملكوته . هو رقيق الإحساس بضعفاتنا . كيف يستريح إذ يرى أحباءه تعصف بهم العواصف ، وأن أعضاء جسده ليسوا كاملين بعد ؟ وعن طريق آلامه تحل علينا البركات ، لأن هذه الالام لا يمكن أن تكون عديمة الجدوى . سوف نرى كل شىء سريعا . وفى نفس الوقت ينبغى أن نشترك معه فى آلامه ، ونشرب كأسه ، لكى نشترك معه أيضا فى مجده .

نحن نقف الآن على عتبة فقرة غامضة وعسرة الفهم ، لكن الأمر صادق وواضح أن المسيح تألم من أجلنا « لكى يقربنا إلى الله » . ينبغى أن ندرك بأننا بالإيمان به صرنا واحدا معه ، ونقف معه فى حضرة الله . « صرتم قريبين بدم المسيح » (أف ٢ : ١٣) . فلنتذكر فى صلواتنا الشخصية ، أو وقت الاشتراك فى المائدة الربانية ، أنه لا شىء يقربنا إلى الله مثل تلك الآلام المباركة . وكلما أحسسنا بأننا غرباء عن الله ، أو بعيدون عنه ، فلنتقدم إلى الصليب . وإذ نجلس هناك ، فلنتأمل فى تلك الجروح إلى أن تعود إلينا تلك الشركة المفرحة مع الله ، نورنا ، ومحبتنا ، وفرحنا الجزيل ، ولله المجد إلى الأبد .

٢ : أيام نوح

« مماتا فى الجسد ولكن محيى فى الروح . الذى فيه أيضا ذهب فكرز للأرواح التى فى السجن ، إذ عصت قديما حين كانت أناة الله تنتظر مرة فى أيام نوح إذ كان الفلك يبنى الذى فيه خلص قليلون أى ثمانى أنفس بالماء . الذى مثاله يخلصنا نحن الآن أى المعمودية . لا إزالة وسخ الجسد بل سؤال ضمير صالح عن الله بقيامة يسوع المسيح . الذى هو فى يمين الله إذ قد مضى إلى السماء وملائكة وسلاطين وقوات مخضعة له » (١ بط ٣ : ١٨ - ٢٢) .

ليس حسنا أن نتعب القراء بالآراء المختلفة المتناقضة عن هذه الآيات العسرة الفهم ، والتى طال فيها النقاش . وقد يبدو ، بعد دراسة مستفيضة لها ، أن نأخذ الكلام كما هو ، ونحاول إظهار فكرة واضحة عن الرأى الذى يبدو أنه كان فى فكر الرسول ، على الأقل على قدر ما يراه كاتب هذه السطور .

إن الفكرة الرئيسية ، بطبيعة الحال ، هى مقارنة بين اختبارات ربنا يسوع المسيح واختبارات أتباعه المتألمين . لقد حاول الرسول على قدر استطاعته أن يعضدهم ويعزيهم أثناء ضغط الاضطهاد القاسى الذى كانوا يجوزونه . وكأنه قال لهم :

« تشجعوا ، لأن آلامكم ليست استثنائية ، فكل أعضاء أسرة الله يجوزونها ، ولم يُعف منها حتى ربنا المبارك . هو أيضا تألم بالجسد ، لكن آلامه لم تعطل خدمته المباركة ، بل بالحرى ضاعفت دائرة انتفاعنا بها ، فأنه « محيى فى الروح » ، الذى فيه أيضا ذهب فكرز بعمله الكامل فى الأرجاء التى وصل إليها بموته . هكذا سيكون الحال معكم ، فإن آلامكم سوف لا تقص أجنحتكم، بل تزيدكم قوة للطيران . إن الأمور الحادثة معكم الآن سوف « تؤول أكثر إلى تقدم الإنجيل » (فى ١ : ١٢) ، وبالموت سوف تصعدون إلى فوق لتشتركوا فى قيامته المجيدة وقدرته المنيعة » .

١- حقيقة تاريخية

« مماتا في الجسد ولكن محيى في الروح . الذى فيه أيضا ذهب فكرز للأرواح التى فى السجن . إذ عصت قديما حين كانت أناة الله تنتظر مرة فى أيام نوح » .

فى أحد الأصحاحات الرائعة من نبوة أشعياء نرى بأن ملك بابل ، إذ سقط أخيرا أمام ذلك الملك الأقوى منه الذى هجم عليه ، صوره النبى كشخص نحيف شاحب الوجه ، دخل مساكن الأموات . وعندما دخل ، تحرك ملوك الأمم ورؤساء الشعب ، وبأصوات منخفضة بادروه بالكلام بسخرية لاذعة : « أأنت أيضا قد ضعفت نظيرنا ، وصرت مثلنا ؟ أهذا هو الرجل الذى زلزل الأرض وزعزع الممالك ؟ » (أش ١٤ : ١٠ و ١٦) .

ويقينا أن مساكن الموتى قد تحركت بصورة أخرى عندما رفض ابن الله - إذ رحّب باللص إلى الفردوس - أن يستريح بعد صراعه الطويل وآلامه المريرة . لكنه تقدم فى الفترة الوجيزة قبيل القيامة ليذيع الأنباء العجيبة عن عمل الفداء الذى تممه .

هذا يقينا هو التعليم القوى الذى تحمله لنا ، ليس فقط هذه الآيات ، بل أيضا ذلك التصريح العجيب الذى نادى به بولس الرسول فى رسالته إلى أهل أفسس « إنه نزل إلى أقسام الأرض السفلى » (أف ٤ : ٩) . هذا تعبير كان يستخدمه اليهود

باستمرار عن الهاوية السفلية ، مسكن نفوس الموتى . بناء على هذه الشهادة ، أكدت الكنيسة فى كل الأجيال « أنه نزل إلى الجحيم » . وكلمة « الجحيم » طالما ذُكرت فى الكتاب المقدس لتعبّر عن « الهاوية » . نحن لا نعلم كل ما تضمنته رسالة المسيح هناك . فالكتاب لم يعلنها ، وكل تخمين لنا يقصر عن الحقيقة . وكل الذى نحتاج أن نلاحظه هو أن الكلمة التى استخدمت لتعبر عن خدمته قد اختيرت بدقة ، وتعبر عنه كرسول ، لا كمبشر [إنجيلى] .

قد يوجَّه السؤال : لماذا كرز فقط للذين عصوا فى أيام نوح ؟ لماذا حصر رسالته فى هؤلاء ؟ ألم يكن هناك عدد أوفر جدا ممن عصوا فى حقبات أخرى فى العالم ؟ إن الرب لم يستثن أى واحد من هؤلاء . فالرسول لم يقل إن الرب لم يكرز لأحد آخر ، بل إنه بالتأكيد كرز لأولئك . ولقد لفت نظرنا لهم لأنه قصد أن يوجه تفكيرنا إلى مقارنة كانت فى فكره ، وهى تعكس ظلالها على كلماته ، وتستمد دروسا من أيام نوح وتنقلها إلى أيامنا .

كل الذى يعنينا هو التأمل فى هذه الكلمات التى نقلها إلينا الرسول بطرس من أقوال المسيح الباقية بعد موته ، عندما علمهم أربعين يوما « وهو يتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله » (أع ١ : ٣) . يجب أن نفهم بوضوح أن خدمة المسيح لم تتوقف عند موته ، لكنه ظل يخدم ، كما أن يوسف عندما توقف عن تأدية واجباته فى بيت فوطيفار ظل يخدم زملاءه فى السجن ، فأعلن للواحد نبأ نجاته من السجن ، وأعلن للآخر المصير المحتوم الذى كان ينتظره .

٢- اعــتراف

يبدو أن قصة الطوفان كان لها تأثير قوى على عقل وقلب الرسول بطرس ، فقد كررها مرارا (٢ بط ٢ : ٥ ، ٣ : ٥ و ٦) . وهنا نراه يقتفى آثار معلمه الذى قارن بين أيام نوح وأيام ابن الإنسان .

لا داعى لإطالة التأمل بالتفصيل فى الأيام السابقة للطوفان ، أو فى **حالة العالم القديم** . فحالته تشبه تماما حالة العالم فى أيامنا . « كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون » (لو ١٧ : ٢٧) . وصلت الفنون والعلوم والهندسة والعمارة إلى درجة سامية جدا ، وإلا لكان مستحيلا بناء فلك عجيب كالذى بُنىَ . ازدادت المدنية جدا ، وفى نفس الوقت ازدادت الجرائم البشعة غير العادية . اشتد التلهف على الملذات ، والسعى وراء الثروة ، والتمادى فى الشر ، وعدم المبالاة بمطالب الله ، وارتفع التيار الجارف ، تيار الدنس والنجاسة ، رغم احتجاجات وتوسلات نوح مدة مائة سنة . وهذا كله هو ما نراه حولنا اليوم بكيفية مفزعة .

كذلك لا داعى لإطالة التأمل فى **العالم الجديد** الذى خرج إليه نوح وبنوه من الفلك . كان الهواء منعشا ، والأرض اكتست بحلة سندسية خضراء ، والنباتات نمت بكيفية مفرحة ، لأن الأرض صارت غنية بالطمى الذى ترسّب بعد أن نشفت المياه . كان عالما تطهّر من الخطية والجرائم والشر ، وبدت الخليقة كأنها رأت مقدما ما رآه الرائى : « ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فى ما بعد » (رؤ ٢١ : ١) .

ويقينا أن ذلك العالم القديم يرمز إلى الحياة القديمة التى ولدنا فيها ولادة طبيعية ، والعالم الجديد يرمز إلى الحياة الجديدة التى دخلناها بعد الولادة الجديدة . ومياه الطوفان التى اجتاز بها نوح من العالم القديم إلى العالم الجديد ، رافعة إياه إلى فوق ، فى أحضانها المتسعة المنتفخة ، لتنقله من الشر والمناظر القبيحة إلى عالم جديد مبهج ، ترمز إلى الاختبارات المباركة التى طالما تحدثَت عنها الرسائل ، عندما ينتقل المؤمنون بالإيمان بيسوع المسيح من حياة محبة الذات والموت إلى حياة القيامة المجيدة المباركة ، عندما يجلسون مع المسيح فى السماويات ، عندما يحسبون أنفسهم أمواتا عن الخطية ولكن أحياء مع الله ، مشتركين مع المسيح فى موته وقيامته . عندئذ يمكن أن يقال عنهم إنهم يكررون اختبارات نوح عندما اجتاز من العالم القديم إلى العالم الجديد .

وعلى مثال هذا الاختبار الروحى تقيم الكنيسة طقس المعمودية بالتغطيس فى الماء . وإذ يعترف المعمَّدون بأنهم انتقلوا من حياة الخطية القديمة إلى حياة جديدة ، حياة الشركة مع المسيح المقام ، فإنهم قد دُفنوا تحت الماء على مثال موته ، ورُفعوا فوق الماء على مثال قيامته . وماء المعمودية يشبه مياه الطوفان ، ففى كليهما تم الانتقال من الحياة القديمة إلى الحياة الجديدة ، كما كان قبر المسيح مكان انتقال من حياة الجسد إلى حياة القيامة . « إن كنا قد عرفنا المسيح حسب الجسد لكن الآن لا نعرفه بعد . إذن إن كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة . الأشياء العتيقة قد مضت . هو ذا الكل قد صار جديدا » (٢ كو ٥ : ١٦ و ١٧) .

٣- تشبيه

رأينا الآن ثلاث حقائق : [أولا] أن آلام المسيح لم تعطل مناداته بعمله الذى أكمله ، [ثانيا] وأذاعه للأرواح التى عصت أيام نوح ، [ثالثا] أننا نشبه نوح ، ونشبه المسيح إذ جزنا مياه الموت ، لا موت الجسد ، بل موت الروح ، إلى سعادتها الأولى ، لأنها دخلت بالتمام إلى معنى موت المسيح ، وإلى الشركة معه فى الحياة الجديدة .

ثم ماذا ؟ طالما كنا قد دخلنا إلى هذه الحياة الجديدة المباركة ، أيليق بأن لا نبالى بالذين لا يزالون يعيشون فى العالم القديم الذى تركناه وراء ظهورنا ؟ كلا ، هذا لا يمكن أن يكون . إن الأمثلة التى تأملنا فيها الآن تستبعد فكرة كهذه ، وتبعدها عن تأملاتنا الهادئة . فى نور هذه الأمثلة لا يمكن احتمال فكرة كهذه لحظة واحدة .

طبيعى إنه كان يمكن أن يكون هذا التشبيه كاملا لو أمكن أن يقال أن نوح بعد الطوفان استمر فى الكرازة لإخوته السابقين . لكن هذا لم يكن ممكنا أن يحدث . ومع ذلك فقد تم نفس القصد ، ولو مع تغيير الشخص الكارز . لأن يسوع ، الذى كان الطوفان يرمز إلى موته ودفنه ، والذى كان نوح يرمز إليه ، والذى تمثلنا نحن بموته ، ذهب إلى نفس هذه الأرواح ، وتكلم إليهم . كان هذا يماثل ذهاب نوح إليهم ، بل كان أفضل . يقينا إن روح خدمة نوح تحققت بالكامل فى ذاك الذى كان يرمز إليه .

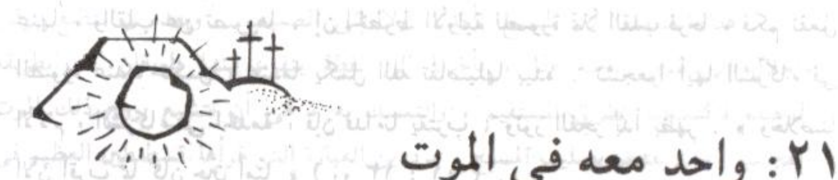
إذن فإننى أعتقد بأن فحوى هذه الآيات هو أن يتبين بأنه يليق بنا أن نذيع أنباء الصليب لأصدقائنا القدماء ، وزملائنا فى حياتنا الأولى ، كأننا نرجع إليهم عابرين مياه فيضان الموت ، لا لنعيش ثانية فى العالم الذى هجرناه ، بل لننادى بأخبار الخلاص السارة .

نعم ، حتى اضطهادهم لنا ينبغى أن لا يعطل جهودنا التى يجب أن نبذلها لخلاصهم . والواقع إننا قد نكتشف بأن نفس آلامنا ستفك عقال ألسنتنا ، وتوسع الفرص التى نبذلها معهم . إذا ما طُرحنا فى السجن ، وضُبطت أرجلنا فى المقطرة ، فإننا نقدر أن نترنم فيسمع المسجونون (أع ١٦ : ٢٤ و ٢٥) . وإذا ما وُجدنا فى بيت قيصر فإن وُثقنا من أجل المسيح تكون ظاهرة فى كل دار الولاية (فى ١ : ١٣) . وفى استشهادنا تكون النار التى نُحرق فيها منيرة للعالم ، ولن تُطفأ .

إن طوفان نوح يدفعنا لكى نتأمل ليس فقط فى ذلك الموت الرمزى ، وهو الموضوع الذى يدور حوله الأصحاح السادس من رسالة رومية ، وهذه الآيات أيضا ، بل فى الموت الجسدى الذى كان ينبغى أن يواجهه أولئك المؤمنون كشهداء ، والذى ينبغى أن نواجهه نحن أيضا إن لم يأت الرب أولا . ومهما أتى الموت إلى المؤمن فى أية صورة ، سواء فى تصرفات إنكار الذات كل يوم ، أو فى نبذ بعض أنواع الشر ، أو فى انحلال هذا الجسد الطبيعى ، فإنه يجب أن يقابَل بهدوء وبفرح ، لأنه تعقبه القيامة .

بالموت نحن نتبع خطوات ربنا المبارك التى تقودنا إلى المراعى الخضراء العلوية عن طريق وادى ظل الموت . فلنثبّت أنظارنا دواما فى قيامته ، التى ترمز لقيامتنا نحن أيضا ، حيث يجلس عن يمين الله . « إذ قد مضى إلى السماء وملائكة وسلاطين وقوات مخضعة له » (ع ٢٢) . ونحن سوف نشترك فى قدرته بقدر ما نكون راغبين فى الاشتراك فى موته .





٢١ : واحد معه فى الموت

« فإذ قد تألم المسيح لأجلنا بالجسد تسلحوا أنتم أيضا بهذه النية . فإن من تألم فى الجسد كف عن الخطية . لكى لا يعيش أيضا الزمان الباقى فى الجسد لشهوات الناس بل لإرادة الله » (١ بط ٤ : ١ و ٢) .

« الزمان الباقى [١] فى الجسد » . من منا يستطيع أن يقول كم بقى له من الزمان فى هذا العالم ؟ قد يكون أقصر للبعض مما يظنون . وعلى أى حال هو - بمعنى ما - قصير للجميع . زمان الحياة يمر بسرعة . وظلال شمس الحياة مسرعة إلى الزوال . كانت هذه الأفكار تملأ عقل الرسول بطرس ، فقد قال فى رسالته الثانية : « خلع مسكنى قريب » (٢ بط ١ : ١٤) .

لا يجد المؤمن فى هذه الأفكار ما يحزنه . فكل علامة فى الطريق تعلن له بأن الوطن قد ازداد اقترابا . والمسافر فى عرض البحر يحصى عدد الأيام ، بل الساعات ، التى تقربه إلى زوجته وأولاده . أمامنا تنتظر دهور الأبدية . أصغ إلى صوت أمواجها ، فالأذن المدربة تلتقط أنغام الموسيقى العذبة يحملها نسيم الليل العليل . والأجيال مليئة بالبركات الشخصية والخدمة السعيدة التى يعجز اللسان عن التعبير

(١) « زمانه الباقى » حسب ترجمة اليسوعيين والترجمة الإنجليزية .

عنها ، والقلب عن تصورها . إن الخطوط الأولية للصورة تملأ القلب فرحا ، فكم تفعل الصورة عندما تكمل ، عندما يكمل الله تفاصيلها بيده . تشجعوا أيها الشركاء فى الآلام ، الشركاء فى الخدمة ، فإن فداءنا يقترب . ونور الفجر بدأ يظهر . « وخلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنّا » (رو ١٣ : ١١) .

لكن مستقبلنا السعيد ينبغى أن لا يحوّل تفكيرنا عن الواجبات اللازم إتمامها فى « الزمان الباقى فى الجسد » . ينبغى أن لا نكون من ذوى الأحلام والخيال ، بل لنكن أبطالا . ينبغى أن نملأ أيامنا القصيرة بجهود جبارة ، كالخيّاطة المجهَدَة الكادحة التى تسرع بنشاط مضاعف لإنهاء خياطة الثوب الذى تعمل فيه بأصابع متقرحة لأن الشمعة الوحيدة التى تمتلكها كادت تنطفىء . لذلك نجد فى الآيات صوتا يدعو إلى الحرب ، ويقول : إلى السلاح ، إلى السلاح ، « تسلحوا أنتم أيضا بهذه النية [1] » (ع ١) . وعندما نتساءل ما هى « هذه النية » يقول لنا الرسول إننا ينبغى أن نتسلح بالنية التى دفعت يسوع إلى الموت .

فى كنيسة وقورة قديمة فى إنسْبروك Innsbruck المشهورة بوجود قبر الامبراطور العظيم مكسيميليان (Maximilian) فيها ، يوجد تمثال ضخم برونزى للقائد جودفرى الذى من بولونيا Godfrey of Boulogne ذي الشخصية البارزة . وقد غُطيت رأسه بخوذة يعلوها إكليل من الشوك . طبيعى أن الفنان كان له قصد آخر غير الفكرة التى نفسر نحن بها الآن هذا العمل . لا شك فى أنه قصد أن يصور السبب المقدس الذى من أجله كُللت هذه الخوذة بإكليل الشوك . ونحن نستطيع أن نكتشف رمزا مناسبا من تعليم الرسول بطرس الذى يجمع فى هذه الأعداد بين سلاح الجندى المسيحى وبين تذكر آلام المسيح بالجسد .

(١) « بهذا العزم » حسب ترجمة اليسوعيين ، « بهذا الفكر » حسب الترجمة الإنجليزية .

هذا الشاهد لآلام المسيح يأخذنا أولاً إلى الصليب . وبعد أن نتطلع بوقار وإجلال إلى منظر المحبة هذا ، يأخذنا إلى نقطة يتفرع منها طريقان . والطريقة الوحيدة لاكتشاف الطريق المستقيم ، والتمسك به ، هى أن نتشبع بروح ذلك الموت العجيب ، وأن نفتخر بصليب المسيح ، مرددين العبارة التى قرأها قسطنطين العظيم فى رؤياه : « بهذه العلامة [أى بعلامة الصليب] تغلب » . وبهذا « لا نعيش بعد الزمان الباقى فى الجسد لشهوات الناس بل لإرادة الله » (ع ٢) .

١- طريقان متباعدان

١- فى الجانب الواحد طريق واسع ، داسته أقدام كثيرة ، هو طريق انغماس الجسد فى الشهوة : « شهوات الناس » . الشهوة هى شهية منحرفة . لا ضرر فى أية شهوة طبيعية فى حد ذاتها . فكل شهوة غُرست فينا لمقاصد حكيمة ضرورية . الإنسان آلة ميكانيكية آلية ، وهو يجب أن يتذكر ليس فقط الواجبات الضرورية عند الإنذار بالخطر ، بل هو يُدفع لإتمامها بدافع الشهوات الجائعة من ناحية ، وبجاذبية الشهوات الشبعانة من الناحية الأخرى .

لكن الشهوة فسدت عند سقوط الإنسان . فاختلّت حركاتها ، ولذلك أصبحت الآن لا تعمل كما قصد الله لها عندما خلق الإنسان ، وأعلن بأن طبيعته « حسنة جدا » . عندما سقط الإنسان انحل رباط الشهوة من قبضة الإرادة الضعيفة ، وبدأت تطلب إشباعها ، دون مراعاة للاستخدام الضرورى ، والروابط الشرعية التى قصدتها لها محبة الخالق وحكمته . وهكذا فى كل الأجيال عاملت شهوات الإنسان الطبيعية إرادة الله السامية كما كان يعامل أشراف العصور المتوسطة ملوكهم الذين تجاهلوهم واتبعوا طرقهم المنحرفة غير الشرعية .

وقد ظهر ضرر هذا التمرد فى إباحية الجسد التى أثرت على التفكير ، فسار العقل والقلب تحت قيادة الجسد نحو الانغماس فى الشهوات غير الطبيعية المتطرفة ، وهكذا تمم الناس « مشيئات الجسد والأفكار » (أف ٢ : ٣) .

هذه العادات تسلمناها من الأجيال التى سبقتنا . فلقد وُلد كل واحد منا فى العالم خاضعا لتصرف الشهوات ، التى لم تعد بعد فى حالة الطهارة والقداسة التى خلقتها يد الخالق ، بل انحرفت بشدة نحو التصرفات الدنسة المتمردة . وإذا ما أطعنا إيحاءاتها ، كما يفعل الكثيرون ، صرنا لها عبيدا ، وانحدرنا نحو مستوى البهائم ، التى لا تعرف لها ناموسا غير ناموس الشهوة ، وجلبنا على أنفسنا غضب الله (أف ٢ : ٣) .

والذى نحتاج إليه الآن ليس هو استئصال هذه الشهوات ، بل ضبطها ، استخدامها فقط فى الأغراض النافعة ، ومنعها من أن تشبع ذاتها بكل هذه الشرور التى أصبحت طبيعة ثانية لها . لا يمكن قط فى هذه الحياة أن تفقد الشهوات قدرتها على أن ترغب فى إشباعها بما هو دنس . لكن هذه الرغبات إذ تمر فى كياننا محدثة هزة وقتية لبرهة وجيزة ، وتفشل فى أن تجذب الإرادة أو تتسلط عليها ، فإنها لا تصير بالضرورة خطايا . وواضح جدا أنه من الممكن أن نعيش فى الجسد ، الحساس جدا والسريع التأثر بالإيحاءات الشريرة ، ومع ذلك لا نتمم مطالبه فى أتفه ناحية بعيدا عن حدود إرادة الله وناموسه .

هذا هو ما يعدنا به الإنجيل . إنه لا يعدنا بالحرمان من أى جزء من طبيعتنا ، ولا بعدم الإحساس مطلقا بجاذبية الخطية ، وبميل الجسد للاستجابة لها ، ولا أن نصل إلى حالة يستحيل معها أن نخطئ . لكنه يعدنا بنقض الاتفاقية الدنسة بين الجسد والروح ، بحيث أنه مهما كانت رغبات الجسد العابرة نحو إشباعها بالدنس ، فإن الطبيعة الأدبية ، أى الإرادة ، أو شخصية الإنسان السامية ، لا تقبلها ، ولا تفتح لها الباب .

٢- وفى الجانب الآخر « إرادة الله » ، ويا له من فرق شاسع بينها وبين مشيئة الجسد . لقد جاء يسوع إلى الأرض ليعمل مشيئة الله . وهذه كانت طعامه كما قال (يو ٤ : ٣٤) . هى عمود السحاب والنار الذى ينير لنا الطريق ، والنير

الذى نجد راحة فى حمله ، والأوريم والتميم الذى يصير معتما أو منيرا حسب إرشاد السماء . لا يوجد طريق أكثر أمانا أو بركة من أن نعيش حسب إرادة الله . إن إرادة الله هى الإرادة الصالحة . حيثما كانت إرادة الله المرشدة لنا فى البرية ، أينعت فى طريقنا الزهور وتفجرت المياه من الصخور . فى بعض الأحيان يتمرد الجسد عليها ، لأنها تتطلب الصليب وإنكار الذات . لكن تحت القشرة الخشنة توجد النواة الحلوة ولا يعرف أحد فرح الحياة وسعادتها إلا الذين رفضوا السير فى طريق شهوات الناس الواسع السهل ، لكى يصعدوا إلى فوق فى طريق إتمام إرادة الله من القلب .

٢- سر وقوة إنكار الذات

ليس من السهل رفض ذلك الطريق الواسع السهل . فالسلوك فيه لا يتطلب أى مجهود . والحياة تميل إلى الانحدار بسهولة وبلذة فى سفح جبله المشوق . والعالم كله يقدم مباهجه وإغراءاته الخلابة . فما هو السر الذى يجعل المرء يرفض نوازعه الداخلية ، ويصم أذنيه عن إغراءات العالم ، ويصعد الجبل الشديد الانحدار ، وهَبْ أنه توفرت لديه الرغبة فى المقاومة ، فأية قوة تكفى لتمكّنه من مقاومة التيار ؟

الإجابة نجدها فى صلب ربنا المبارك . « المسيح تألم بالجسد » . « إن التأمل العميق فى موته يقتل بقوة واقتدار محبة الخطية المتسلطة على النفس ، ويخلق فيها بغضة شديدة للخطية . والمؤمن إذ يتطلع إلى يسوع المصلوب من أجله ، والمجروح لأجل معاصيه ، ويفكر تفكيرا عميقا فى براءته المطلقة التى لم تكن تستحق شيئا من هذه الآلام ، وفى محبته الفريدة ، التى احتملت هذه كلها من أجله ، فإنه بطبيعة الحال يناجى نفسه قائلا : هل يليق بأن أحب الخطية التى دفعته إلى الموت ؟ هل يليق بأن تكون الخطية حلوة لى مع أنها كانت مُرّة له من أجلى ؟ هل يليق بأن أنظر إليها نظرة طيبة ، أو أفكر تفكيرا طيبا فيما تسبب فى سفك دماء ربى ؟ هل يليق بأن أعيش فى الخطية التى مات هو من أجلها ، والتى مات لكى يقتلها فىّ ؟ يا رب لا تسمح بهذا » .

كل هذا صحيح ، ومع ذلك فهنالك حقيقة تنطوى تحته . يجب أن لا ننسى بأن المسيح مات « فى شبه جسد الخطية » . إنه لم يمت فقط من أجل الخطية ، بل « لكى يدين الخطية فى الجسد » (رو ٨ : ٣) . بموته حصل فاصل كامل بين الحياة التى كان يحياها فى احتكاكه مع الخطية والخطاة ، مع أنه كان هو نفسه بلا خطية ، والحياة التى يحياها الآن فى المجد . وحيث أن الله ينظر إلينا على أساس أننا متنا معه بموته ، وقمنا معه بقيامته ، فنحن كذلك ينبغى أن نحسب أنفسنا بأننا انتقلنا من الحياة التى كان الجسد يتسلط فيها ، إلى الحياة التى مات فيها الجسد ولم يعد له أى تسلط عليها . « لأن الموت الذى ماته قد ماته للخطية مرة واحدة ، والحياة التى يحياها فيحياها لله . كذلك أنتم أيضا احسبوا أنفسكم أمواتا عن الخطية ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا » (رو ٦ : ١٠ و ١١) .

ينبغى أن نثبت راسخين أمام إغراءات وإيحاءات الجسد . ينبغى أن نقابل كل إيحاءات الشهوة بعدم الاكتراث ، وبصمت الموت . ينبغى أن نقول لهذه كلها : ليس لى شأن بك . ولا أعرفك .

وهكذا عندما تثور الرغبات القوية فى الجسد ، وتحاول أن ترسل إلى القلب وإلى الإرادة أفكارا شريرة وشهوات شريرة ، فإنها تجد الباب محكم الإغلاق فى وجهها ، ولا تجد منفذا للدخول لنشر سمومها . مهما كان للجسد من رغبات فإن القلب المطهّر لا يخضع لها . وهكذا يُصلب الجسد ويُمات مع أهوائه وشهواته ، ويُحفظ الضمير بلا عثرة .

هذه القوة ، التى ترفض الاستجابة لإيحاءات الجسد النجسة ، مباركة جدا . لكنها ليست من إنسان ، ولا يمكن الحصول عليها بالعزم الأكيد أو السعى الحميد . هى قوة الله فى الإنسان ، حياة يسوع المقام من الأموات ، نعمة الروح القدس ، الذى يحارب ضد الجسد حتى نفعل ما لا نريد (غل ٥ : ١٧) .

اذكر بأنك ، فى نظر الله ، قد مت لأنك واحد مع المسيح . فصمم على اختيار هذا الموت الآن وإلى الأبد كنصيبك وقرعتك . ثم اطلب من الروح القدس أن يعينك على تنفيذ حكم الموت كل يوم وكل ساعة . فتجد أنه ، وإن كان الجسد لا يزال حيا ، فليس له سلطان عليك ، حتى تظن بأن طبيعته قد تغيرت . لكن هذا الظن فكرة خاطئة ، فالجسد لا تتغير طبيعته ، وإن تهاونتَ لحظة واحدة فى شركتك مع الروح القدس عادت إليك العادات القديمة المميتة ، وإن لم تقاومها حاربتك بقوة أشد من قوتها السابقة .

٣- وصية قوية

« تسلحوا أنتم أيضا بهذه النية » تشبعوا بروح موت المسيح إلى أن تختبروا أنتم أيضا هذا الموت ، وتموتوا للجسد كما مات المسيح للجسد ، وهذا يتم بالتأمل المستديم فى جراحات المسيح . وفى كل مرة ترفضون إيحاءات الذات فإنكم تزدادون فهما لمعنى موت المسيح وقيامته .

فلنلبس هذه القطعة من السلاح السماوى . إن الأمر يحتاج إلى العزيمة القوية ، لأن الصدمة الأولى فى القتال تكون شديدة الأثر . لكن النصرة مضمونة وأكيدة . ومع أن التجربة لا تكف فإن الخضوع لها يكف . والخضوع خطية . « لأن الذى مات قد تبرأ من الخطية » (رو ٦ : ٧) . وبمرور الوقت ، إذ تكون الشهوات الجسدية قد أخضعت طويلا ، فإن ضغطها يضعف ، وتقل متاعبها ، كأنها قد تعبت من تكرار الهزيمة .

أتريد إذن المزيد من القوة ضد الخطية ، والمزيد من القداسة ؟ فليكن لك المزيد من التطلع إلى المسيح ، ركّز تفكيرك فيه ، واستمر فى أن تكون معه . عندما تظن بأن الخطية توشك أن تغلبك اذهب إليه ، وحدثه عن هجوم الأعداء ، وعن عدم مقدرتك على المقاومة ، واطلب منه أن يخضعهم ، لكى لا ينالوا منك شيئا بهجومهم سوى أن يحدثوا جرحا جديدا .

إن بدأ قلبك يشتهى الخطية ، فسلمه للرب ، وعندئذ تجد أن أشعة محبته قد أطفأت نيران تلك الشهوات الدنسة .

إن أردت أن يقتل كبرياؤك وشهواتك ومحبة العالم ، فاذهب والتمس فضيلة موته ، فيكون لك ما تريد . اطلب الروح القدس ، روح الوداعة ، والتواضع ، والمحبة الإلهية . تطلع إليه ، فيجذب قلبك إلى السماء ، ويتحده بشخصه ، ويجعله متشبها به . أليس هذا هو ما تبتغيه ؟



٢٢ : نَفَس الأبدية

« لأن زمان الحياة الذى مضى يكفينا لنكون قد عملنا إرادة الأمم سالكين فى الدعارة والشهوات وإدمان الخمر والبطر والمنادمات وعبادة الأوثان المحرمة . الأمر الذى فيه يستغربون أنكم لستم تركضون معهم إلى فيض هذه الخلاعة عينها مجدفين . الذين سوف يعطون حسابا للذى هو على استعداد أن يدين الأحياء والأموات . فإنه لأجل هذا بَشَّر الموتى أيضا لكى يدانوا حسب الناس بالجسد ولكن ليحيوا حسب الله بالروح » .

« وإنما نهاية كل شىء قد اقتربت . فتعقلوا واصحوا للصلوات » (١ بط ٤ : ٣ - ٧) .

هنالك فرق شاسع بين المؤمنين فى العصر الرسولى وبينهم فى عصرنا . وهذا الفرق لا يتضح فى التعاليم التى اعتقدوها ، أو فى عبادتهم للرب يسوع ، بقدر ما يتضح فى اختلاف وجهة النظر نحو المستقبل العظيم .

كانت وجهة نظرهم أن الأبدية قد بدأت فعلا منذ اللحظة التى قبلوا فيها المسيح فى قلوبهم . وكونهم فى الجسد لم يعطلهم عن أن يدركوا الوحدة القائمة بينهم وبين ربهم المقام من الأموات . كانت هذه الوحدة متينة لدرجة أنهم أين كان المسيح فهنالك كانوا هم أيضا . وموته قطعهم من العالم الذى صلبه . وقبره كان حاجزا منيعا بينهم وبين طرق المجتمع البشرى الذى رفضه ولم يقبله . ولقد اشتركوا فى قيامته وفى صعوده . حيث كان كنزهم هناك كان قلبهم أيضا . فيه صاروا فعلا مواطنين للعالم الذى هو ملك عليه ، جالسا فى السماوات . صحيح أنهم كانوا مقيمين فى العالم ليتمموا مهمتهم الضرورية وفق مشيئة الله ، ويتعلموا دروسا لا يمكن تعلمها إلا تحت ظروف حياتنا الأرضية الفانية ، ويعملوا على تطهير الشرور المحيطة . لكن هذا لم يتعارض مع إقامتهم بالروح فى وطنهم الحقيقى وراحتهم الحقيقية ، معترفين بأنهم « غرباء ونزلاء على الأرض » .

يحس المسافر بحرا باقتراب بلاده من نسيمها الذى يهب فى وجهه ، ناقلا إليه أصوات وروائح الغابات ، أو البرارى ، أو الجبال المكتسية بالنباتات . هكذا ، عن طريق هذه الرسائل ، نحن نتنسم جوا يختلف عن جو مجتمعنا المسيحى الحديث . فنحن نعيش فى العالم وفى نفس الوقت نزور بأرواحنا ، من وقت لآخر ، العالم الأبدى غير المنظور ، أما قدماء المسيحيين فقد كانوا يعيشون فى العالم الأبدى غير المنظور ، ومن وقت لآخر ، يقومون بزيارات ضرورية منتظمة لهذا العالم . نحن نشاكل العالم ، أما هم فقد تغيروا عن شكلهم بتجديد أذهانهم (رو ١٢ : ٢) . نحن نقرأ صحف المجتمع ، ونتحدث أحاديث المجتمع ، ونرسل بنينا إلى المجتمع ، ونحاول أن نقلد المجتمع المحيط بنا فى ملابسنا وفى تصرفاتنا ، أما هم فقد نظر إليهم العالم كشاذين ومهزأين ، لأنهم كانوا يعيشون بين الناس « كأبناء القيامة » (لو ٢٠ : ٣٦) . يقينا أن المقارنة ليست فى مصلحتنا رغم أننا نفاخر بتفوقنا المزعوم .

فى هذه الآيات التى أمامنا الآن ، نجد علامات كثيرة عن وجهة النظر هذه . إن فترة حياتنا المحدودة ، بالمقارنة مع الأبدية غير المحدودة ، والإشارة إلى ذلك المستعد

أن يدين ، كأن العرش الأبيض العظيم قد انتصب فى كبد السماء ، واصطف الناس أمامه استعدادا للدينونة ، والصوت الصارخ من الملاك الآخر المعلن بأن « نهاية كل شيء قد اقتربت » - هذه كلها تبين حالة الرسول النفسية . فقد وقف فى نور الأبدية ، وهَبَّ نسيمها فى وجهه ، وملأ روحها قلبه . وتحت تأثير كل هذه الحقائق الخالدة قدّم النصيحة للذين خاطبهم ، كغرباء ونزلاء ، أن يمتنعوا عن الشهوات الجسدية . وهل كان ممكنا أن يستخدم باعثا أقوى ؟

١- قائمة سوداء

« الدعارة ، الشهوات ، إدمان الخمر ، البطر ، المنادمات ، عبادة الأوثان المحرمة [(١)] » هذه صورة سوداء تذكرنا بما ورد فى (١ كو ٦ : ٩ - ١١) . لكن هذا تصوير أمين لحالة العالم ، رغم التعاليم الفلسفية والأدبية الرفيعة . يستطيع القارئون العاديون أن يكوّنوا فكرة دقيقة عن الشرور الشنيعة التى سادت العالم وقت مجيء المخلص . وإن لغة البشر السقيمة التى يدوّنون بها تاريخ الأجيال هى التى تحجب عنا مقدار ما وصلت إليه تلك الشرور . ويكفى القول أن محاولات أفلاطون التى تضمنت أسمى الآراء عن الوثنية تعيبها المناقشات التى بلا حياء ، ومصادقته على الخطايا التى تشجبها المحاكم فى كل البلاد المسيحية . إذن فهناك الكثير جدا مما يؤيد هذه الصورة عن حالة المجتمع وقتئذ . ولعل نجاستها الشنيعة كان لها تأثير قوى على مسيحيّى ذلك العصر لكى يخرجوا ويعتزلوا . إن اللعنة التى لُعن بها عصرنا هى أن الشيطان قد زيّف مسيحيتنا كثيرا ، وسعى لكى يدارى المدنية النجسة تحت ستار اصطلاحات مسيحية .

لا حاجة لنا أن نطيل الشرح فى قائمة الشرور المختلفة . غير أننا نلاحظ أن إدمان الخمر مقترن بعبادة الأوثان الرجسة البغيضة . ونحن نعتقد أن أى شرب للخمر

(١) « الرجسة » حسب ترجمة اليسوعيين ، « البغيضة » حسب الترجمة الإنجليزية .

لا يعتبر إدمانا إذا أخذ لأسباب صحية ووصفه الطبيب . وحتى فى هذه الحالة كثيرا ما كان شربه مخطئا . ونود بالحرى أن نلفت النظر إلى التعبير القوى المستخدم لوصف هذه الخطايا عندما دعاها الرسول « فيض الخلاعة » [1] .

يتعذب الناس عندما يعطشون . وقد قصد بهذا العطش أن يدفعهم إلى نهر ماء الحياة ، الخارج من عرش الله (رؤ ٢٢ : ١) . لكنهم إذ يرفضون هذا النهر ، فإنهم يلجأون إلى مستنقعات الصحراء ، التى ترفض حتى البهائم الشرب منها . إن صالات الرقص ، وخُلوات القمار ، والكازينات ، وبيوت العاهرات ، والأماكن المخجلة ، هى المستنقعات التى يحاول الناس أن يطفئوا منها ظمأهم ، الذى لا يرويه إلا الله الحى . آه ، متى يدركون ضلالاتهم المميتة ؟ وبأية طريقة يمكن إنذارهم ؟ ألا يمكننا الحصول على جرعة واحدة من مياه العرش ونضعها فى حلقهم المعذب ، لكى يبغضوا كل منعش آخر ؟ « أيها العطاش جميعا هلموا إلى المياه » (أش ٥٥ : ١) .

أما عن التلف ، فما أروع القصص التى ترويها كل الصحف عن التلف الناشىء عن المنكبين على الخطية . تلف الأملاك ، والثروة ، والصحة ، والسعادة ، والسمعة ، ومقدرتنا على نفع الآخرين . تعسة هى الأجساد التى تئن الأرواح تحت ثقل فسادها . وتعسة هى الحياة التى تشبه السفينة الحربية القديمة التى تغادر الميناء مبتهجة اليوم ، لكنها تتحطم فى الصخور غدا ، ثم تنزل إلى عمق المياه . وتعسة هى النفوس التى بلا إله ، وبلا رجاء ، وبلا محبة ، وبدون أى أثر من عنصرها السامى . ليت حمل الله الجالس وسط عرش الله ، يكشف عن آلامه إذ لا تزال الخطية تُحدث مثل هذا التلف وسط الذين أحبهم محبة أبدية .

يستغرب أهل العالم لأننا لا نركض معهم إلى فيض هذه الخلاعة . إنهم يعرفون ما نرفضه نحن ، لكنهم لا يعرفون ما نقبله . إنهم يروننا نطوّح بالمياه العفنة ، لكنهم لا

(١) « مستنقعات الخطية المؤدية إلى الهلاك » حسب النص اليونانى الأصلى .

يروننا نشرب جرعات كبيرة من مياه الحياة الأبدية . إنهم لا يقدرون أن يدركوا بأن ما حصلنا عليه من المسيح يجعل كل شيء آخر ماسخا وبلا طعم . لو علموا لأدركوا بأن تصرفاتهم هم هي المُستغرَبة ، لا تصرفاتنا نحن . لأننا إذ نرى ما ينقصهم ، ونرى شناعة حياتهم ، وكيف أن مسراتهم ممتزجة بالأكدار ، فإننا كثيرا ما نستغرب لأنهم يفضلون الخرنوب على الخبز ، والزجاج على الجواهر ، ومارة على ايليم (خر ١٥ : ٢٣ - ٢٧) .

إن أي وقت يُصرف في شهوات الجسد وقت طويل جدا . لذلك « يكفيكم زمان الحياة الذي مضى » . يا للتأسفات المريرة في النفس التي تخلص عندما تتذكر الخطايا الماضية . أي شيء لا تدفعه لو أمكنها أن تمحو الماضي لكي تنظر إليه صفحة بيضاء ؟ لكن هذا لا يمكن أن يحدث . إن تعزيتنا الوحيدة هي أن من قال إن وقت السهر قد مضى ، يقول أيضا إنه لا تزال هناك فرصة لإصلاح الماضي ، ويَعِد بأن « يعوّض السنين التي أكلها الجراد » (يوئيل ٢ : ٢٥) .

٢- تأمل رائع

« الذي هو على استعداد أن يدين الأحياء والأموات » . قيل عن لاتيمر Latimer إنه عندما استُدعي للمحاكمة الأخيرة أمام أعدائه الحانقين عليه كان متراخيا غير مبال بأجوبته . وإذ توقف برهة سمع صوت قلم خلف الستار يسجل كل كلمة ينطق بها . وللحال بدأ يزن كل كلمة ، ويتكلم بكل حرص وتدقيق . وهكذا يحثنا الله أن نبتعد عن طرق الذين يتكلمون علينا شرا ، ويجدفون على الله ، وأن « نعيش بالتعقل والبر والتقوى في العالم الحاضر » (تي ٢ : ١٢) ، لأنه « هو ذا الديان واقف قدام الباب » (يع ٥ : ٩) .

طبيعي إن الدينونة تنتظر البشر في العالم الآخر، كرسي دينونة المسيح لعبيده ليعطيهم أجرهم ، والدينونة النهائية للأشرار ، ونحن الذين صرنا واحدا معه ، لن نأتي

إليها . وصحيح أيضا إننا الآن فى حضرة الديان . وهو على أتم الاستعداد ، وهو واقف قـدام الباب . لقد حان الوقت لكى تبدأ الدينونة . وهى « تبدأ من بيت الله » (ع ١٧) .

قال ناپليون لجنوده إذ وقفوا فى ظل الأهرامات : « أيها الجنود ، إن أربعين قرنا تتطلع إليكم » . لكن إن كان ذكر الماضى الكريم يبعث القوة ، فيقينا إنه يبعث القوة لنحيا الحياة الطاهرة إن نذكر بأن « كل شىء فى حياتنا عريان ومكشوف لعينَىْ ذاك الذى معه أمرنا » (عب ٤ : ١٣) ، الذى يبدأ حتى من الآن بأن يدوّن قراراته التى تحدد مصيرنا .

وقد تحوّل الرسول من الأحياء إلى الأموات ، إلى الذين ماتوا حديثا كمتألمين وشهداء فى الاضطهادات التى كانت قد بدأت تُزيد عدد صفوف الكنيسة . لقد سلم ، بدون تردد ، بأنهم كانوا لا بد أن يتألموا ، على قدر ما تحتمل الطبيعة البشرية ، كأنهم أشر الخطاة بين زملائهم . لكن هذه الآلام وهذه الدينونة هى على كل حال « حسب الناس » ، ثم إنها « بالجسد » (ع ٦) . ثم تحوّل الرسول من آلامهم إلى أجرهم العظيم ، الذى يلخصه فى هذه الكلمات : « ولكن ليحيوا حسب الله بالروح » .

أمام الآلام والدموع ودينونة جيل الشهداء الظالمة ، يجب أن نضع دواما أمجاد أجرهم وهم يحيون فى مقدمة صفوف المفديين ، ويستنيرون بنور وجه الله . وإن كنا نحن نُدعَى للاشتراك معهم فى آلامهم « حسب الجسد » ، فلتتشجع قلوبنا إذ نذكر بأننا سوف نشترك معهم أيضا فى حياتهم « حسب الله بالروح » ، فى ذلك العالم الذى فيه تجوز دينونات البشر تحت فحص الأبدية ، وتنقض أحكام البشر ، دون أى مجال للاستئناف .

وعندما يكون أمامنا فكر الأبدية فخليق بنا أن نكون عطوفين على الآخرين . ليت هذا الفكر يُنقش على قلوبنا لكى نحتمل لطماتهم ، ونشهد ضد خطاياهم كأننا سائرون فعلا فى شوارع المدينة المقدسة ، ومرنمين الترنيمة الأبدية .

٣- نداء حار

« وإنما نهاية كل شيء قد اقتربت . فتعقلوا واصحوا للصلوات » . كانت نهاية الدولة اليهودية قد أوشكت على المجيء . وكانت بوادر الانحلال محسوسة . كانت كنيسة العهد القديم قد بدأت تنحلّ لتفسح المجال لكنيسة العهد الجديد .

كانت قد حانت نهاية عصر الأنبياء والملوك ، نهاية مدينة الله المادية ، نهاية طقوس وفرائض الديانة الرمزية . كان هنالك إحساس بهذا فى نفوس الأتقياء عندما رأوا نهاية الديانة التى كانوا يحتمون تحت ظلها . إن الطيور تنجو بنفسها عندما ترى أن الناس قد بدأوا يقطعون الشجرة التى بنت فيها الأجيال الكثيرة عشوشها . لقد امتلأ الجو بالتراب عندما أنزلت ألواح السقالة التى كانت تُعتبر جزءا من الهيكل الحقيقى ، مع أنها فى الواقع كانت تخفى جماله .

لكن الرسل كانوا يستطيعون ىن ينظروا بوضوح ، عالمين أن « الأشياء المتزعزعة » الزائلة هى فقط الأشياء « المصنوعة » وأنها إنما تُنزع من الطريق « لكى تبقى التى لا تتزعزع » (عب ١٢ : ٢٧) .

إن الزمن الذى نعيش فيه يشبه ذلك الزمن . ونهاية هذا الزمن أيضا قد اقتربت . النظام القديم يتغير لكى يخلى الطريق للجديد . والرب قد بدأ يلف القديم كرداء قديم . لا بد أن يزول الزائل المادى لكى تظهر السماء الجديدة والأرض الجديدة التى يسكن فيها البر .

وواجبنا إزاء هذا مزدوج :

١- « تعقلوا » . ينبغى أن يتوفر ضبط النفس حتى من جهة الشهوات المباحة ، ومن جهة استخدام كل ما نملك . ينبغى أن لا يرتبك جنود المسيح بأعمال الحياة

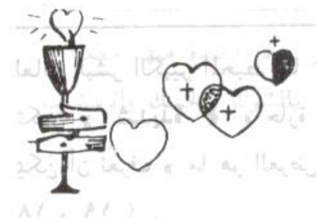
لكى نُرضى من اختارنا لنكون جنوده (٢ تى ٢ : ٤) ، ولكى نكون على أهبة الاستعداد عندما يُضرب البوق للدعوة للخروج ، أو عندما يُسمع الصوت معلنا مجئ العريس .

٢- « **واصحوا** [١] **للصلوات** » . الرب يأمر خادمه الأمين للسهر ، انتظارا لمجئ السيد ، رغم أن كل من حوله نائمون . طوبى لذلك العبد الذى إذا جاء سيده يجده هكذا ساهرا .

ليت هذا الموقف ، موقف التعقل والصحو والسهر ، يكون موقفنا ، طالبين سرعة مجيئه ، حتى إذا ما جاء وقرع الباب نسرع فى الترحيب به على عتبة الباب ، ونتقبل منه تحية السلام ، ونسمع الكلمة « نعما أيها العبد الصالح والأمين » .



(١) « تنبهوا » حسب ترجمة اليسوعيين ، « اسهروا » حسب الترجمة الإنجليزية .



٢٣ : المحبة تستر الخطايا

« ولكن قبل كل شىء لتكن محبتكم بعضكم لبعض شديدة [1] لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا . كونوا مضيفين بعضكم بعضا بلا دمدمة . ليكن كل واحد بحسب ما أخذ موهبة يخدم بها بعضكم بعضا كوكلاء صالحين على نعمة الله المتنوعة » (١ بط ٤ : ٨ - ١٠) .

لا يدهشنا أن نجد الرسول بطرس يصر بشدة على المحبة . فى لقاء لا يُنسى أبدا ، ذكّره السيد بأن أسمى مؤهل للخدمة هو المحبة ، وكان هذا على ثلاث دفعات . والآن نرى الرسول يصر على ضرورة توفر المحبة فى الذين يحاولون أن يتمموا أى شىء من أجل الله استخداما للمواهب التى اؤتمنوا عليها .

« **قبل كل شىء** » . إن الاستغناء عن كل شىء آخر من الصفات المسيحية أو الأعمال المسيحية أقل أهمية من فقد المحبة . ومع ذلك فعند توفر المحبة يجب أن يتوفر أيضا كل ما يؤثر على الناس ويمس قلوبهم . وهذه المحبة بطبيعة الحال ، يجب أن تخرج إلى كل العالم بعطفها وكل نواحى نشاطها ، لكنها يجب أن تبدأ بأهل البيت . يجب أن نحب « **بعضنا بعضا** » كمؤمنين بالرب الواحد ، قبل التحدث عن محبتنا

(١) « شديدة الحرارة » حسب الترجمة الإنجليزية .

لعالم البشر الكبير المحيط بنا . كذلك يجب أن لا تكون المحبة فاترة ، بل يجب أن تكون « شديدة » ، حارة لدرجة الغليان ، تصل إلى أقصى حدودها . وعندئذ يمكن أن نعرف « ما هو العرض والطول والعمق لمحبة الله الفائقة المعرفة » (أف ٣ : ١٨ و ١٩) .

لكن لنتأمل الآن بالأحرى فى الطريقة التى بها تعمل هذه المحبة ، لأنها يجب أن تكون محبة عملية . إن القلب الذى يذرف الدموع سخينة ، ويكتفى بمجرد العواطف ، وفى نفس الوقت لا يفعل شيئا ليخفف الحزن أو يضحى بأى شىء من أجل الآخرين ، لا يوجد فيه سوى ظل المحبة ، بل تكون محبته زائفة . المحبة تضحى بذاتها ، تسكب نفسها سكيبا ، تحسب كل شىء خسارة من أجل ربح من تحبه . إنها تعرّض نفسها للخطر لتستقى ماء من بئر بيت لحم ، تسكب قارورة الطيب الكثير الثمن على شخص الحبيب ، ولا تبالى بتعبيرات العالم ، وتدهش إذ تجد أى واحد يستكثر الآلام . آه ، من لنا بمثل هذه المحبة .

١- المحبة تستر كثرة من الخطايا (ع ٨)

ليست هذه الخطايا بطبيعة الحال هى خطايا الشخص الذى يحب ، بل خطايا الأشخاص الذين يحتك بهم. هذه الفكرة فى الواقع مقتبسة من (أم ١٠ : ١٢)[١] . بل لعل الفكرة كلها مؤسسة على تصرف ابنَى نوح ومحبتهما البنوية ، اللذين قيل عنهما إنهما « أخذا رداء ، ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما » (تك ٩ : ٢٣) .

قليلون هم الخالون من أخطاء كبيرة . « حتى بين أكبر الممالك ثقافة توجد قطع من الأراضى التى لم تُفلح قط . هكذا الحال مع صفات بعض الناس ، بل أغلب

(١) « المحبة تستر كل الذنوب » .

الناس . فهنالك مَنْ توجد فيهم قطع من الأرض البور ، لا فائدة منها مطلقا ، كريهة للنظر ، ومغطاة ، لا بنبات القمح أو الأذرة ، بل بالشوك والحسك والأعشاب السامة » .

لا داعى الآن للبحث عن كيف سمح القديسون والأتقياء لأنفسهم بهذه الأخطاء . وإن كانت هذه هى الحال مع هؤلاء ، فكيف تكون الحال بالأحرى مع من لم يُظهروا أى ولاء للروح القدس ؟

يخطئ الناس بعضهم إلى بعض بصفة مستمرة . يستغلون أصحابهم استغلالا سيئا ، يخدعونهم بكلمات كاذبة ، يحتدون عليهم فى وجههم ، ويغتابونهم من وراء ظهورهم ، يسعون وراء لذاتهم أو مكاسبهم دون مراعاة لما قد تسبب تصرفاتهم من الخسائر لأولئك الذين هم ملتزمون بالاهتمام بهم ، إنهم يكشرون عن نابهم لإخوتهم ، ويعضونهم ، ويبتلعونهم كالوحوش المفترسة . آه ، يا للإساءات التى يكابدها الإنسان من يد أخيه الإنسان .

هنالك ضعفات فى البشر مغيظة جدا ، وليس من السهل احتمالها ، حتى وإن كانت لا تعتبر فى مقدمة الخطايا ، مثل الأباطيل التى يحس بها صاحبها ، والتى تحب دواما التملق ، أو تنتزعه من أفواه الآخرين ، ومثل عدم الرضا الدائم التذمر ، ومثل القلق الذى ينم عن عقل ثائر وأعصاب مجهدة ، ومثل تذمر الشخص المتألم ، وبخل المتقدمين فى السن ، ، وتهكم من يحسون بأنهم لم ينالوا حقوقهم فى الحياة ، ويحقرون من شأن الآخرين ، ومثل التهور المنبعث من المبالغة فى الشجاعة . هذه كلها متعبة ومغيظة ، وتسبب اشمئزازا كأشر أنواع الخطايا .

ونحن يجب أن لا نصدر حكما خاطئا على هؤلاء الناس ، كما يجب أن لا نظن أو نقول عنهم إنهم ليسوا أثمة . إن كانوا يخطئون فليس واجبنا أن نصور أخطاءهم صورة جميلة ، أو أن نقول عن الشر إنه خير . هذه بالحرى تجربة إن نفعل

هكذا . لأننا إن لم ندقق جدا مع الآخرين فقد نتساهل مع أنفسنا . وهكذا يكون حكمنا فاسدا وملتويا . إذا ما صورنا أخطاء الآخرين بصورة جميلة ، صار هذا هو الخطوة الأولى للاستخفاف بأخطائنا . إذن فلنحرص جدا على أن لا ننظر إلى هذه الأخطاء بالنظرة التى لا تبالى بالتمييز بين الأبيض والأسود .

ويجب أيضا أن لا نستخدم كلمات التوبيخ أو كل طرق القصاص. هنالك فى المجتمع عواطف لينة ، ضعيفة ، طائشة ، تنطق دائما بكلمات جميلة ، وترش ماء الورد على مجارى مياه المراحيض المفتوحة ، لكنها لا تتجاسر على أن تكون عنيفة وقاسية ، وأمينة للبر . ليست هذه محبة مسيحية ، رغم أنها كثيرا ما صُوِّرت خطأ بأنها كذلك . أما المحبة التى يبعثها الله فإنها تتمهل ، تترك نتائج الخطايا تكشف عن نفسها فى الحياة ، وتتباطأ ثلاثة أيام وهى متباعدة ، مفضلة هذا عن الذهاب فى الحال استجابة لطلب المساعدة [1] .

لا يوجد هنالك شىء نافع ، أو جميل ، أو قوى ، مثل المحبة المسيحية .

ومع كل هذه الاحتياطات فالمحبة تستر كثرة من الخطايا .

١- **إنها تصفح** . هذا امتياز عجيب جدا فى متناول أيدينا . ونحن إذ نمارسه فنحن نتمثل بالله ، ولعلنا لا نجد فرصة لنمارسه إلا فى هذا العالم . فإننا حالما ندخل العالم الخالى من الخطية ، لا يوجد هنالك مجال للرحمة . لكن يبقى هنالك مجال لنمو سائر النعم الأخرى ، أما الرحمة فلا يبقى لها مجال . حالما يحس المؤمن بأنه قد أُسيءَ إليه ، فإنه لا ينتظر حتى يعترف المسىء بإساءته ، أو يعتذر ، لكنه يتطلع إلى السماء ويطلب له من الله الصفح ، وتستريح نفسه عندما يحس بأنه قد صفح ، إلى أن يذهب إلى المسىء ويعلن له الصفح . يجب أن نتمثل بالله ، فإنه يسرع فى الصفح ، ثم إن صفحه كامل .

---

(١) كما حدث عندما أرسلت مريم ومرثا للمسيح ليأتى إليهما لشفاء لعازر أخيهما .

٢- **وتتحاشى أن تعطى الفرصة للآخرين لكى يخطئوا** . يقال بأنه إن كان لديك حصان عزيز ، ينزعج دواما إذا ما وصل إلى نقطة معينة فى الطريق ، فإنك يجب أن تحرص على تغيير الطريق إن أمكن ، وإلا فاجتهد بأن تلاطفه لكى يجتاز تلك النقطة بدون خوف . وهكذا إن كنت تظن بأن موضوعا يثير صديقك ويهيّجه ، فإن المحبة الحقيقية تدعوك لأن تتجنبه . لا داعى لإعثاره إن كنت تعرف كيف تتجنب الباعث الأول للعثرة .

٣- **وتسرع لكى تنظر إلى الخطأ نظرة حسنة ، أو تقول كلمة تخفف من حدتها** . قال أحدهم : « صحيح أن صديقى غبى جدا ، لكنه فى نفس الوقت صادق ، ويؤتمن ، ويُعتمد عليه » . وقال آخر : « نعم ، هو حاد الطبع جدا ونزق ، لكن أذكر كيف كان أخيرا مجهدا جدا فى عمله ، لا يترك عمله إلا فى ساعة متأخرة من الليل ، ويعود إليه فى ساعة مبكرة فى الصباح ، دون أن يأخذ نصيبا كافيا من الراحة » . وقال آخر : « نحن نسلم بأنه الآن سيء الخلق ومكدر . لكنه كان فى الأيام الأولى عظيما جدا ، يحتمل أى إساءة » . وقال آخر : « هل أنت واثق أنه لا يمكن تفسير تصرفه تفسيرا آخر ؟ » .

بمثل هذه العبارات يمكن أن تناقش المحبة المسيحية ذاتها أو الآخرين ، وتكون النتيجة أنه يمكن تفادى خطايا كثيرة ، ويمكن الصفح عن أخطاء كثيرة .

٤- **وتوبخ بمنتهى الرقة** . هنالك حالات تستدعى التوبيخ العلنى . ينبغى أن لا يبقى القرح مغطى لئلا يؤدى إلى الموت ، بل ينبغى شقه ، وإلا فلا يمكن شفاؤه . لكن الشق يجب أن يكون بمنتهى الرقة . ينبغى توبيخ الخاطئ وانتهاره « بكل أناة » (٢ تى ٤ : ٢) . « إن انسبق إنسان فأخذ فى زلة ما فاصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة » (غل ٦ : ١) .

« إن معالجة أخطاء الآخرين تتطلب الكثير جدا من الحكمة الروحية ، تتطلب روحانية الذهن ، وفطنة كثيرة ، وذهنا خاليا من روح الانفعال ، لأن هذه تعمى البصيرة ، وتقسى اليد ، وعندئذ لا يستطيع المرء أن يبصر جيدا ، أو يداوى القرح جيدا . فيهلك الكثيرون بسبب جهل وتجاهل هذه الروح الطيبة التى يجب أن تمارَس بها هذه الخدمة » . أما المحبة فإنها تمنح هذه الرقة وهذه الحصافة .

٢- المحبة مضيافة بسخاء (ع ٩)

هذا لا يعنى إقامة الولائم الفاخرة ، بل بالحرى دعوة « المساكين والجُدع والعرج والعمى ، إذ ليس لهم حتى يكافئوا » (لو ١٤ : ١٣ و ١٤) . خليق بنا أن نعتبر بيتنا وزنة أعطيت إلينا من الله للخدمة ، وأن نستخدم غرفة الضيوف التى فيه ليس فقط لاستقبال أصدقائنا ، بل أيضا لاستقبال خدامه . والذين يسكنون على شاطئ البحر ، أو فى أماكن طيبة الهواء يجب أن يفكروا فيما إذا كانوا يستطيعون إنعاش بعض المنهكى القوى . والذين يعيشون فى المدن الكبيرة يجب أن يفتحوا بيوتهم للشبان الآتين حديثا من القرى ، الذين قد يجرَّبون بالانحراف لعدم الترحيب بهم فى البيوت الطاهرة كالبيوت التى تركوها . « لا تنسوا إضافة الغرباء » (عب ١٣ : ٢) . لا يزال المسيح يسأل ، فى شخص أولاده ، هذا السؤال : « أين المنزل »[(١)] (مر ١٤ : ١٤ ، لو ٢٢ : ١١) .

« بلا دمدمة » . إن نية القلب هى كل ما يهتم به الله « المعطى المسرور يحبه الله » (٢ كو ٩ : ٧) . هو يسر جدا بفعل الخير لدرجة أنه لا يستاء من أى شىء أكثر من الإحجام عن فعل الخير . ليس معنى الكرامة الإسراف ، وإلا فلا يمكن الاستمرار فى الإضافة . وفضلا عن تذكير الضيف بأن لا يعتبر نفسه غريبا ، فإن

(١) « أين غرفة الضيوف » حسب الترجمة الإنجليزية .

ما يُعمل يجب أن يُعمل بسرور ومن كل القلب . لا توجد ضيافة أكثر كرما من أن تجعل الضيف يعتبر نفسه بأنه فى بيته ، لأنه لا شىء من الإلزام أو الاضطرار أو التكلف .

٣- المحبة تخدم (ع ١٠ و ١١)

لا يتحدث الرسول هنا عن المواهب غير العادية التى مُنحت للكنيسة الأولى ، بقدر ما يتحدث عن المواهب الممنوحة لنا اليوم . موهبة الكلام ، موهبة الثروة ، موهبة القدرة على الإدارة ، موهبة الترنيم . هذه كلها مواهب من يد الله . ليس لنا ما نفتخر به ، لأنه « أى شىء لك لم تأخذه » (١ كو ٤ : ٧) . وبدلا من أن نحسد شخصا آخر ، ينبغى أن نشكر الله من أجل ما أعطاه له هو أيضا ، طالبين منه أن ننتفع نحن أيضا به ، وننال من بركاته على قدر الإمكان .

كل عضو فى الكنيسة وكيل ، أؤتمن على شىء ما . « ليكن كل واحد بحسب ما أخذ موهبة يخدم بها بعضكم بعضا كوكلاء صالحين على نعمة الله المتنوعة » (ع ١٠) . كل شىء فى الوجود ، مهما كان تافها ، له عمله وأهميته . « كل واحد أخذ موهبة » . يا من لا تعمل شيئا لخدمة العالم ، ليس ذلك لأنك لا تملك أى موهبة ، بل لأنك لا تستخدم الموهبة التى لك . لقد أخفيتها فى مكان ما فى منديل . أخرجها وضعها بالربا عند الصيارفة . قد لا تكون هذه الموهبة بارزة أو لامعة ، لكن طالما كانت قد أعطيت لك فإنك سوف تعطى حسابا عن كيفية استخدامها . إن المقدرة على العطاء موهبة عظيمة كالمقدرة على التعليم أو الكرازة .

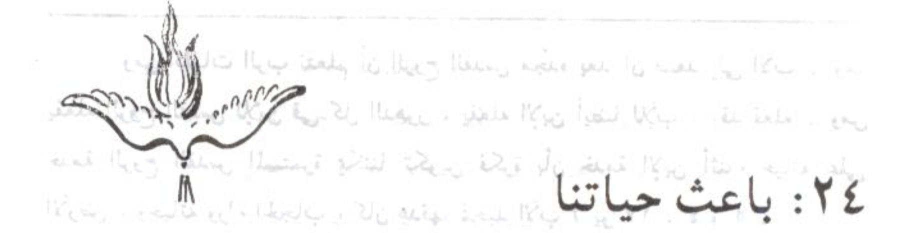
يجب أن لا ننسى قط بأننا لا نملك تلك المواهب ، بل نحن وكلاء عليها ، وسوف نعطى حساب وكالتنا لسيدنا ، وربما يكون هو الآن على الباب . لا يهمنا كثيرا ما يظنه الناس فينا ، أو ما يقولونه عنا ، طالما كان الرب راضيا عنا ، وطالما كنا نبذل أقصى جهدنا لكى ننمى ونستخدم مواهبنا الثمينة التى أعطيناها . يجب أن يكون الهدف الرئيسى أمام كل منا أن نعمل على قدر الطاقة التى أعطاها لنا الله .

« **نعمة الله المتنوعة** » أى نعمة الله المتعددة الأشكال . كل واحد منا يتقبل نعمة الله من زاوية مختلفة ، ويعكسها كانعكاس أشعة النور . قد تكون هذه النعمة فى البعض موهبة الكلام « إن كان يتكلم أحد » (ع ١١) ، وفى الآخرين موهبة الخدمة « وإن كان يخدم أحد » ، وفى غيرهم موهبة العطاء . لكن الجميع مدعوون ليقوم كل واحد بنصيبه فى الكنيسة ، التى قد تكون الإدارة فيها مختلة اختلالا كليا بسبب تكاسل البعض ، أو لإهمال الآخرين .

ويجب أن يكون الباعث فى الجميع واحدا . قد تكون الخدمة عظيمة الشأن أو بسيطة ، بارزة أو مجهولة ، لكن مجد الله يجب أن يكون هو الهدف الأسمى . إن كنا نعمل بأى باعث آخر فنصيبنا الفشل .

وكل من يعمل فعمله ليس باطلا فى الرب .

يستطيع الله أن يتمجد – إن أراد – سواء فى الفشل أو فى الموت . فلنمجده بيسوع المسيح ، رئيس كهنتنا الأعظم ، وليتمجد فينا وبنا ، وبكل الكائنات المخلوقة ، « إلى أبد الآبدين . آمين » (ع ١١) .



٢٤ : باعث حياتنا

« إن كان يتكلم أحد فكأقوال الله . وإن كان يخدم أحد فكأنه من قوة يمنحها الله لكي يتمجد الله فى كل شىء بيسوع المسيح ، الذى له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين . آمين » (١ بط ٤ : ١١) .

قبل الانتقال إلى التأمل فى البلوى المحرقة التى نحن معرضون لها ، يبدو أنه من المناسب أن نتوقف قليلا للتأمل فى الباعث الرئيسى الذى ينبغى أن يكون هو الدافع لنا فى الحياة ، أى أن « يتمجد الله فى كل شىء » .

كان هذا هو الباعث الدافع لربنا المبارك . عندما « اتخذ صورة عبد صائرا فى شبه الناس » (فى ٢ : ٧) ، وضع أمامه هدف حياته ، وهو أن يزيد الله الآب مجدا . لقد تحدث عن نفسه على أساس أنه « لم يطلب مجد نفسه ، بل مجد الذى أرسله » (يو ٧ : ١٨) . وعندما راجع حياته وهو على عتبة الصليب ، سَرَّه أن يقول إنه مجّد الآب على الأرض ، وأكمل العمل الذى أعطى له (يو ١٧ : ٤) . وقد طلب المجد لنفسه لكى يزيد الآب مجدا (يو ١٧ : ١) . ووعد باستجابة الصلاة بقصد أن « يتمجد الآب بالإبن » (يو ١٤ : ١٣) .

ومن كلمات الرب نتعلم أن الروح القدس مجّده بعد أن صعد إلى الآب . وما يفعله الروح القدس للإبن فى كل الدهور ، يفعله الإبن أيضا للآب ، وقد فعله . ومن خدمة الروح القدس المستمرة يمكننا تكوين فكرة بأن خدمة الإبن أثناء حياته على الأرض ، وحياته وراء الحجاب ، كان هدفها تمجيد الآب (يو ١٧ : ٤ و ٥) .

لكن ما هو هذا المجد ، وكيف يمكن أن يتمجد الله ؟ المجد هو إعلان الصفات المستترة لله المبارك إلى الأبد . هو يسكن فى النور السامى جدا فى طهارته ، لدرجة أن العين البشرية لا تستطيع النظر إلى الوهج الذى يحيط بشخصه . ولو كان الله مجهولا ، ولا نعرف عنه شيئا ، لبقينا إلى الأبد لا ندركه ولا نحبه . وكيف يستطيع البشر أو الملائكة عبادة إله لا يُدنى منه ، ولا يمكن معرفته ؟ لكن يسوع المسيح ، الذى هو فى حضن الآب (يو ١ : ١٨) منذ الأزل وإلى الأبد ، أعلنه لنا ، أعلن صفاته التى كانت مستترة ، أعلن لنا طبيعته الإلهية . وإذ أُعلِنَت ، عرفت الله ربوات لا تُحصى ، وأحبته ، وعبدته ، لأنهم رأوا مجده فى وجه يسوع المسيح ، وسجدوا بفرط السرور ، وأعطوا المجد للجالس على العرش وللحمل .

إن المنشور البلّورى ، الذى يبين الألوان الرائعة الكامنة فى أشعة الشمس ، يمجد الشمس وخالقها . والفنان الذى يقرأ أسرار الطبيعة ، ويرى ابتسامتها الساحرة ، التى لا يراها إلا محبوها ، يمجد ذلك الكائن خلف كل الطبيعة . ودارس الكتاب المقدس ، الذى يرى جمالا رائعا فى الله الذى كتبه ، يزيده مجدا فوق مجد . وكما أن ابن الله أظهر لنا نور الآب ، وجعل كل الخليقة العاقلة تُعجب به ، فإننا نستطيع القول بحق إن الآب تمجد فيه .

هكذا الحال أيضا فى الخليقة عندما أظهر ابن الله صفات الله الخالق القادر على كل شىء فى جمال رائع . هكذا الحال أيضا فى أعمال العناية الإلهية عندما أظهرت ذاتها نعمة الله المعضدة فى الأعمال المجيدة فى كل الأجيال المتعاقبة . هكذا الحال أيضا

بصفة أخص فى حياة الفادى ، وكلماته ، وموته . فقد كانت هذه منافذ إلى قلب الله . فإنه لم يكن ممكنا أن يُعرف إلا بعد أن أظهر المسيح - باحتكاكه مع البشر الخطاة - أنوار الإنجيل البراقة ، ذلك الإنجيل الذى هو أثمن ما يمتلك الجنس البشرى . ولعلنا نرى فى الأحداث ، التى سوف تذاع فيما بعد ، كيف يُظهر الرب يسوع المسيح صفات الآب ، التى لا نعرف عنها إلا القليل ، أو لا نعرف أى شىء ، أو التى كنا نراها فى نور باهت .

كان هذا أيضا هو الباعث للرسل . لا من أجل ربح مادى ، أو من أجل مديح الناس ، لا من أجل اكتساب سلطة ، ولا من أجل نفوس الناس فقط ، بل من أجل مجد الله . لم يحسبوا أنفسهم ثمينة ، بل تحملوا المتاعب والاضطهادات ، حتى الاستشهاد ذاته . كانت أمنيتهم أن يُظهروا للناس كيف أن الرب طيب ومجيد ، أو يفتحوا القلوب لكى تستقبل نوره فى أعماقها ، لكى يزداد مجدا عندما تعمل فيهم قدرته العجيبة « فيرجعوا من ظلمات إلى نور ومن سلطان الشيطان إلى الله » (أع ٢٦ : ١٨) .

وهذا يجب أيضا أن يكون هو الباعث لنا .

١- **إنه لن يخزى** . إن كنا نعمل بباعث أدنى من هذا ، فإننا دواما نُعرِّض للفشل . فإما أن لا تتحقق رغبات قلوبنا ، أو تتحقق ، ولكن يضغط علينا شعور بعدم الاكتفاء وبالضيق . أما ذلك الباعث فإنه لن يضللنا قط . فهو أمامنا دواما . وهو باستمرار يوحى إلينا بإيحاءات نبيلة ، منيرة ، تسمو بنا إلى فوق . عندما نبذل كل ما فى وسعنا يبقى هذا الباعث أمامنا يصعد بنا إلى قمم أعلى ، أو يدفعنا إلى جهود أكثر جرأة . والتأثير الذى يحدثه فينا يدفعنا إلى الولاء والإعجاب ، ويجعل كل حياتنا وكل أعمالنا واسطة من وسائط النعمة .

عندما نحس بأننا نعمل بباعث خاطئ ، أو بباعث أدنى ، فلنلجأ إلى الله ، ونخبره بأننا لا نريد إلا أن نحيا ونعمل بهذا الباعث الأسمى . اطلب منه أن يخلق فيك قلبا نقيا ، ويجدد فيك روحا مستقيما . ثق بأنه يستطيع بروحه القدوس أن يبدل أشر ما فيك إلى أحسن ما يمكن ، إلى أن تلتهب روحك شوقا لمجد الله .

يحتاج الكثيرون إلى هذه الكلمات . إنهم يعملون من أجل خلاص الآخرين ، من أجل ازدياد عدد أفراد رعيتهم ، من أجل صد هجوم الخطية ، من أجل تخفيف آلام الآخرين . هذه كلها بواعث طيبة ، لكنها ليست هى الأفضل . ووجودها يفسر سبب الفشل الذى يئن تحته الكثيرون من الخدام الأتقياء . فاحرص على أن تعمل كل شىء لمجد الله ، سواء عملت من أجله ، أو صليت من أجل الامتلاء بالروح القدس ، أو أديت أى عمل من أجل خير البشرية .

٢- وهو يجعل الحياة كريمة نبيلة . نحن نجعل فوارق ليس لها وجود فى هذا العالم . فنقول عن بعض الأشياء إنها مقدسة ، وعن الأخرى إنها عالمية ، عن بعض الأشياء إنها عظيمة ، وعن غيرها إنها غير روحية . نحن نحكم على الأشياء حسب مظهرها وحسب الحيز الذى تشغله بين الناس . وننسى أن الاختلاف فى نظر الله هو اختلاف الباعث . فالباعث المقدس يجعل كل شىء مقدسا . والباعث العلمى يحط من قدر أقدس الخدمات ، وينزل بها إلى الحضيض . الأشياء التافهة تصير عظيمة عندما يكون الباعث لها عظيما مقترنا بالمحبة وروح التكريس . أما الباعث الدنىء فإنه يجعل تقدمة صاحب الملايين دنيئة . الشخص التقى يربط كل شىء بعقدة مزدوجة ، أى بالإيمان والصلاة . والشخص غير التقى يجعل لنفسه مائدة الرب مائدة شياطين .

كثيرا ما يغتــاظ البعض ويتضايقون لأنهم محصورون فى أعمالهم العالمية اليومية ، ويشتاقون إلى التحــرر منها ليكرســوا أنفسهم للأعمال الروحية . إن وُجد من بين قراء هذه الكلمات من هو هكذا ، فيسأل قلبه عما إذا كانت حياته مسلّمة لله تسليما كليا . إن كان الأمــر هكذا ، فليذكر بأن الله قد وضعه فى المكان الذى هو فيه لقصد معيّن . ثم ليملأ هذا المركز من أجل الله ، وعندئذ تنبعث من سيرته أشعة من الجمال ، ويمجد الناس الله من أجله . « لى الحياة هى المسيح » ، لكى يتمجد المسيح .

مهما كان عملنا اليومى ، فينبغى أن نؤديه بنفس الباعث السامى الذى تحلى به أعظم الرسل ، أو الذى يتحلى به الساروفيم ، ناقشين على عتبة كل يوم جديد « المجد لله فى الأعالى » . « إذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئا فافعلوا كل شيء لمجد الله » (١ كو ١٠ : ٣١) .

أخـيرا ، يجب أن لا تنسى بأنه لا يمـكن أن أى باعث ، مهما كان سـاميا وطاهرا ، يجعل خدمتنا مقبولة أمام الله قبولا كاملا . فإن الله لا يتمجد إلا باستحقاق الرب يسوع . ولذلك حرص الرسول على إضافة هذه العبارة « يتمجد الله بيسوع المسيح » (ع ١١) . هنالك طريق واحد لله ، هو الرب يسوع الذى قال « أنا هو الطريق » .

آه ، ليتنا نحصر كل رغباتنا فى مجد الله . من أجل هذا ينبغى أن نعيش ، أو ، إن لزم الأمر ، أن نموت . من أجل هذا ينبغى أن نتمم أتفه الأعمال بروح إنكار الذات ، وبروح الخدمة ، وأن ننسى كل ما نلقاه من متاعب ومن مشقات . ليكن هذا هو باعث حياتنــا . يجب أن لا ننتظر حتى تأتى الأجيال البعيدة « آبد الآبدين » ، بل لنعطه « المجد والسلطان » الآن . لتمتلئ شفاهنا بمجده وسبحه ، ولتخضع حياتنا لسلطانه . ولتنبعث من حياتنا الضعيفة هذه الكلمة الحلوة المفرحة « آمين » .

✠ ✠ ✠

٢٥ : لا تستغربوا

« أيها الأحباء ، لا تستغربوا البلوى المحرقة التى بينكم حادثة لأجل امتحانكم كأنه أصابكم أمر غريب . بل كما اشتركتم فى آلام المسيح افرحوا لكى تفرحوا فى استعلان مجده أيضا مبتهجين . إن عُيرتم بإسم المسيح فطوبى لكم ، لأن روح المجد والله يحل عليكم . أما من جهتهم فيُجدف عليه وأما من جهتكم فيُمجد » (١ بط ٤ : ١٢ – ١٤) .

فى إحدى المناسبات استغرب الرسول بطرس أن يفكر المسيح فى الآلام . والآن يرى الرسول أنه لو كان المسيح قد فكر فى شيء آخر لاعتبر هذا أمرا غريبا . ولقد كتب للمؤمنين الذين فى الشتات يأمرهم بأن لا يستغربوا إن كانوا يجوزون البلوى المحرقة والآلام المريرة .

« لا تستغربوا » . لكن الذى يبدو مستغربا هو أن يشرب القديسون الكأس المريرة حتى الثمالة بينما يعيش الخطاة فى راحة كاملة . غريب بأن يُسمح للأشرار بأن يتآمروا على الأبرار وتنجح مؤامراتهم . غريب أن يجلس الدنسون على كراسى القضاء

التى يقف أمامها الأتقياء ليحاكَموا لا لأى ذنب اقترفوه سوى مساعيهم الصالحة من أجل خير البشرية . غريب أن تعصر الأحزان قلوب أطهر وأنبل أولاد الله ، وأن يموتوا بالسرطان ، ويحاطوا بالفقر ، وإساءة فهم الناس لهم ، وبغضتهم لهم .

كان غريبا للأعين البشرية أن ألوفا من الشهداء يموتون فى ملاعب روما ، ويضيئون الحدائق العامة بأجسامهم المشتعلة بالنار ، بينما يكون نيرون فى مرح وعربدة فى قصره الفخم . غريب أن يتألم قديسو الرب فى السجون ، وفى التعذيب ، بينما ينال أعداؤهم الأرباح المادية والمراكز الرفيعة عن طريق الآلام . غريب أن يكون تقدم الكنيسة دواما مقترنا بسلسلة من الدماء . ليس يسيرا أن لا نعتقد بأن هذا غريب . ومع ذلك فالأكثر غرابة أن لا تكون الأمور هكذا . ولنتأمل الآن فى **الاعتبارات التى لا تجعل الآلام غريبة :**

١- **هذا العالم فى تمرد مستمر وثورة دائمة** . عجيب أن نذكر بأنه رفض أن يملك الله على عرشه (عرش العالم) ، كما فعل إسرائيل فى القديم ، واختار إلها آخر ، هو الذى أشار إليه ربنا مرارا بأنه « رئيس هذا العالم » . لقد حكم شاول العالم المنظور ، أما داود ، الملك الشرعى ، فقد ظل متواريا بين الذين أحبوه ، الذين كان يتزايد عددهم يوما فيوما . هل كان يُستغرب أن يكابد رعايا الملك المعيَّن من الله معاملة قاسية على أيدى المتمردين الثائرين عليه ؟ لم يكن ممكنا أن يتم غير هذا .

٢- **لقد سار الرب فى نفس هذا الطريق** . منذ اللحظة التى وُلد فيها ، حينما سعى هيرودس أن يقتله ، إلى آخر لحظة من حياته ، كان زنبقة بين الشوك ، حملا وديعا بين ذئاب خاطفة . لقد « أبغضه إخوته ولم يستطيعوا أن يتكلموا معه بسلام » (تك ٣٧ : ٤) . والذين أتى لكى يجمعهم ، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، رفضوه باحتقار وازدراء ، وأخيرا جرحوه وقتلوه . لم يحصل قط أى اتحاد فى البغضة مثل تلك التى أحاطت بيسوع عندما ذهب إلى

الصليب . أيها المبارك ، يا من ملكت على عالم البؤساء ، لقد « احتملت من الخطاة مقاومة لنفسك » (عب ١٢ : ٣) ، حتى « كسر العار قلبك » (مز ٦٩ : ٢٠) . وليس لنا أن نختار طريقا أفضل ، أو نصيبا أخف ، لئلا نصير غير جديرين بأن نكون من أتباعك ، وغير مستحقين أن نحمل اسمك .

٣- وهو **الطريق إلى الوطن** . عندما ودّع صموئيل شاول الذى اختير ليكون ملكا ، والذى كانت عيون كل إسرائيل تتطلع إليه ، أخبره ببضع علامات تحصل له فى طريقه (١ صم ١٠) . والأرجح أن النبى فعل هذا ليساعده على تكوين فكرة حقيقية عن السلطان الإلهى للقيام بالمهمة التى كان قد قبلها فى ذلك الوقت . لا بد أنه كان يزداد اقتناعا فى كل خطوة أن صموئيل نبى حقيقى للرب ، وأنه [أى شاول] كان سائرا فى طريقه الذى سبق أن رسمه له الله . هكذا نحن أيضا عندما نرى أو نختبر البغضة الموجهة للمسيحية وللمسيحيين ممن يقصدون أن يخدموهم ، ونتحقق بأن هذه تتمم تماما نبوات ربنا المبارك ، فإننا نحن أيضا نقتنع بأننا سائرون فى الطريق الذى سلكه الأنبياء ، والذى يحررنا من قيود العالم .

إن أحبنا كل الناس ، ولم يرتفع أى صوت قط معبرا عن البغضة أو الوشاية ، فيحق لنا أن نشك فى أننا نسلك فى الطريق إلى السماء . لقد أكد لنا الكتاب بأننا « إن كنا بلا تأديب قد صار الجميع شركاء فيه فنحن نغول لا بنون » (عب ١٢ : ٨) . وقيل أيضا أننا « بضيقات كثيرة ينبغى أن ندخل ملكوت الله » (أع ١٤ : ٢٢) . بعد أن تنتهى العاصفة الثلجية ، يستطيع متسلق الجبل أن يعرف الطريق بواسطة العلامات التى وضعها فى أماكن متفرقة على سفح الجبل . وهكذا يستطيع المؤمنون أن يتبينوا بأنهم فى طريق الكنيسة من العداوة التى تظهر ضد ديانتهم فى يسوع المسيح .

هذا ما يحصل تماما بنسبة إخلاصنا وتمسكنا بحياتنا الروحية . إن كنا نعيش كما ينبغى ، فإننا تدين العالم المحيط بنا . « يوجد فى حياة المؤمن نور كشاف ، يبيّن عيوب أعمال الظلمة ، كما توجد حرارة شديدة تحرق الأشرار ، وتتعب ضمائرهم . هذه لا يحتملونها ، وعندئذ تنشأ فى داخلهم نار من البغضة الشريرة ، ومن هذه تنشأ البلوى المحرقة التى يوجهونها للأتقياء » .

٤- **هنالك هدف من هذه الآلام** . ومع أنه قد يبدو بأنها تخرج من التراب بلا مبرر (أى ٥ : ٦) ، لكن الأمر الواقع أن مهارة الصانع الأعظم قد رتبتها بحكمة . ربما تكون قد رفعت صلوات سرية سابقة للنمو فى النعمة والإثمار فى الخدمة ، فأتت الصلاة بشرب كأس الآلام يمسكها الله ، ولو كانت بغضة بنى البشر هى التى مزجتها . قد يأتى عمل القسوة العنيفة بسبب خيانة يهوذا ، لكن الكأس يجب أخذها على أساس أنها من يد الله الآب (يو ١٨ : ١١) . إن كانت القذيفة توجّه إلينا بسبب خبث وسوء نية العدو ، لكنها إن مرت فى يدى الله الحنون ، فيكون هو الذى رتبها لتطهير صفات المتألم ونضوجه . وبهذا المعنى يمكن القول إن ما يسمح به الله يكون هو الذى رتبه . لا يمكن أن نصير آلات حادة جديدة للدراس بدون النار ، ولذلك فلا يُستغرب إن جُرّبنا بالنار إلى أقصى حد . لكن الرحيم الجالس بجانبنا يجس النبض باستمرار ، لكى لا تكون الحرارة أشد مما نحتمل . فليتنا ندرك إنه لا توجد طريقة أخرى لتنقيتنا من محبة الذات ، ومن أدناس طبيعتنا الفاسدة .

٥- **وبهذا نحن نشترك فى آلام المسيح** . طبيعى أن آلام المسيح كانت فريدة ، فقد داس المعصرة ، ولم يكن ولن يكون لها نظير ، وحده « (أش ٦٣ : ٣) . « تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزنى الذى صُنع بى الذى أذلنى به الرب » (مراثى ١ : ١٢) .

ومع ذلك فنحن مدعوون لكى « نكمل نقائص شدائد آلام المسيح » (كو ١ : ٢٤) . وحياته فينا تَلقَى نفس المعاملة التى عومل بها لما كان فى أيام جسده . نحن نعلم حقا بأننا لن نستطيع أن نشترك معه فى آلامه الكفارية ، لكننا يجب أن نعلم كلنا شيئا عن آلامه الأخرى عندما جُرِّب ، عندما رأى مصير أورشليم وبكى عليها ، عندما احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه . جميل جدا أن نشترك معه فى أى شىء . الأشياء الحلوة تكون مُرة إن كان بعيدا عنا ، والمُرة تكون حلوة إن كان قريبا عنا . ليتنا نزداد اقترابا منه ، حتى ولو كانت الرابطة التى تربطنا به سلسلة حديدية محماة فى أتون النار .

قال القديس برنار إن المسيح كان يهرب لما كانوا يريدون أن يجعلوه ملكا ، لكنه سلّم نفسه لما أرادوا أن يصلبوه . وإذ وضح هذا لأذهاننا ، يجب أن لا نتردد عن ترديد الكلمات النبيلة التى نطق بها اتاى الجتى لداود الملك « حى هو الرب وحى سيدى الملك أنه حيثما كان سيدى الملك إن كان للموت أو للحياة فهناك يكون عبدك أيضا » (٢ صم ١٥ : ٢١) .

وسوف تكون إجابته لنا هى نفس إجابة داود للاجئ آخر أتى إليه للدفاع عن قضيته « أقم معى . لا تخف . لأن الذى يطلب نفسى يطلب نفسك . ولكنك عندى محفوظ » (١ صم ٢٢ : ٢٣) . نحن نشترك فى آلامه ، وهو يشترك فى آلامنا . إن كان هنالك شىء أتفه من أن تحدِّثه عنه فهو أتفه من أن تهتم به وتنشغل به . لكن إن كان هنالك ما يضايقك ويزعجك ، فاذكر أنه فى كل ضيقك يتضايق (أش ٦٣ : ٩) ، وأنه إن كان أمثال شاول يضطهدون الكنيسة ، فإنهم فى الحقيقة يلمسون حدقة عينه (زك ٢ : ٨) .

أليس خليقا بنا أن نتبع قائدنا الأعظم ؟ أيليق بأن يتعثر هو تحت صليبه وأن نُحمل نحن إلى السماء على فراش ناعم ؟

أيليق بأن يجوز هو بحارا من الآلام وأن نسير نحن حولها فى طريق أمين ؟ أيليق بأن يكون هو محاطا بالأعداء وأن نتجنبهم نحن تاركينه وحده لآلامه ؟ هذا لا يليق ولن يليق . إن كان كل عضو من أعضاء جسده الطبيعى ، فى أيامه على الأرض ، أى القدمان ، واليدان ، والرأس ، قد اشترك بنصيبه من الآلام ، ولم يُستثن عضو واحد ، هكذا ينبغى أن كل عضو فى جسده الرمزى ، أى الكنيسة ، يتوقع بأ يشترك فى آلامه ، فى الرفض ، والصلب ، فى كل الأجيال التى يجوزونها .

٦- **انظروا إلى النهاية** . سوف يستعلن مجده (ع ١٣) . سوف تعجل آلامه انتظارنا لذلك اليوم المبارك . إن الراحة الكثيرة قد تجعلنا ننسى أنفسنا ، ونظن بأننا قد أدركنا كل شىء ، فتقصر أيدينا عن أن تمتد إلى الأمجاد القادمة . لذلك فخير لنا أن نتألم ، لأننا قد تعلمنا أن ننتظر مجد الرب عند استعلانه « بل كما اشتركتم فى آلام المسيح افرحوا لكى تفرحوا فى استعلان مجده أيضا مبتهجين » (ع ١٣) . هذه أمور حقيقية يقينية ، أما الأشياء الأخرى فهى تافهة ، وغرارة ، ووقتية ، إلى لحظة . وعندما يظهر فحينئذ نظهر نحن أيضا معه فى المجد (كو ٣ : ٤) . والذين كانوا أقرب إلى الصليب سيكونون أقرب إلى العرش . وسوف يشرق علينا نحن أيضا نور مجده . سوف نكون مثله ، ومعه ، وفيه ، إلى الأبد . وبنسبة آلامنا سوف يكون أجر وأمجاد ملكوته . سوف تعظم أفراحنا بحيث لا يمكن أن تقارَن بها آلام الزمان الحاضر .

٧- **وسيعوضنا عن هذه الآلام تمتعنا بروح المجد** . « إن عُيرتم بإسم المسيح فطوبى لكم لأن روح المجد والله يحل عليكم » (ع ١٤) . عندما تتثقل النفس تحت مثل هذه الآلام يحرص الله على أن لا تسبب لنا خسارة . إن ما يُفقد من الخارج يتجدد فى الداخل . كما أنه إذا أُلقِيَت المياه على النار من أحد جانبى الحائط فيأتى ملاك منير من الجانب الآخر ، ويسكب زيتا من نافذة صغيرة فتشتعل النار مرة أخرى .

آه ، يا له من تعويض ذلك الذى يكون من نصيبنا . فالشخص التقى عندما يهرب من غضب الناس إلى مراحم الله يعوضه الله مائة ضعف . عندما ننال أقل قدر من محبة الناس ننال أكبر قدر من محبة الله . إذا تركنا الأب والأم فالرب يضمنا (مز ٢٧ : ١٠) . عندما تغرب شمس النجاح الأرضى ، نحس بالنار المشتعلة فى عمود السحاب ، الذى لم يكن ممكنا لنا أن نراه بكيفية أخرى ، والذى يتحدث عن وجود الله معنا وعنايته بنا .

لا يقدر الناس قط أن يفهموا هذا . إنهم ينظرون إلى القشرة الخارجية الخشنة فقط ، لكنهم لا يفكرون فى النواة التى فى داخلها . إنهم يلمسون فقط الإناء الخارجى الخشن ، لكنهم لا يفكرون فى الطيب والبلسان المختفى فى الداخل . إنهم يقدرون أن يقيسوا ما ننبذه ، لكنهم لا يقدرون أن يقيسوا الثروة الجزيلة التى يعوضنا بها الله .

أنت لن تعرف الكثير عن عشرة الله إلا عندما يبعدك الناس إلى المنفى . ولن تنال القدر الوفير من « روح المجد والله » إلا عندما يتحول عنك أقرب الناس إليك ، ويهزأون بك . كل الخسائر التى تحل بنا يعوضنا عنها بثقل المجد الأبدى (٢ كو ٤ : ١٧) .

إذن فلنشدد أنفسنا لاحتمال كل ما يحل بنا من آلام مهما اشتدت ، على أن لا تكون الآلم بسبب أخطائنا ، بل بسبب تقوانا ، لا بسبب حدة الطبع أو الكلام الشرير أو سوء التصرف ، بل بسبب تمثلنا بالسيد واقترابنا منه . إذا ما أسيء إلينا مثله فإننا نصير مثله . إذا ما كنا قريبين منه ينالنا نصيب من الوحل الذى يُقذف عليه .

« لا يتألم أحدكم كقاتل أو سارق أو فاعل شر .. بل كمسيحى » (ع ١٥ و ١٦) . جميل جدا إن كنا لا نتألم إلا كمسيحيين . وعندما تأتينا آلام كهذه فلنحسبه كل فرح (يع ١ : ٢) ، ولنتخذ منها فرصة للترنم ، وفرصة لنسبح من جديد قائلين « المجد لله فى الأعالى » .



٢٦ : أسئلة بدون إجابة !

« لأنه الوقت لابتداء القضاء من بيت الله .
فإن كان أولا منا فما هى نهاية الذين لا يطيعون
إنجيل الله ؟ وإن كان البار بالجهد يخلص ، فالفاجر
والخاطئ أين يظهران ؟ »

(١ بط ٤ : ١٧ و ١٨) .

كانت العواصف قد بدأت تهب على الكنيسة إذ كان الرسول يكتب هذه الكلمات . ولقد سبق أن تنبأ الرب مرارا عن هذه العواصف ، لكن لم يسمح لها إلى ذلك الوقت أن تهب بكل عنفها . كان الرب قد كتم أنفاس العوامل العدائية التى كانت تنتظر اللحظة التى فيها تُفك من عقالها . وكان هنالك كل ما يدعو إلى الاعتقاد بأنه إن أعطيت فترة راحة أخرى فستكون قصيرة جدا « لأنه الوقت لابتداء القضاء من بيت الله » [(١)] .

كانت تلك الأوقات العاصفة لازمة ، مهما كانت عنيفة ، كانت لازمة كلزوم الرياح الشرقية لتحطيم الأشجار الميتة فى الربيع ، وكلزوم المذراة لتفصل التبن عن القمح . لولا

(١) « فإنه قد آن للقضاء أن يبتدىء ببيت الله » حسب ترجمة اليسوعيين ، « لأنه قد حان الوقت لابتداء القضاء [الدينونة] من بيت الله » حسب الترجمة الإنجليزية .

هذه الأوقات العصيبة لامتلأت الكنيسة بالذين يُظهرون صورة التقوى لكنهم ينكرون قوتها . ولولاها أيضا لحل التراخى والكسل والنوم بالأتقياء المخلصين ، وعدم المبالاة باحتياجات العالم . ولذلك فمن الضرورى - من وقت لآخر - أن يقوم الله بعملية الفرز والقضاء والدينونة .

لكن آلام هذه الحياة ، مهما كانت عنيفة مريرة ، إنها فقط جزء من سر الآلام والدينونة ، الكائن ليس فقط هنا ، بل أيضا فى الحياة الأخرى . ليس للمؤمن أن يخاف من هذا . فآلامه الحاضرة - مهما اشتدت - لا تتعدى حدود هذه الحياة الفانية ، لأنها لن تستطيع أن تتجاوز الحواجز التى تفصل بين هذه الحياة والحياة الأخرى .

أما مع الأشرار فالأمر يختلف . فالعاصفة التى تعصف عليهم فى هذه الحياة ليست إلا بداية أحزانهم . والموت ينقلهم إلى شقاء أشنع . وهم يرتحلون من هذا العالم إلى النار الأبدية ، ويُطرحون فى الظلمة الخارجية . هم محفوظون ليوم الدين ليعاقَبوا (٢ بط ٢ : ٩) .

وعلاوة على هذا ، فآلام « الذين لا يطيعون إنجيل الله » تختلف كل الاختلاف عن آلام أولاد الله ، سواء فى هذا العالم أو فى العالم الآخر . فإن آلامهم تكون مقترنة بوخزات الندم ، وتأنيب الضمير ، والشعور المرير بالانفصال عن الله ، وعن المحبة والرجاء والبركة . والمؤمن عندما يتألم يبقى قلبه عامرا بالرجاء ، أما غير المؤمن فيبقى قلبه مليئا بالظلمة الحالكة .

كان هدف الرسول الرئيسى من كلماته هنا هو تعزية القديسين فى آلامهم . لقد قال لهم : إن كنتم تتألمون وقتيا فاذكروا بأن الراحة تنتظركم فى الأبدية . إن تألمتم كبنين فافرحوا لأنكم لن تتألموا كأعداء . إن كنتم تجتازون مياه القضاء العميقة المظلمة فثقوا بأن نصيبكم يختلف كل الاختلاف عنه لو كنتم أشرارا ودنسين . مهما كانت آلامكم شديدة فإنها لا تقارن بآلام من يرفضون الإنجيل . وأنتم إذ تقفون على حافة

آلامكم فإنكم تستطيعون أن تتطلعوا إلى الهاوية التى انحدروا هم إليها ، وهى فى الواقع لا قرار لها ، مغلقة بالظلام .

بعد ذلك يختم الرسول هذا الأصحاح ، أصحاح الآلام ، بكلمات حلوة معزية عن تسليم النفس لله .

١- المصير الذى خلصنا منه

هنا يذكر الرسول ثلاث درجات من التمرد : غير المطيعين ، والفاجر ، والخاطئ . هكذا تنتقل النفس من حالة التراخى السلبية إلى حالة الرفض الإيجابية . وفى طريقها هذا « تدخر لنفسها غضبا فى يوم الغضب ، واستعلان دينونة الله العادلة » (رو ٢ : ٥) . إن كنت لا تطيع الإنجيل فإنك تُحسب فى عداد الأشرار والدنسين .

إن وُجد بين القراء من هم كذلك فليذكروا كيف سيكون مصيرهم مخيفا ومحزنا . نحن لا نتحدث الآن عن الأغبياء أو الوثنيين ، أو الذين لا يعلمون ومع ذلك يفعلون ما يستحق الضربات . فهؤلاء قد قيل عنهم إنهم يُضربون ضربات قليلة (لو ١٢ : ٤٨) . لكن حديثنا موجه الآن للذين سمعوا كلمات المسيح ، لكنهم تحولوا عنها ، ليس لأنهم لا يقدرون أن يؤمنوا ، بل لأنهم لا يريدون ، مفضلين الظلمة عن النور ، والخطية عن الصلاح ، والذات عن الله .

لقد رأيتم الأبرار يتألمون ، ورأيتم كيف كان عسيرا عليهم أن يحتملوا . مع أن الله كان يعضدهم بشخصه ، ومواعيد الإنجيل تعضدهم ؛ ورغم تأكدهم من يقينية جزائهم ومجده وعظمته ، ورغم مقدرتهم على أن يقرأوا رسالة الله فى كل ضيقة ، وعلى أن يروا غاية كل تأديب ، فقد استطاعوا بالجهد أن يحفظوا القلب والجسد من اليأس .

لكن ماذا يكون حالك عندما تأتى إليك ساعة الشدة ، وسوف تأتى عاجلا أو آجلا ؟ إن كنت بعيدا عن الله فإنك لن تجده ليشددك ، ولن تجد المواعيد التى تعتمد عليها ، ولن تجد ما يؤكد لك سرعة انتهائها ، ولن تجد شهادة من ضمير صالح ، ولن تجد رجاء فى التحرر من الشدة . سوف لا تجد أمامك إلا « قبول دينونة مخيف ، وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين » (عب ١٠ : ٢٧) . « هل يثبت قلبك أو تقوى يداك فى الأيام التى فيها أعاملك » (حز ٢٢ : ١٤) .

إن كان البنون يتألمون هكذا ، مع كل تلطيف من محبة الآب ، فأية آلام لا تحل بالعصاة المتمردين ؟ « ما هى نهاية الذين لا يطيعون إنجيل الله ؟ » (ع ١٧) . إن كانت آلام القديسين ثقيلة بهذا المقدار ، فكم تكون آلام الخطاة ؟ إن كانت آلام هذه الحياة فى كثير من الأحيان عنيفة ، فكم تكون آلام الحياة العتيدة ؟ إن كانت البداية مفعمة بمثل هذه الآلام ، فكم تكون النهاية ؟ « ما هى نهاية الذين لا يطيعون إنجيل الله ؟ » .

كانت رغبة أحد القديسين الملحة أن يكون موته سببا فى إقناع أولاده غير المتجددين فتجذبهم قوة الإنجيل ، ويجوزوا وادى ظلال الموت بسلام . لكنه بدلا من هذا أسف إذ اجتازت نفسه سحابة من الشك والخوف ، وعذبه ضميره إلى أقصى حد . لكن نفس هذه الحقائق أثرت فى أولاده تأثيرا عميقا . فقال الابن الأكبر : « كلنا نعلم كيف كان أبونا رجلا صالحا . ومع ذلك فانظر كيف كانت آلامه الروحية شديدة . فكيف يكون الحال معنا نحن الذين لم نبال بأرواحنا قط ؟ »

وعلاوة على هذا ، تأمل فى كل ما هو مطلوب من البار لكى يخلص . « البار بالجهد يخلص » . هل مطلوب أن ينفق ؟ لقد أنفق من أجله الله الكلى القدرة . هل المطلوب الكفارة ؟ هذه لم يكن ممكنا أن يتممها غير الله بالموت فى جسده البشرى . مطلوب أن تدخل عطية الروح القدس نفسه وتمتلك القلوب العنيدة الفاسدة ، وتربحها للمسيح . مطلوب تدخل العناية الإلهية العجيب ، وتعليم الكتاب المقدس ، وتبكيت الضمير .

ورغم كل هذا ، فما أقل التأثير فى الكثيرين من أولاد الله . إذا ما سُمح للجراثيم الأخلاقية بأن تعمل عملها فى الصفات المسيحية ، فإنها تنهش فيها قليلا قليلا إلى أن تصبح قريبة من اليأس .

فى الطبيعة نرى عوالم لامعة ، نرى أفلاكا جبارة ، جبالا شاهقة ، محيطات شاسعة ، شلالات ، غابات ، مساقط للمياه - هذه كلها لا يمكن أن يكون قد خلقها غير الله . لكن عندما نأتى إلى الناحية الأخلاقية والروحية فى شعب الله ، فإننا نذهل عندما لا نجد سوى نتيجة ضئيلة رغم كل ما عمله . فإنهم بالجهد يخلصون ، ويكادون لا يدركون قيمة النفقة التى كلفت الله المبارك .

لكن إن كانوا ، بعد كل ما عمل فيهم ومن أجلهم ، لم يتقدموا خطوة واحدة عما هم عليه ، فماذا يكون الحال مع الذين رفضوا عمل الله العلى فى قلوبهم ؟ « إن كان البار بالجهد يخلص ، فالفاجر والخاطئ أين يظهران ؟ » إنهم مشحونون بالخطية ، وليس لهم نصيب ولا قرعة من الفداء الذى تممه المخلص . إنهم خاضعون للفساد الكائن فيهم ، ولم يفسحوا المجال لعمل الروح القدس فى داخلهم . لم يبالوا بما أعده لهم الله منذ الأزل ، لكنهم يندفعون بطياشة نحو العالم الآخر . « وأين يظهرون ؟ » .

هنالك فى الكتاب المقدس الكثير من هذه الأسئلة المروّعة التى بلا إجابة :

« ماذا تفعلون فى يوم العقاب حين تأتى التهلكة من بعيد » (أش ١٠ : ٣) .

« من يقف أمام سخطه ، ومن يقوم فى حمو غضبه » (نا ١ : ٦) .

« كيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصا هذا مقداره » (عب ٢ : ٣) .

لكن بين هذه كلها ، لا يوجد سؤالا أشد رعبا وهولا من هذا السؤال ، وهو أيضا بلا إجابة : « فالفاجر والخاطئ أين يظهران ؟ » .

يمكننا فقط أن نقدم إجابة سلبية : إنهم سوف لا يظهرون فى السحاب عندما يجىء يسوع ثانية ، فقديسوه فقط هم الذين يأتون معه . سوف لا يظهرون فى عشاء عرس الحمل ، لكن الذين اغتسلوا بالدم هم فقط الذين يدخلون . سوف لا يظهرون عن يمين الديان ، فالأبرار فقط هم الذين يكونون عن يمينه . سوف لا يظهرون وسط الجموع المباركة المحتشدة فى المدينة المقدسة الذهبية ، فإنه لا يدخلها شىء نجس . وإن كنا قد بحثنا عنهم عبثا فى كل هذه الأمكنة ، فإننا لم نرد على السؤال عن المكان الذى يوجدون فيه . هذا ما نتركه لنور الأبدية لكى تكشفه .

ليتنا نذرف الدموع دما ، ونبكى على مصيرهم . لكن لنمزج هذه الدموع بتسابيح الشكر لأن الذين هم له ليس لهم نصيب فى هذا المصير ، ولا يمكن أن يهلكوا . فالله قد أحبنا محبة ثابتة لا تتزعزع . اشترينا بالدم ، علمنا الروح القدس ، محفوظون بقوة الله المقتدرة ، يعظم انتصارنا بالذى أحبنا . « مكتئبين فى كل شىء لكن غير متضايقين ، متحيرين لكن غير يائسين ، مضطهدين لكن غير متروكين ، مطروحين لكن غير هالكين » (٢ كو ٤ : ٨ و ٩) ، مترنحين لكن لا نسقط إلى هلاكنا الأبدى ، على حافة الهلاك ، لكن الراعى الصالح يحملنا على كتفيه ويوصلنا إلى الحظيرة بسلام .

٢- الطريقة التى يجب أن يتبعها القديسون فى آلامهم

١- **احرص على أن تكون فى دائرة مشيئة الله** . يجب أن تتألم « بحسب مشيئة الله » (ع ١٩) . لا تنحرف عن طريقك لئلا تسبب لنفسك التعب . لا تطرح نفسك من حافة الجبل إطاعة للمجرب . لا تبتعد عن الطريق الذى يرشدك إليه عمود السحاب . اقبل كل ما يأتى إليك عن طريق سير الأمور فى مجراها الطبيعى ، لكن إياك أن تجلب على نفسك الألم بسبب الغطرسة ، أو العناد ، أو أى صورة من عمل الشر .

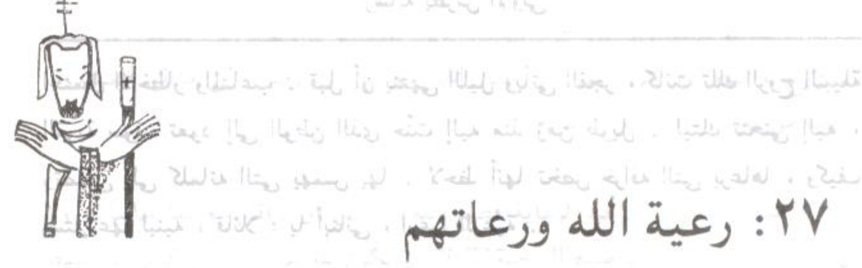
٢- **استمر فى « عمل الخير » (ع ١٩)** . حتى إن أسىءَ إليك ، أو أسىءَ إلى سمعتك ، أو أسىءَ فهمك . لا تبالى كثيرا بالطريقة التى بها يتقبل الناس أعمالك الصالحة . إن كنت متمثلا بالله تجد أنها قد قوبلت بالاستهزاء والجحود . لكن يجب أن تستمر شمسك فى أن تشرق على الأشرار والصالحين ، ويجب أن تستمر فى أن تمطر على الأبرار والظالمين (مت ٥ : ٤٥) . أنت تخدم الرب يسوع المسيح ، فيجب أن تحيا لترضيه .

٣- استودع نفسك لله . « فليستودعوا أنفسهم كما لخالق أمين » . والرب يسوع المسيح فى آلامه التى قادته إلى الصليب « كان يسلِّم لمن يقضى بعدل » (١ بط ٢ : ٢٣) ، وعلى الصليب نادى بصوت عظيم وقال : « يا أبتاه فى يديك أستودع روحى » (لو ٢٣ : ٤٦) . فلنسلم أنفسنا فى يدى الله ، فى الحياة أو فى الموت ، لنسلم كرامتنا ، وسمعتنا الطيبة ، ومراكزنا الطيبة ، ومشاريعنا ، ومستقبلنا ، بدون تحفظ أو مناقشة . هو « أمين » (ع ١٩) ، والخليقة تشهد لأمانته . فالنجوم تسير بكل انتظام ، والنباتات تنمو فى مواعيدها ، والصيف والشتاء يتلاحقان بدون توقف . هو يُشبع كل الغرائز التى خلقها . وهو يصغى لكل صراخ يبعثه .

ولذلك فإنه ، بمحبته التى لا تخطئ قط ، وقدرته الفائقة ، يستجيب لكل نداء يوجهه إليه أولاده المتألمون . إن الذى خَلق أمين فى حفظ الذين يستودعون أنفسهم إليه ، كما أن من تمم الكفارة « أمين وعادل حتى يغفر الخطايا » للذين يعترفون بها (١ يو ١ : ٩) . « من الظلم والخطف يفدى أنفسهم ويكرم دمهم فى عينيه » (مز ٧٢ : ١٤) .

إن يدى إلهنا الأمين أمينتان وقويتان ، رقيقتان وعطوفتان . فسلم نفسك لهما ، وفى الحال يمسكان بك ، ويعضدانك فى حمل أثقالك . إنهما تمسكان مياه المحيطات فى كفتيهما (أش ٤٠ : ١٢) . لكن هاتين اليدين سمرتا على

الصليب . أيها المتعبون ، والمنهوكو القوى ، والمتألمون ، تشجعوا ، فإنه لن يستطيع أحد أن يختطفكم من يدى الآب . وطالما كنتم فى يديه ، فإنكم تستطيعون أن تنظروا إلى كوارث العالم بلا خوف ولا انزعاج . سوف تحملكم هاتان اليدان إلى السماء ، وتجلسانكم عن يمينه فى المجد .



٢٧ : رعية الله ورعاتهم

« أطلب إلى الشيوخ [١] الذين بينكم أنا الشيخ [٢] رفيقهم ، والشاهد لآلام المسيح ، وشريك المجد العتيد أن يُعلن . ارعوا رعية الله التى بينكم نظارا [٣] ، لا عن اضطرار ، بل بالاختيار ، ولا لربح قبيح ، بل بنشاط . ولا كمن يسود على الأنصبة ، بل صائرين أمثلة للرعية . ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذى لا يبلى » (١ بط ٥ : ١ - ٤) .

المتكلم هنا راع محنك . وإذ أحس بأن قواته الجسدية قد بدأت تضعف ، كان قلبه منشغلا بخدمته التى أحبها ، وكان يحرص جدا على أن لا تتأثر بضعف جسده . كانت غيرته قوية حتى الموت .

تصوّر كوخ راع بين جبال الشمال ، وفيه رقد الراعى الشيخ وهو قريب من الموت . لقد بدأ المرض يهد فى كيانه القوى . ووقف حوله أبناؤه ، الذين مرنهم على

(١) « الكهنة » حسبما جاء فى ترجمة اليسوعيين .

(٢) « الكاهن » حسبما جاء فى ترجمة اليسوعيين .

(٣) « متعاهدين لها » كما جاء فى ترجمة اليسوعيين .

احتمال الأخطار والمتاعب . قبل أن ينتهى الليل ويأتى الفجر ، كانت تلك الروح النبيلة القوية سوف تعود إلى الوطن الذى حنّت إليه منذ زمن طويل . ليتك تنحنى إليه ، وتصغى إلى كلماته التى يهمس بها . لاحظ أنها تخص خرافه التى يرعاها ، وكيف استودعها لبنيه ، قائلا : يا أبنائى ، ارعوا الرعية .

١- هنا نجد لمحة واضحة عن بساطة تكوين الكنيسة الأولى

حيثما اجتمع بعض من شعب الله وُجد جزء من رعيته . كانت الرعية نفسها مشتتة فى كل أرجاء العالم ، وكانت « رعية واحدة » حسب طلب المسيح ، وكما نرجو أن تكون الآن ، لأنه إن كانت هنالك حظا ئر كثيرة فهنالك رعية واحدة (يو ١٠ : ١٦) . إن كانت هناك بعض الخراف قد أُخِذت إلى ينابيع المياه الحية عبر النهر ، وكانت هنالك خراف أخرى تدوس المياه العكرة على هذا الجانب الآخر من النهر ، فالرعية واحدة ، اشتُرِيَت فى وقت واحد ، وسُميت باسم واحد ، وهى ملك لمالك واحد . وحيثما اجتمع أية جماعة من المؤمنين فهى جزء من الرعية الواحدة ، وكل قادتها الروحيين رعاة .

ومما يلاحَظ هنا أن الرسول بطرس ، إذ دعا نفسه بأنه « الشيخ [الكاهن] » ، وضع نفسه فى مستوى واحد مع الشيوخ [الكهنة] الذين خاطبهم ، مع هذا الفارق الواحد ، وهو أنه كان « الشاهد لآلام المسيح » الذى هو « رئيس الرعاة » ، الذى اقتنى الرعية بدمه (أع ٢٠ : ٢٨) .

ألا تُسطع هذه الإشارة إلى آلام المسيح بعض النور على أحلك ساعة فى تاريخ حياة الرسول بطرس ؟ فإنه إذ ركض برفقة يوحنا الحبيب إلى القبر الفارغ ، نستنتج أنه كان قد سبق أن غادر دار الولاية إلى بيته مباشرة حزينا مر النفس . لكنه استكثر على نفسه أن يبقى وحده فى البيت بينما كانت كل أورشليم فى هرج بسبب محاكمة أعز حبيب لديه ، وصلبه . ولذا فإنه حالما انفضت الجموع المحتشدة عند الجلجثة ، وخلت

الشوارع ، يبدو أنه تسلل فى الدروب والحارات إلى أن وصل إلى منظر الصليب ، ووقف من بعيد شاهدا لآلام المسيح .

هذا هو المؤهل الوحيد لرعاية قطيع الله ، ليس أن نتلقى تعليما عاليا ، ولا أن نتكلم بفصاحة فى المواضيع الروحية ، ولا أن يكون لنا مركز رسمى كبير أو بسيط فى الكنيسة . فالخادم قد يحصل على كل هذه المؤهلات لكنه لا يكون جديرا برعاية قطيع الله . لكن يجب أن يكون كل واحد « شاهدا [ناظرا] لآلام المسيح » ، ليس من الضرورى أن نتطلع بالعين الجسدية ، بل بالبصيرة الروحية ، لا بالنظرة الهوائية المتقلبة الرأى ، نظرة الجموع العابرة ، بل بنظرة المحبة الثاقبة ، التى تجد فى هذه الآلام تطهيرا للخطايا ، وبلسانا للجروح .

ونحن إذ نشهد هذه الآلام ونتطلع إليها ، فإننا لا نؤهَّل للرعاية فقط ، بل للمجد « الشاهد لآلام المسيح وشريك المجد العتيد أن يُعلن » . وعندما يتطلع المرء إلى هذه الآلام بعين العطف والإيمان ، فإنه يرى المجد العتيد أن يُعلن . فالتطلع إلى الآلام مقدمة لرؤية المجد . وحيث لا صليب فلا إكليل . لكن حيثما وُجد الصليب الحقيقى وُجد الإكليل . قد يطول بنا الزمن حتى نرى المجد الذى يلمع أمامنا بين الآونة والأخرى ، ونحن صاعدون إلى جبل التجلى سوف نراه رؤية واضحة مستديمة عندما يُعلن .

٢- شروط الرعاية

« ارعوا » . وهذه الكلمة الواحدة تتضمن كل واجبات الراعى : القيادة ، تهيئة الطعام وتقديمه ، الحراسة ، الدفاع . لا يكفى وعظ الرعية ،. أو قيادتهم فى الصلاة ، مرة أو مرتين فى الأسبوع . بل يجب أن يكون هنالك افتقاد شخصى ، والسهر على النفوس التى سوف يعطى الخادم حسابا عنها ، البحث عن الضال ، السير وراءه إلى الحفرة التى تردّى فيها ، على أن لا يستريح الخادم إلا إذا أعاد الخروف الضال إلى الحظيرة . كل هذا تتضمنه هذه الكلمة الواحدة . وعلى الراعى أن يقوم بكل هذا .

ويجب أن تكون المحبة هى الباعثة على الخدمة . إن كان الراعى يقوم بهذه الخدمة بسبب أى ضغط عليه ، أو من أجل أى أجر يقدَّم إليه ، فإنه لا يتمم المثل الأعلى المبين فى هذه العبارة : « لا عن اضطرار بل بالاختيار ، ولا لربح قبيح بل بنشاط » . لا يوجد بين جنود الله جنود مرتزقة ، أى مؤجَّرة ، ولا يوجد جنود مضغوط عليهم ، بل كلهم متطوعون . يجب أن يكون لنا قلب الراعى إن أردنا أن نعمل عمل الراعى .

كذلك ينبغى أن لا تكون محبة الراعى لرعيته مجرد العاطفة المنبعثة من الجسد ، أو من ميل النفس . بل يجب أن تكون هى المحبة التى تماثل محبة « رئيس الرعاة » نفسه . المحبة التى تحتمل دون أن تتطلع إلى رد الجميل أو الشكر ، التى تنمو حيث لا تكاد توجد تربة ، والتى تتمسك بأقل شىء يدعو إلى المحبة .

هذه المحبة تنسكب فى قلوبنا بالروح القدس فقط (رو ٥ : ٥) . إن الاهتمام بعلاج النفوس بسبب ثراء الأسرة فقط ، أو انتظارا لمنفعة مادية ، أو لمركز طيب أو نفوذ قوى ، يعتبر تدنيسا للأشياء المقدسة ، ويؤدى إلى دينونة مروّعة للراعى الأجير .

يجب أن يكون الله هو الذى دعانا للخدمة . ومتى دعانا إليها فهو الذى يعضدها فيها ، ويعطينا كل الإرشاد وكل النعمة اللازمين لتأديتها تأدية كاملة فعالة .

« ولا كمن يسود على الأنصبة » [أو « على ميراث الله » حسب ترجمة اليسوعيين] . ومع ذلك فالتعبيران يؤديان إلى نفس المعنى ، لأن الله لا يمكن أن يعطى نصيبا إلا مما يملكه . « نحن شعب مرعاه وغنم يده » (مز ٩٥ : ٧) . طالما نادانا الله قائلا : « رعيتى » . وهو الذى يخصص النفوس ليكونوا فى رعاية رعاة معينين . ليت الذين أوكلَ إليهم نصيب قليل وغير مشجع لا يستخفون به ، طالما كان الله هو الذي ائتمنهم عليه ، وهو الذي يلاحظ دواما مقدار الأمانة التي تؤدّى بها الخدمة ، وهو مستعد أن يجازى الراعى الحقيقى بإعطائه نصيبا أوفر .

إن منطقة الخدمة ، والشعب الذى نخدمه ، يجب أن يؤخذا مباشرة من يد رئيس الرعاة . فنحن لسنا إلا وكلاء له . وخدمتنا يجب أن تتم لإرضائه ، وبإرشاده . يجب أن نستشيره فى كل خططنا . يجب أن نطلب إرشاده عن أى جزء من المراعى الخضراء التى نأخذ إليها رعيتنا ، وعن المياه التى تستريح فيها . إن حدث أى تعب أو خطأ فلنلجأ إليه فى الحال ونعلمه بالأمر ، لأنه هو الكفيل بأن يرشدنا فى كل صغيرة وكبيرة . إن ارتكبنا أية أخطاء ، وتحملت الرعية أية آلام بسبب جهلنا ، فإن الخسائر تعود على رئيس الرعاة . لن يهتم أحد بما اؤتمن عليه الراعى إلا رئيس الرعاة . فهو يشترك معه فى متاعبه ومشاكله وسهره وأخطار الخدمة . يجب أن يكون هدف كل خادم حقيقى للمسيح هو إتمام إرادة رئيس الرعاة ، لا إرضاء الرعية ، ولا ابتغاء مدح الناس ، ولا اكتساب شهرة أو سمعة طيبة .

« **ولا كمن يسود على الأنصبة** » . ينبغى أن لا يكون هنالك شىء من التسلط أو الغطرسة أو الاستبداد . يجب أن لا نسىء استخدام مراكزنا . يجب أن ينال الراعى الكرامة ، لا أن يغتصبها . « وعبد الرب لا يجب أن يخاصم ، بل يكون مترفقا بالجميع ، مؤدبا بالوداعة المقاومين » (٢ تى ٢ : ٢٤ و ٢٥) .

وطالما كان الراعى - حسب العادة فى الشرق - يسير أمام خرافه ، فيجب أن يكون مثالا حسنا « بل صائرين أمثلة للرعية » . قال بولس الرسول للشاب تيموثاوس : « كن قدوة للمؤمنين فى الكلام ، فى التصرف ، فى المحبة ، فى الروح ، فى الإيمان ، وفى الطهارة » (١ تى ٤ : ١٢) . إن الذين يريدون أن يقودوا الآخرين ينبغى أن يدققوا فى تصرفاتهم لكى لا يكونوا عثرة لأحد ، بل لكى يتشجع ويتشدد الآخرون بجمال واستقامة سلوكهم .

يقينا إن الرعية تجد تعزية كبيرة فيما قيل هنا عن رئيس الرعاة. عندما يفشل الراعى فإن رئيس الرعاة يتدخل ليتمم العمل الذى أهمله أو ليعيّن غيره . لا تتذمر لأى إنسان ، بل قدم شكواك للرئاسة العليا . وإن لم يُستبدل الراعى التافه براعٍ آخر

فإنه سوف يعنى بك بنفسه ، وعندئذ تهتف قائلا « الرب راعىّ فلا يعوزنى شىء » . إنه سوف يحرص على أن يُتم كل شىء على أحسن وجه .

إن كان يوجد بين القراء من هو ليس تحت رئاسة أى راعٍ - وهذا نادر - فليعلم أنه تحت رئاسة رئيس الرعاة نفسه . وهل هنالك أفضل من هذا ؟ إن أحسن وصف لعنايته بنا نجده فى كلماته التى تستحق منا كل اهتمام . ويساعدنا كثيرا أن نقرأ ما ورد فى (حز ٢٤ : ١٢ - ١٦) .

٣- جزاء الراعى الأمين

جزاؤه الإكليل ، لا إكليل العالم الذى يذبل سريعا ، بل « إكليل المجد الذى لا يبلى » ، جزاء الخدمة الأمينة الذى لا يشيخ ، ولا يتعفن . وهكذا تبقى إلى الأبد ذكرى الخدمة المتواضعة التى نقدمها . وليس هذا هو كل ما فى الأمر ، لكى تضاف إلى الخلود بعض طاقات من المجد « إكليل المجد الذى لا يبلى » .

ويا له من جزاء سخى . يا له من تنازل عجيب . يا لفرط الفرح والسرور . إن العمل نفسه جزاء كافٍ بغض النظر عن جزاء كهذا . لكن ينبغى أن نجاهد للحصول على كل من الأكاليل الثلاثة المقدمة إلينا : « إكليل الحياة » الذى يقدَّم « للرجل الذى يحتمل التجربة » (يع ١ : ١٢) . « إكليل البر » المقدَّم « لجميع الذين يحبون ظهوره » (٢ تى ٤ : ٨) . «إكليل المجد » للذين يرعون رعيته .

وفى نفس الوقت ، لنطلب أن يظهر الرب سريعا ، ويزيح الحجاب الذى يحجبه ، ويعلن ذاته للأعيُن التى تشتاق لرؤيته ، والقلوب التى تنتظر ظهوره .

« آمين ، تعال أيها الرب يسوع » .



٢٨ : رداء النفس الطاهرة

« كذلك أيها الأحداث اخضعوا للشيوخ ، وكونوا جميعا خاضعين بعضكم لبعض ، وتسربلوا بالتواضع ، لأن الله يقاوم المستكبرين ، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة . فتواضعوا تحت يد الله القوية ، لكي يرفعكم فى حينه »
(١ بط ٥ : ٥ و ٦) .

من أبرز علامات الشخص غير المتجدد روح الكبرياء والغطرسة والاعتداد بالذات . إن الاستياء من الإهانة ، والإصرار على المطالبة بالحقوق المزعومة ، والافتخار بالعظمة ، وعرض « الفضة والذهب والأطياب والزيت الطيب » بحب التظاهر والمجد الباطل كما فعل حزقيا (٢ مل ٢٠ : ١٣) - هذه هى روح العالم .

وهذه الخطية المخادعة ، خطية الكبرياء ، يعسر أن تموت فى أولاد الله ، بل يحق لنا أن نتساءل عما إذا كان من الممكن أن نهجرها هجرا كاملا طالما كنا فى هذا العالم . إنها متقلبة فى شكلها و تتغير حسب كل مزاج ، تتلون على كل لون ، تنشب أظافرها حتى فى الشخص المتجدد . يفتخر المسيحيون ببيوتهم ، وسياراتهم ، وثروتهم ، وملابسهم ، ومراكزهم . وتفتخر المسيحيات بشخصياتهم ، وملابسهن ، ومراكزهن ، وأولادهن . ويفتخر خدام المسيح بنفوذهم ، وعظاتهم ، وبإعجاب شعبهم

بهم . وإن كلمات التملق ، والإعلان فى الصحف ، والإحساس بالنجاح ، هذه كلها تغذى روح الكبرياء ، حتى ليخيّل للخادم أن العالم كله يتحدث عنه ، وأن أعظم كلمات المديح تقصر عن أن تعبر عن الحقيقة .

وإننى أرجو قرائى الأعزاء ، وألح فى الرجاء ، حاثا كل واحد بأن يتأمل فى صفاته وسلوكه فى ضوء هذه الكلمات . ينبغى أن نقتنع بأننا متكبرون ، قبل أن نطلب نعمة التواضع الحقيقية . الكبرياء خطية من أقبح الخطايا ، ومع ذلك فإنها تجد لنفسها مكانا فى نفوس الأتقياء ، رغم إننا كثيرا ما نطلق عليها أسماء خفيفة . قد ندعوها : الاستقلال ، أو الاعتماد على الذات . كثيرا ما لا نحس بها فى إساءة الناس إلينا ، وفى اعتقادنا بأنها جرح للكرامة . نحن لا ندرك وجودها عندما تنسحب من مراكزنا إذ نحس بأن شخصا ما قد تفوق علينا ، ونرفض بأن نقارن أنفسنا به ، معتقدين بأننا لسنا أقل منه . ليس من السهل مطلقا أن نلتزم الصمت ، أو نتخذ المكان الأخير ، أو نتعلم ، حيث نحسب أنفسنا بأننا جديرون أن نُعَلِّم .

وفى بعض الأحيـان عندما يكون الأمر واضحا أننا قد هُزمنا ، وأننا ملتزمون بأن نتراجع إلى الوراء ، فإننا نبدأ بأن ننفخ أنفسنا ، ونفتخر بأننا قد تحملنا الإساءة بسرور . قد نفتخر بتواضعنا ووداعتنا ، وإذ نتظاهر بالقداسة ، قد نتخيل بأن كل الذين حولنا يعجبون بتواضعنا . أعتقد بأن الولد الراعى ، الذى أشير إليه فى كتاب « سياحة المسيحى » ، بأنه كان جالسا يغنى فى غابة واطية ، كان ممكنا له أن يتفاخر بمركزه الوضيع لو عرف بأن تواضعه يجعله خالدا . أعرف على الأقل واعظا واحدا كان يفتخر بعظاته عن التواضع ، ويتظاهر بأنه يبذل مجهودا كبيرا ليكون وديعا . وهكذا نرى أنه حتى إذا ارتدت النفس ثوب التواضع ، مهما كان بسيطا وواضحا ، فهنالك خطر شديد فى أن يصير هذا الثوب باطل الأباطيل .

« بين كل شرور طبيعتنا الفاسدة ليس هنالك ما هو أشر وأكثر انتشارا من رذيلة الكبريـاء ، ذلك الشر المستطير ، الذى ينفخنا فى نظر أنفسنا ونظر الآخـرين .

قال القديس أوغسطينوس : إن أول خطية غلبت الإنسان هى آخر خطية يغلبها . قد تموت بعض الخطايا - نسبيا - أمامنا ، أما خطية الكبرياء ففيها شيء من الحياة ، نسبيا أيضا . هى أساس كل الخطايا ، هى أول ما يعيش فينا ، وآخر ما يموت فينا . ولها هذا الامتياز أنه بينما تثير الخطايا الأخرى وتهيّج بعضها بعضا ، فإن خطية الكبرياء تتغذى حتى على الفضائل والنعم ، وتتقش عليها كالعثة ، وتلاشيها ، بل تلاشى أفضلها ، إن كنا لا نحترس منها أشد الاحتراس . يقال عن أحد أنواع الأفعوان المسمى Hydra [1] أنه إذا قُطعت أحد رؤوسه نبتت رأس أخرى . هكذا الحال مع خطية الكبرياء ، فإنها بطريقة خفية تتشبث بأفضل الأفعال ، وتفترسها . ولذلك فنحن فى أشد الحاجة إلى أن نسهر ونحاربها ، ونصلى للتخلص منها ، ونجاهد جهادا متواصلا لطلب التواضع الحقيقى العميق ، ونسعى كل يوم لنتقدم فيه إلى الأمام .

إن التشبيه المستخدم فى هاتين الآيتين مقتبس يقينا مما حدث قبيل الصليب حين اتخذ ربنا شكل العبد ، وهو عالم من أين أتى ، وإلى أين كان مزمعا أن يذهب .

« يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه ، وأنه من عند الله خرج ، وإلى الله يمضى ، قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة واتزر بها . ثم صب ماء فى مغسل ، وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ، ويمسحها بالمنشفة التى كان متزرا بها » (يو ١٣ : ٣ - ٥) . يا لجمال ذلك الرداء الذى ارتداه ، كم كان جميلا إذ خلع ثيابه ، واتزر بمنشفة ، واتخذ ذلك الموقف المتواضع . كان منظره أبهى وأمجد حتى من منظره يوم كان على جبل التجلى . يقينا أن سليمان فى كل مجده لم يلبس ثيابا أبهى مما ارتداه المسيح . وهكذا تُقدم إلينا أجمعين هذه الوصية إننا يجب أن نتسربل بهذا الرداء . « كونوا جميعا خاضعين بعضكم لبعض وتسربلوا بالتواضع » .

وكيف يمكن أن نتواضع ؟

---

(١) أفعوان خرافى ذو رؤوس كثيرة .

١- اذكروا التزامكم نحو من هم أكبر منكم سنا وأسمى مركزا

« كذلك أيها الأحداث اخضعوا للشيوخ » . كان يعتبر أمرا جوهريا فى أثينا أن الأصغر ينبغى أن يحترم الأكبر . ونحن لا نجد حتى فى وصايا العهد الجديد ما يماثل تلك الوصية التى وردت فى العهد القديم : « من أمام الأشيب تقوم ، وتحترم وجه الشيخ ، وتخشى إلهك ، أنا الرب » (لا ١٩ : ٣٢) .

نحن نحتاج إلى ترديد هذه الحكم الغالية فى آذان كل جيل جديد . قد لا نلاحظ ذلك التراخى الشديد فى مثل تلك الأمور ، الذى يزداد انتشارا فى المجتمع الحديث ، ويقوّض أركانه . ولعله يرجع إلى أن الأولاد يتدربون منذ حداثتهم على الاعتماد على أنفسهم ، أو يتعلمون أن ينضجوا قبل الأوان . ولذلك فإنهم يميلون إلى إملاء إرادتهم لا إلى الخضوع . إن الأحداث ينفرون من وضع النير على أعناقهم ، وهم لا يعلمون مقدار الحسرات المريرة التى تنتظرهم فى الأيام القادمة . وقف مرة رجل متقدم فى السن عارى الرأس وقت المطر الشديد فى أحد الأسواق العامة متذكرا فى حسرة وأنين أنه فى أيامه الأولى خرج عن طاعته لأبيه الذى كان قد توفى . « أيها الأحداث ، اخضعوا » .

طبيعى إنه توجد بعض الظروف التى يمنعنا فيها الضمير عن الخضوع . وفى مثل هذه الحالة ينبغى أن نبيّن أسباب الرفض بأى ثمن . لكن هذه الظروف نادرة . وفى كل الظروف الغامضة ، فى كل الحالات التى لا يحتج فيها الضمير الصالح احتجاجا واضحا ، يجب أن نخضع .

عندما كان الأحداث يستشيروننى عن كيفية تصرفهم إذا ما طلب منهم الوالدون الذهاب إلى أمكنة لا يوافقون عليها ، كنت دواما أجيبهم بأنهم إذا كانت ضمائرهم لا تسمح لهم مطلقا بالذهاب إليها ، مثل دور التمثيل ، أو صالات الرقص ، فليس أمامهم إلا الرفض . أما إذا كانت الأمكنة بريئة فيجب عليهم أن يخضعوا ، طالما كانوا تحت رعاية والديهم ، إذا ما أصر الوالدون على طلبهم ، وذلك بعد أن يبيّن الشبان شكوكهم أو اعتراضاتهم .

وعلى أى حال ، فإنه توجد علاقات أخرى فى الحياة غير علاقة الآباء بالأبناء . فنحن باستمرار توجد مع أشخاص خبروا الحياة أكثر منا ، أكبر منا سنا ، أو أكثر منا اختبارا ، ولهم علينا التزامات . جميع هؤلاء ينبغى أن نخدمهم دون خنوع ، وأن نكون معهم ودعاء دون خسة ، ونحترمهم دون تملق ، وأن نكون متأدبين دون رياء أو تظاهر ، وذلك على شرط أن لا تكون صفاتهم تمنعنا منعا باتا من أن نقدم إليهم أى احترام .

أما غرس هذه العادة ، عادة احترام من هم أكبر وأفضل منا ، بقصد اكتساب لون جديد من التواضع ، فهذا يعتبر خطوة كبيرة فى هذا السبيل .

٢- انتهزوا كل فرصة تُهيأ لخدمة الآخرين

« خاضعين بعضكم لبعض » . طبيعى إنه لا بد أن توجد دواما وظائف متنوعة فى المجتمع . لكن المراكز التى فيه والتى ورثناها أو حصلنا عليها ، تقدم لنا الفرص لممارسة فضيلة إنكار الذات مع كل من حولنا .

لنخضع لمضايقات الآخرين لكى نزيدهم راحة . لنخضع لمتاعبهم لكى نجعل الحياة أكثر يسرا لهم . لنخضع لاضطهاداتهم لكى نخلصهم ، ولو كلفنا الأمر إراقة دمائنا . هذا يتفق مع الوصية السابقة التى قدمها إلينا الرسول : اخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب » (١ بط ٢ : ١٣) .

اخضعوا أمام الإساءات . كمموا أفواهكم فى خضوع ، كابحين جماح كلمات الكبرياء والغضب المتحفزة للكلام . تنازلوا حتى عن حقوقكم ، فهذا أفضل من الذهاب إلى المحاكم لمحاولة الاحتفاظ بها . « من أراد أن يخاصمك [١] ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا » (مت ٥ : ٤٠) . وأنت إذ تخضع فى مثل هذه الظروف ، فليس ذلك عن استكانة أو جبن ، لكن لأنك تنتهز كل فرصة تعرض لك لتحصل على نعمة التواضع .

(١) « يقاضيك » حسب الترجمة القبطية والترجمة الإنجليزية .

ليقبل الخادم توبيخ مخدومه بروح الوداعة ، دون تفكير فى تبرئة نفسه ، إلا إذا كان خطأه يهين مجد الله . ليقبل الموظف توبيخ رئيسه بهدوء ، مستعدا لتنفيذ كل طلب عادل ، وللتعلم فى صمت . ليعترف المؤمن بكل إساءة قالها أو فعلها للمؤمن زميله ، ليعترف إليه بها بخجل ، وليكن مستعدا لتحمل أى توبيخ منه بوداعة . ينبغى أن لا نحجم عن الاتضاع أمام خدمنا أو أولادنا إن كنا قد أخطأنا إليهم .

مع أننا ينبغى أن نكون أقوياء كالصخر فى الدفاع عن الحق كما هو فى يسوع ، لكن ينبغى أن نتساهل جدا إن كان الأمر يمس سمعتنا ، أو كرامتنا ، أو مصلحتنا . وليكن هدفنا فى كل أمر هو أن نتعلم نعمة التواضع ، ونمارسها فى كل المناسبات التى يقدمها الله لنا فى طريقنا .

٣- اقبلوا كل تأديب من يد الله

« تواضعوا تحت يد الله القوية » . آه ، ما أمَرّ الآلام التى يكدسها الناس لأنفسهم بمقاومة الإرادة الإلهية . إن كنت تتبرم وتتذمر مما يرتبه لك الله ، وتخطئه لأنه لم يعطك نصيبا آخر ، أو شريكة أخرى لحياتك أو شريكا آخر ، أو وظيفة أكثر ملاءمة ، فلا يمكن إلا أن تعيش تعسا . لأن أمثال كل هذه النزعات ، التى تغلى وتثور ، وترغى وتزبد كأمواج البحر ، يكمن تحتها شعور بالكبرياء الفاشل ، الذى يعتقد صاحبه بأنه يستحق من الله معاملة أفضل ، ويعتبر أنه مظلوم .

لكن ماذا نكون نحن الذين نطلب نصيبا أفضل ؟ ألم يكن أبونا الأول بستانيا سرق فاكهة سيده ، وخُلق من التراب ، وارتكب الكثير جدا من الخطايا ؟ فلنقبل كل ما يرسله لنا الله إن أشر ما يعطى أفضل عشرة آلاف مرة مما نستحق . وأقسى ما يعطى أوضح دليل على المحبة التى لا تريد مطلقا هلاكنا . وكل ما يعطي مرتب بحكمة لن تخطئ قط فى مناسبة واحدة .

إن ظل تلك اليد القوية كثيف ومظلم ، وضغطه ساحق . وإذ أحس به داود صرخ قائلا : « يدك ثقلت عليّ نهارا وليلا . تحولت رطوبتي إلى يبوسة القيظ » (مز ٣٢ : ٤) . لكن طأطئ رأسك تحتها . قد تحس بضغطها فى آلامك الشخصية ، فى التوبيخ أو التعيير أو الاضطهاد ، أو الخسائر المادية ، أو فى أى نوع من أنواع التأديب . لكن فى كل وضع اعتبر أنه فرصة للتدريب على هذه النصيحة نحو التواضع .

« انتظرى يا نفسى ، فإن كل ما يرتبه الله جيد وصالح ، وأنت لا تستحقين شيئا أفضل . أى حق لك فى الجلوس على المائدة الملكية بعد أن خسرت هذا الحق وارتميت مع الخنازير ؟ لو كنت تنالين حقوقك لكنت الآن فى الظلمة الخارجية » .

٤- هنالك طرق أخرى

ينبغى أن ندرك قيمة أنفسنا الحقيقية . ينبغى أن نحكم على أنفسنا الآن لكى لا يُحكم علينا أخيرا .

١- **من أنت يا من تغتر بنفسك ؟** « إن نظرة حقيقية لنفسك تجعلك تنزل عن كبريائك . يتطلع الإنسان بكلتا عينيه لأى خير فيه . لكنه يغمض عينيه عن أى عيب أو نقص فيه . وكل إنسان يتملق نفسه . ليت كل إنسان يعرف جهله ، ويقارن ، ما لا يعرفه عن نفسه بما يعرفه ، ورجاسات قلبه بأية حركة طيبة فيه ، وحماقته الدفينة بتصرفاته الظاهرة التى بلا لوم . وعندئذ لا يمكن إلا أن يتواضع ويقدر نفسه حق قدرها .

٢- **عوّد نفسك على التطلع إلى الخير الذى فى الآخرين .** يقارن الكثيرون منا أفضل ما فيهم بأسوأ ما فى الآخرين . وطبيعى أن نستنتج بأننا أفضل منهم ، على الأقل فى تقديرنا لأنفسنا . فنحن نحرص جدا على التطلع إلى

نقائص الآخرين لا إلى فضائلهم . نحن نتطلع إلى نقائصهم بمنظار مكبر ، لكننا ننظر إلى فضائلهم بمنظار معكوس . لكن إن دققنا النظر فى فضائلهم كما ندقق النظر فى نقائصهم ، ومجّدنا كل ما هو جميل فيهم وما صيته حسن ، وتأملنا فى هذه الأمور ، فإننا عندئذ نتبين تفاهة أنفسنا .

٣- **تقبل كل خير من أى مصدر كأنه من يد الله ، واشكره .** جميل جدا أن ننال الشكر والتقدير من الناس ، أن يحيط بنا أصدقاء محبون يتحدثون عنا حسنا ، وينبغى أن نشكر الله عندما تشرق علينا ساعات كهذه ، فإنها من المستحيل أن تدوم إن كنا غير مخلصين لله . وطالما بقيت فهى لا يمكن أن تؤذينا ، إن كنا نحوّل كل مديح لمجد الله ، شاكرين ذاك الذى يعطى كل عطية صالحة وكل موهبة تامة . عندئذ نخرج من كل محنة دون ارتكاب أى إثم .

٤- **تمثل بتواضع المسيح .** إذ تسير فى العالم لا تكتف بمقاومة الكبرياء ، بل اتخذ من كل تجربة بالكبرياء فرصة لرفع قلبك إلى المسيح لكى تنال منه المزيد من تواضعه . ردد دواما هذه العبارة : « هبنى تواضعك يا رب » .

وهنالك الكثير من البواعث نحو هذه الغاية :

« **يقاوم الله المستكبرين** » كأن الله يشهر الحرب . من المستحيل أن ننجح فى مقاومة الله . فإن هلاك فرعون فى البحر الأحمر دليل قوى دائم على فشل الإنسان فى مقاومة الله . قد يبدو النجاح وقتيا ، لكن الفشل محقق ، ونهائى .

« **أما المتواضعون فيعطيهم نعمة** » . « إن الندى الجميل الذى يسكبه الله من السماء ، والنعم الوفيرة التى تهطل علينا كالمطر ، تزحزح جبال الكبرياء ، وتهبط على الأودية الواطئة للقلوب المتواضعة ، فتجعلها جميلة

مخصبة . القلب المنتفخ المتخيل بأنه قد امتلأ ، لا مجال فيه للنعمة . والقلب المتواضع متسع جدا ، لأنه أُخلِيَ من كل معطل ، ولذلك يتسع للمزيد من النعمة » .

إن السفن الكثيرة الحمولة تغطس فى الماء إلى مدى أبعد ، والتى تغطس إلى مدى أبعد ، دون أن تتعرض للخطر ، هى الأكثر حمولة . آه ، ليت لنا القلب المتواضع الذى يتسع للكثير من النعمة ، وإذ يزداد امتلاء ، فإنه يزداد احتقارا لنفسه .

« **يرفعكم فى حينه** » . « العرج نهبوا نهبا » (أش ٣٣ : ٢٣) . « طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض » (مت ٥ : ٥) . ورئيس المتكأ يأمر الذين اتخذوا الأماكن الأخيرة بالارتفاع إلى أسماها . وموسى أكثر الناس حلما ووداعة علّم العالم مبادئ علم التشريع . وأماكن الاستشهاد صارت عروشا يجلس عليها الشهداء لدينونة العالم فى كل الأجيال التالية . والودعاء هم أصحاب السلطان الحقيقى فى المدينة أو القرية . والذين يموتون على الصليب يجتازون من القبر إلى جبل الصعود .

أيها القارئ العزيز ، تواضع ، ليس فى الشكل الخارجى فقط ، بل فى روحك فى الداخل ، « يرفعك - لا اليوم ، ولا غدا - بل فى حينه » لترث الأرض .





٢٩ : ماذا نفعل بهموم الحياة

« ملقين كل همكم عليه ، لأنه هو يعتنى بكم » (١ بط ٥ : ٧) .

كل كلمة فى هذه الآية النفيسة ذهبية . وقيام هذه الآية هنا كوصية إلهية برهان ليس فقط على ما يمكننا أن نتممه ، بل على مقدار استعداد الله على أن يعيننا لنعمله . وهو يعيننا على إتمام ما يأمرنا به . وكل كلمة من كلامه مقترنة بالقوة . ونـوره حياة . إن كنت فقط تريد بأن تحيا هذه الحياة السعيدة ، الحرة ، الخالية من الهم ، وتتجاسر على أن تطأ على الأمواج تحرسك عنايته ، وتعتزم أن تطيع ، فإنك تجد أن قوة عجيبة تأتيك من لدنه ، لتجعل الطاعة ممكنة .

إن إطاعة هذه الوصية أمر ضرورى جدا . بهذا فقط تنال السلام والقوة . نحن لا نقدر أن نحتمل ضغط العمل والقلق والاضطراب . هنالك أمران يحُولان بين النفس وبين الله : الخطية وهموم الحياة . ويجب أن نكون مستعدين لإلقاء همومنا على الرب بقدر استعدادنا للاعتراف بخطايانا له ، وذلك إن أردنا أن نسلك فى النور كما أنه هو فى النور . إن نباح كلب واحد قد يوقظنا من نومنا فى الليل الهادئ . وذرة تراب واحدة فى العين تجعلها عاجزة عن التمتع بالرؤية الكاملة . وهَمّ واحد قد ينزع سلامنا ، ويخبىء عنا وجه الله ، ويجعل النفس كئيبة حزينة . فلنلق كل همنا عليه إن أردنا أن ندرك بركة الشركة المستديمة .

وعلاوة على البركة التى نخسرها باستسلامنا للهموم ، يجب أن نذكر أن مثل هذا التصرف يحزن الله ويهينه . إنه يحزنه ، لأن المحبة تحزن عند الشك فى إخلاصها . وهو أيضا يهينه جدا . نحن ندين الأب مما نسمعه من كلمات بنيه ، ونـراه فى سلوكهم . إن رأيناهم يكادون يموتون جوعا ، أو بؤساء ، أو يتطلعون إلينا بتلهف طالبين أقل مساعدة ، أو يشكون بمرارة من ضآلة نصيبهم فى الحياة ، فإننا نستنتج بأن أباهم قاسى القلب ، مهما كانت ثروته ، ثم إننا نبتعد عنه على قدر ما نستطيع . وإن كان العالم يحكم على الله من نظرات وكلمات الكثيرين من أولاده ، فهل نتعجب إن رأيناه ينفر من الله بدلا من أن يزداد اقترابا منه ؟ لأن أهل العالم يظنون وقتئذ أنه إما أن يكون الله لا وجود له ، أو أنه يعجز عن مساعدة أولاده ، أو أن محبته غير يقينية ، أو أنه لا يبالى باحتياجات أولاده . لا بد أن تكون هذه هى استنتاجات الكثيرين عندما ينظرون إلى شعب الله المتعبين ، والثقيلى الأحمال ، الذين أحنت الهموم ظهورهم ، ويلاحظون نفوسهم الكئيبة .

نحن إما أن نكون مؤمنين حقيقيين أو مزيفين ، إما أن نجذب الآخرين إلى المسيح أو ننفرهم منه . وهذا يتوقف كثيرا على موقفنا بإزاء هموم الحياة .

طبيعى أن الحيـاة لا يمكن أن تخلو من التأديب . فأبونا السماوى يعاملنا كبنين . وأى ابن لا يؤدبه أبوه (عب ١٢ : ٦ و ٧) ؟ وهذه الضربات من قضيبه ، هذه الكؤوس التى مزجتها يده ، يجب أن تكون مُرّة على الجسد . لكن هذا كله يختلف عن « الهم » . قد تتوفر الآلام ، لكن لا يوجد أى مجال للشك فى محبة الآب ، لا خوف من جهة نتيجة الآلام ، لا تشاؤم من جهة المستقبل البعيد الذى تراه عين الإيمان مشرقا بأبهى أمجاده مهما تكاثفت الغيوم القاتمة .

« الهم » ، بحسب منطوق الكلمة اليونانية ، هو ما يحوّل النفس عن واجبها الحالى إلى التفكير المضنى فى كيف تقابل الحالات التى قد لا تأتى مطلقا . « الهم » هو القلق ، والاضطراب ، والانزعاج ، هو التعود على انتظار الشر مقدما ، هو عبور

قناطر لم نصل إليها بعد ، هو التشاؤم من جهة المستقبل ، هو انشغال البال بأخطاء الماضى ، وحصر التفكير فى الظلمات التى قد تأتى بها الحوادث القادمة ، بدلا من التفكير فى محبة الله وإرادته .

١- كيف نعالج الهموم

« **ملقين كل همكم عليه** » . لا يدل الفعل فى اللغة اليونانية على أننا نستمر فى إلقاء الهم ، بل نلقيه مرة واحدة .

من ذا الذى لم يُختبر ، عند الاستيقاظ فى الصباح ، الشعور بالضيق ، والاستماع إلى الصوت يهمس بقصة طويلة عن الأثقال التى يجب تحملها ، والمشاكل التى يجب مواجهتها إذ تمر الساعات .

- يقول ذلك الصوت : « آه ، يا له من يوم تعس ذلك الذى بدأ الآن » .
- فنتساءل فى خوف وفزع : « وكيف يكون هذا ؟ » .
- « اذكر بأنك يجب أن تقابل ذلك الدائن الذى يطالب بدينه ، وتلك المشاكل التى يجب حلها ، وتلك الثورة التى يجب تهدئتها ، وتلك الأمزجة العنيفة التى يجب مواجهتها . لا فائدة من الصلاة ، لكن من الأفضل أن تلبث حيث أنت ، وتنتظر لترى ماذا يحدث . لا مفر من الكارثة القادمة » .

وكثيرا ما استسلمنا لهذه الإيحاءات . وإذا ما صلينا تكون صلاتنا صلاة اليائس ، نلتمس معونة الله ، لكننا لا نجسر على الاعتقاد بأنه سوف ينجى . لا تتوفر الثقة أو اليقين فى الداخل ، ولا الهدوء فى الخارج . وتصير الحالة تعسة للبعض . فإنهم يقضون حياتهم هكذا دواما ، فى انزعاج مستمر ، يجاهدون ضد العواصف والأمواج بدلا من أن يمشوا فوق المياه الثائرة ، ويمشون فى الممرات الصخرية بدلا من أن يُحملوا بمركبات الله .

كم هو أفضل جدا جدا أن نلقى همنا على كتفى المسيح القويين . عالج الهموم كما تعالج الخطايا . سلمها ليسوع ، الهم بعد الآخر . ألقها عليه . قل له وأنت تتطلع إليه بروح الإيمان : « يا رب ، لا يمكننى أن أحتمل هذا الهم ، وذاك . أنت قد حملت خطاياى ، فاحمل همومى . إننى ألقيها عليك ، واثقا أنك سوف تعمل لى كل ما أحتاج ، وأكثر مما أحتاج » . « هو ذا الله خلاصى فأطمئن ولا أرتعب » (أش ١٢ : ٢) . قال أحدهم : « ضع الهم على كاهل المسيح » .

ليس هنالك طريق أكثر ضمانا للراحة من أن نحوّل إلى يسوع كل هموم الحياة ، واثقين من أنه يستلم ما نسلمه إليه فى نفس اللحظة ، وأنه يفعل لنا الأفضل . ويقينا إنه يعتبر سرقة إن كنا نسترد ما سلمناه ليده . « مبارك الرب يوما فيوما . يحملنا إله خلاصنا [1] » (مز ٦٨ : ١٩) .

هنالك تمهيدان أو ثلاثة قبل أن نتمكن من إلقـاء هذا الهم على الله . ينبغى أن نلقى خطايانا عليه قبل أن نلقى همنا عليه . وبتعبير آخر ، ينبغى أن نكون أبناء فى بيت الآب . ثم ينبغى أيضا أن نحيا فى دائرة خطة الله ، واثقين من أننا موجودون فى المكان الذى يريدنا أن نكون فيه ، حالين حيث يحل عمود السحاب . وعلاوة على هذا ينبغى أن نسلم له حياتنا ، ومُكرّسينها له ليعمل فيها كما يشاء . كذلك ينبغى أن لا نتغافل عن تغذية إيماننا بمواعيده ، لأن الإيمان إن لم يجد غذاءه الطبيعى يصير هزيلا .

أما إذا تُممت هذه الشروط ، فإننا لا نجده عسيرا أن نجثو عند قدميه ونطرح عليه كل أثقالنا ، وعندما ننتهى من الصلاة نقوم ممتلئة قلوبنا فرحا وسلاما .

ربما يكون الكأس لا زال مهيأ لنشربه ، والتأديب معدا لنتحمله ، لكن ألم الهم المضنى ينبغى تسليمه لمن لا يخيب رجانا .

---

(١) « مبارك الرب الذى يحمل أثقالنا يوما فيوما » حسب الترجمة الإنجليزية المنقحة .

٢- أنواع متعددة من الهموم

هنالك هم نمونا فى النعمة . هذا أمر غير معقول بالمرة ، لكنه لا يزال متفشيا جدا . نحن نضطرب خوفا من أن لا نكون سائرين بالسرعة الواجبة ، ونتجول هنا وهنالك متلهفين على أن نلتقط شيئا من الآخرين . ومثلنا فى هذا كمثل ولد فى الفصول الأولية ينزعج لأنه لا يقدر دخول الفصول العالية فى المدرسة . لكن يقينا إن واجبه الوحيد هو أن يتقبل الدروس التى يقدمها إليه المدرس . وعندما يتعلمها يكون واجب المدرس أن يقدم إليه دروسا أعلى ، وينمى معلوماته أكثر فأكثر .

فواجبنا إذن هو أن نتعلم كل يوم الدروس التى يقدمها لنا الرب يسوع ، ونترك له مسئولية تقدمنا فى معرفة الله ومحبته . ألق على قائد النفوس الأعظم هم تقدمك ونموك ، وارتض أن تجلس عند قدميه لتتعلم الدروس التى يحددها هو .

وهنالك هَمّ خدمتنا الروحية . كيف نحتفظ بشعبنا وسط منافسات الخدام المجاورين لنا ؟ كيف نحتفظ بمقدرتنا وقوتنا ؟ كيف نسوى الخلافات بين زملائنا فى الخدمة ، أو بين المرؤوسين لنا ؟ كيف نجد مادة تكفى لإعداد العظات والدروس التى لا تنقطع ؟ كيف نرعى قطيعا كبيرا من النفوس ؟ ما هى عناصر الهم المستترة وراء كل هذه النواحى ؟ وما هى الهموم التى لا يحصى لها عدد ، المرتسمة على الوجوه ، والتى تنم عن وجع القلب فى الداخل ؟

والمرء يميل إلى توجيه هذا السؤال أحيانا : **من هو المسئول عن كل هذا ؟** لو كانت المسئولية ملقاة على كتفيك وحدك لحق لك أن تحمل الهم . أما إن كانت الخدمة هى خدمة الرب ، فيجب أن تكون المسئولية هى مسئولية الرب أيضا . لست أنت العامل الرئيسى ، بل المسيح . فهو الذى يعمل بك . وأنت لست إلا عبده . كل مسئوليتك هى أن تتمم بكل قدرتك كل ما يأمرك به ، وهو الذى يتحمل كل المسئولية . إن كانت الأمور لا تسير بسهولة فاذهب وحدثه ، وألق عليه همك ، تاركا له أن يعفيك من هذا النوع من الخدمة ، أو أن يعضدك للقيام بها .

هنالك همّ جزر ومد الحواس . إن حواسنا متغيرة جدا . فهى تتأثر بتغيرات الجو أو الحرارة ، بحالة الهضم أو صحة الكبد ، بالإجهاد الكثير ، أو عدم كفاية ساعات النوم ، أو بأسباب كثيرة جدا أخرى . لا توجد آلة وترية تتأثر بالتغيرات الدقيقة مثلنا . ونحن نميل إلى الارتباك عندما نُجهد فوق طاقتنا . لكن إن كنا لا نشعر بأية خطية أو إهمال يُعزى إليه هذا الإجهاد ، فيجب أن نلقى هذا الهم على مخلصنا . هو يعرف جبلتنا . وعندما نكون منحدرين فى السلم المظلم فلنمسك بدرابزين مشيئته ، معتزمين على الاستمرار فى إتمام مشيئته ، حتى ولو كنا فى الظلام ، مرددين هذه الكلمات : « لا زلت ملكا لى ، مكرسا لك ، ولو كنت فى الظلام ، كما كنت فى أسعد أوقاتى » .

وهنالك همّ المسئوليات العائلية والأعمال التجارية . مسئولية الخدم ، مع تغيراتهم المستمرة ، أصحاب الأعمال ، مع أوامرهم غير المعقولة ، الزبائن والمستخدمين ، المديونين والدائنين ، الأبناء الصغار بأمراضهم ، والشبان بتمرداتهم . كل من هذه المسئوليات يحنى ظهر المرء بالهم المرير .

هنالك بعض الأشخاص لا هم لهم إلا خلق الأفكار المربكة المضنية . يتخيل الكثيرون من المسيحيين دواما أنهم سوف يصلون إلى حالة الفقر الشديد ، ويرفضون التمتع بالخيرات التى فى مقدورهم ، بسبب بعض العوامل المخيفة التى يتوهمونها . أسفا على ذلك المعمل من الأوهام الذى يعرقل الكثيرين فى مسيرهم . لكن كل مصدر من مصادر الارتباك هذه قد يصبح واسطة من وسائط النعمة ، رابطة بين يسوع والنفس ، إن كان يوضع عند قدميه ، ويسلّم تسليما كليا لعنايته .

لا تكتف بأن تلقى بنفسك على الله ، بل الق عليه همك أيضا . فإن الذى يقدر أن يحمل الواحد يحمل الآخر أيضا . أراد ولد صغير أن يعاون والده فى نقل كتبه . فتعثر على السلم وهو يحمل مجلدا ضخما . وعندئذ ركض إليه أبوه وحمله وحمل المجلد أيضا وأعاده إلى غرفته . وهل يعاملنا الله بأقل من هذا ؟ إنه لا يهملنا

ولا يتركنا . يستطيع أن يحطم الصخور ، ويشق طريقا فى البحر ، ويفتح خزائن الريح (مز ١٣٥ : ٧) . إذا ما أمر الغربان أتت « بخبز ولحم صباحا ويخبز ولحم مساء » لأولاده (١ مل ١٧ : ٦) ، وإذا ما أمر السمكة فتحت فاها وقدمت القطعة المالية اللازمة لعبيده وقت حاجتهم إليها (مت ١٧ : ٢٧) . « هو ذا الجزائر يرفعها كدقة » (أش ٤٠ : ١٥) ، فكم بالحرى يقدر أن يحمل أثقل أحمالك . ولذلك لا يوجد شىء أتفه من أن تجعله مادة للصلاة والإيمان .

كلما أردت أن تعمل أى شىء ، أو كلما حلت بك الآلام ، أو عند الشروع فى أية مهمة ، اذهب وحدّث الله عنها ، وأعلمه بها ، أبقها عليه ، وعندئذ تستريح ، ولا يبقى أى مجال للهم ، بل تجد نشاطا حلوا فى تأدية واجباتك ، وسرورا فى الاعتماد عليه لتسيير أمورك . « سلّم للرب طريقك ، واتكل عليه وهو يُجرى » (مز ٣٧ : ٥) .

٣- هذه الطريقة للحياة معقولة

« لأنه هو يعتنى بكم » . طبيعى إننا إذا ما أصرينا على العمل من أجل أنفسنا فقط ، فيجب أن نبذل كل ما فى وسعنا من أجل أنفسنا . لكن إن استطعنا أن نسلم كل الأمور لله ، فإننا لا بد أن نجد بأنه عمل أفضل جدا مما كنا ننتظر . وهكذا تقتضى محبة الله لنا أنه دواما يتخطى كل حدود تفكيرنا . فهو « القادر أن يفعل فوق كل شىء أكثر جدا مما نطلب أو نفتكر » (أف ٣ : ٢٠) .

إن كان الأب يدبر احتياجات الغد فلماذا يترك ولده الصغير لعبته ، ويستند إلى الحائط مفكرا بارتباك فيما كان يجب عمله ؟ إن كان مرشد السفن فى البوغاز والأماكن الخطرة قد ركب السفينة فلماذا ينزعج ربان السفينة ؟ إن كان هناك صديق حكيم ، قوى ، مقتدر جدا ، قد تعهد بتسوية مشكلة تربكنى ، وأنا أثق فيه ثقة كاملة ، وهو أكد لى بأنه قادر على تسويتها ، فلماذا أستمر فى الانزعاج ؟ ينبغى أن أعتبر بأن المهمة قد تمت طالما كان هو قد استلمها .

هل هنالك هوة عميقة بينك وبين الله ؟ هناك أيضا قنطرة فضية أقيمت فوقها ، هى العناية الإلهية . فالله يعتنى بك عناية شديدة جدا لدرجة أنه هو بنفسه أتى إليك فى شخص ابنه الوحيد لكى يفديك . لم يكن هنالك قط وقت لم يحبك فيه ، ويرفرف فوقك بجناحيه ، ويعتنى بك . هو يعتنى بك جدا لدرجة أنه يصغى لأقل تنهداتك وسط أصوات الموسيقى السماوية ، وتسبيحات القديسين . وقلب الله نفسه ملىء بالاهتمام بكل ما يعنيك . لا توجد أم تهتم بطفلها المريض كما يعنى هو بك . هو يرى كل احتياجاتك قبل أن تصرح أنت بها بوقت طويل ، أو حتى قبل أن تشعر بها . فلنثق فيه . اللسان يعجز عن التعبير عن مقدار اهتمامه بأن يجمعنا حوله ، ويظللنا بجناحيه ، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها . « أريد أن تكونوا بلا هم » (١ كو ٧ : ٣٢) .

٣ : صراع .

« اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمسا من يبتلعه هو . فقاوموه راسخين فى الإيمان عالمين أن نفس هذه الآلام تجرى على إخوتكم الذين فى العالم »

(١ بط ٥ : ٨ و ٩) .

يبدو أن صورة القطيع كانت لا تزال فى فكر الرسول ، وأنه قد استعاد من ذاكرته حادثة كالتى رواها داود النبى والملك ، حينما وقف أمام شاول الملك وهو شاب صغير ، وروى كيف أنه حفظ غنم أبيه إذ أتى أسد وخطف شاة من القطيع ، فخرج وراءه وقتله ، وأنقذ الشاة من فيه ، ثم أمسكه من ذقنه وضربه فقتله (١ صم ١٧ : ٣٤ و ٣٥) . مهما كانت الحظيرة أمينة ، والحراسة فيها قوية ، فلا يمكن أن يوجد قطيع فى مأمن من الوحوش المفترسة التى تكتظ بها الصحراء . وهذه فى الليل بصفة خاصة تهيم على وجهها باحثة عن النقطة الخالية من الحراسة ، أو عن الخراف المتغافلة ، ومالئة الليل بزئيرها المزعج .

إن صورة الأسد الزائر حول الخراف تذكرنا بالتحذير الذى وُجّه قديما لقايين قائلا إن الخطية رابضة - كوحش مفترس - عند باب قلبه ، متحفزة للهجوم (تك ٤ : ٧) . ونحن لا ننسى كيف أن ربنا تحدث عن مجىء الذئب إلى الخراف التى اؤتمن عليها الراعى

الأجير ، فيملأه خوفا ، الأمر الذى يسبب تبديد الخراف . إن الأمر واضح بأن الشيطان لم يكن شخصية خرافية أو وهمية لدى كتبة العهد الجديد . فمنذ الإشارات الواضحة التى فيها أشار إليه ربنا ، إلى الحرب الأخيرة التى وصفها الرائى فى سفر الرؤيا ، والتى فيها يتلاشى نهائيا ، توجد أدلة كثيرة وقوية أن الشيطان من وراء المنظور يقوم بثورة عارمة ضد ملكوت الله ، وأنه بذكائه ودهائه يأتى بأسوأ ما لديه ضد قديسى الله . ومن ضمن دهائه أنه يدفع الناس إلى الاعتقاد بأنه لا يوجد شيطان على الإطلاق . إن عصابة اللصوص لا يشتد خطرهم إلا عندما تذاع الإشاعات بأنهم قد غادروا الجهات المجاورة . وكل خدعة تدفعنا إلى عدم السهر والاحتراس لا بد أن تنجح .

لا داعى للافتراض أن الشيطان نفسه يراقب كل أولاد الله ويهاجمهم ، لأن هذا يعنى أنه عليم بكل شىء ، وحاضر فى كل مكان . لكن الواقع أن ربوات من الأرواح الشريرة تعينه وتعضده ، وكل روح مستعد لإتمام إرادته وتنفيذ خططه . وكل هذه الأرواح - باختباراتها الطويلة عن ضعفات الطبيعة البشرية ، وبما فيها من خبث ضد الله ، وبسهرها الذى لا يكل ، وتحفزها للإساءة - لا تهدأ نهارا أو ليلا ، بل تتجول كأسد زائر ملتمسة من تبتلعه ، كما قال الرسول . والواقع إننا قد نفقد كل رجاء فى إمكانية مقاومة هجماته لو لم نعرف بأن كل هجماته قد صدها نيابة عنا قائدنا العظيم ، المستعد أن يغلبه ثانية فى كل ، وبكل ، ومن أجل كل من يضعون فيه كل ثقتهم .

آه ، يا من انتصرت فى بستان جثسيمانى ، وعلى الصليب ، وفى صباح يوم القيامة ، وهزمت الشيطان أثناء إقامتك على الأرض ، تفضل واهزمه ثانية فى كل واحد منا ، لكى يعظم انتصارنا ، « لأن الذى فينا أعظم من الذى فى العالم » (١ يو ٤ : ٤) .

١- اللفظ الذى أطلق على المجرب هنا

هو خصمنا . لم يخطىء زكريا النبى عندما قال إنه رأى الشيطان قائما - كخصم - عن يمين الكاهن العظيم المتشح بثيابه الفاخرة ليقاومه (زك ٣ : ١) . لأنه عندما أزيح الستار ، فى المحادثة الرهيبة ، فى افتتاحية سفر أيوب ، تبين الشيطان وهو يتهم أيوب بأن الباعث على استقامته مغنم مادى « هل مجانا يتقى أيوب الله ؟ أليس أنك سيجت حوله وحول بيته وحول كل ما له من كل ناحية . باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الأرض . ولكن ابسط يدك الآن ومس كل ما له فإنه فى وجهك يجدف عليك » (أى ١ : ٩-١١) . وهكذا عندما طُرح من السماويات ، تمهيدا لطرحه إلى أسفل ، للهاوية التى لا قرار لها ، فليس عجيبا إن كان قد سمع صوت عظيم شامت لأنه « قد طرح المشتكى على إخوتنا الذى كان يشتكى عليهم أمام إلهنا نهارا وليلا » (رؤ ١٢ : ١٠) . لكن الهزائم التى منى بها لم تفعل شيئا سوى أنها زادت حقده ، فصار الآن يجول فى الأرض بغضب متزايد لأنه يعلم أن قدرته قد وُضع لها حد ، ويعلم « أن له زمانا قليلا » (رؤ ١٢ : ١٢) .

وهو « كأسد زائر يجول » . إن تهديداته مرعبة ، تبعث الخوف فى قلوب الجبناء . لكن يجب أن نذكر أن ثورته عديمة التأثير . فإن ما فقده من قوة يعوضه فى الزئير . هو يبغض راعينا العظيم ، مع أنه يعجز عن أن يمسه بأى ضرر الآن . لقد فعل به أسوأ ما لديه ، لكنه فشل . إنه يكتفى بالزئير ، ومع ذلك فهذا أيضا عديم الجدوى . قال أحد القديسين إنه يفضل أن يتعامل مع إبليس يزأر . إنه ليملأ الشيطان حزنا مضاعفا وخبنا أن يدرك بأن أضعف قديس أقوى منه إن كان يقاومه راسخا فى الإيمان ، ومسلحا بسلاح الله الكامل (ع ٩) . قال رئيس الرعاة : « خرافى لن تهلك إلى الأبد ، ولا يخطفها أحد من يدى » (يو ١٠ : ٢٨) .

وهو « يجول ملتمسا من يبتلعه » . لا توجد حظيرة [كنيسة] لا يتلهف على زيارتها ، قاصدا تعطيل خدمتها الناجحة ، أو محاولا أن يختطف أعضاءها

المتكاسلين . لا يوجد أسقف نشيط فى أبروشيته بقدر نشاط الشيطان . إنه يمتلئ فرحا وسرورا إن كان فقط يفسد التعاليم المسيحية بالآراء الخاطئة، بحيث تحمل كل عظة ضلالات تعطل حقها وقوة مفعولها ، إن كان يدفع قادة الكنيسة إلى ما يعرقل تأثير شهادتهم ، إن كان يدفع الضعفاء إلى خطايا الكبرياء ، أو الغيرة أو الحسد ، أو الملذات الجسدية ، أو الارتداد ، إن كان يبدد القطيع بالاضطهادات ، أو يدفنه بعاصفة ثلجية فى التمسك بمجرد الشكليات ، أو يغرقه فى طوفان الماديات . وهو دواما يسهر مترقبا أية فرصة كهذه . هو دائم « الجولان فى الأرض والتمشى فيها » (أى ١ : ٧) .

الشيطان يجعل قلبه دواما على القديسين « هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ » (أى ١ : ٨). لن يتغافل قط عن أى إهمال فى تأملات الصباح الباكر ، أو عن أية مرة نسمح فيها لأقل فكر شرير ، أو عن عدم السهر ، أو عن أية مداعبة مع الخطية . لن تفلت من يده أية فرصة دون أن ينتهزها ضد أولاد الله . نحن نصارع مع خصم قوى وعنيد وعديم الرحمة ، يسرع فى إشهار سلاحه ، سيما عندما نعطيه الفرصة . فما أشد حاجتنا إلى دوام السهر لكى نقاوم هجماته . « فاصحوا واسهروا » (ع ٨) .

وما أشد حاجتنا أيضا إلى دوام التضرع للذى يرى التجربة قادمة فيسبقها بشفاعته . « سمعان سمعان ، هو ذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة . ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك » (لو ٢٢ : ٣١ و ٣٢) .

٢- هدف التجارب الشيطانية

عندما أراد الشيطان أن يجرب مخلصنا استطاع المخلص أن يقول بحق : « رئيس هذا العالم يأتى وليس له فى شىء » (يو ١٤ : ٣٠) . لكنه هو وحده الذى استطاع أن يقول هذا . أما فى سائر البشر فيوجد ميل للخطأ ، وهذا هو الذى يلجأ إليه خصمنا العنيد . وقبل أن نرجو بأن نهزم هجماته التى من الخارج ، يجب أن نحرص على أن نكون قد اتخذنا عدتنا الداخلية نحو تقوية شركتنا مع الله . لا يمكن أن ننجح فى مقاومة الهجمات التى من الخارج طالما كان هنالك تمرد فى الداخل .

ومن أجل هذا حرص الرسول - فى بداية الأصحاح السابق - على معالجة موضوع الجسد . لأننا إذا ما اختبرنا حقا ما يريد الله أن يعمله نحو الجسد ، فعندئذ فقط نستطيع بنعمته أن نقف أمام خصمنا العنيد ، أو نداوم السهر والحذر . ولعلنا نجد هنا إشارة للنصيحة التى قدمها الرسول « اصحوا واسهروا » .

عندما خرج الإنسان الأول من يد الخالق فإن كل غرائزه الطبيعية ورغباته ، التى كانت فى حد ذاتها طاهرة وضرورية ، كانت تحت قيادة الإرادة ، التى كانت هى نفسها مخلصة لله ، تريد ما يريده الله ، وتطيع كل إيحاءات روحه القدوس . لكن الإنسان انحرف عن هذه الحالة المباركة ، وأحل الذات محل الله ، ، وأحل ملذاته الشخصية محل ناموس الله وإرادته . ومنذ ارتكاب تلك الخطية الواحدة المميتة ، انتقل إلى كل الأجيال التالية ميل للشر ، ورغبة فى تكرار تلك الخطية الأولى فى صور مجسمة ، واستعداد طبيعى لإشباع الغرائز الطبيعية دون أى اعتبار للمطالب الإلهية . وهذا الميل الموروث يعزى لفعل ذلك المبدأ العظيم ، الذى يلقبه العلماء بأنه هو ناموس الوراثة ، والذى يعمل فى كل أجناس المخلوقات ، والذى أصبح معروفا فى كل العالم .

أما المجال الذى يظهر فيه هذا الميل الموروث فهو يتناسب مع شهوات ورغبات الجسد ، الذى تدخلت فى أعماله الطبيعية عوامل كثيرة فى كل الأجيال المتعاقبة ، وإذ تصل إلينا أعماله الطبيعية هذه ، فإنها تحمل الدليل على مقدار ما خضعت إليه من إساءة تصرف أجدادنا . ورغم أن هذه البواعث الطبيعية قد فسدت فى تصرفاتها ، فإنها لا يمكن أن تدبر الخطية إلا بعد أن تلهب التفكير ، وتأسر القلب ، وتغلب الإرادة . والواقع إنه لا يوجد بيننا من لم تؤثر فيه هذه البواعث مرارا وتكرارا ، وإذ تفعل هذا فإنها تضاعف ميولنا للشر . وهذا الميل المعكوس لشهواتنا ، المقترن بالتأثير الحتمى على الحياة الداخلية ، هو ما تسميه كلمة الله « الجسد » . « الجسد مع الأهواء والشهوات » (غل ٥ : ٢٤) . « نحن أيضا جميعا تصرفنا قبلا بينهم فى شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار » (أف ٢ : ٣) .

لقد دان الله هذا الجسد فى شخص يسوع المسيح ، الذى جاء فى شبه جسد الخطية ، وسمّره على الصليب . هنالك ، فى الجلجثة ، نرى حكم الله على الجسد . وفى فكر الله وقصده صُلب جسدنا هناك . « عالمين هذا أن إنساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطية » (رو ٦ : ٦) . « ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد » (غل ٥ : ٢٤) . وهذه الحقائق لم يختبرها شخص واحد أو اثنان ، بل جميع القديسين ، الذين يمثلهم الرب يسوع المسيح . آه ، ليت تقصيرنا فى الإيمان والطاعة لا يسبب مثل هذه الثغرة المتسعة بين ما ينبغى أن يكون عليه كل القديسين فى قصد الله وفكره ، وبين ما هم عليه الآن فى حياتهم العملية .

لكن الله قد فعل أكثر من صلب الجسد . لقد منحنا روحه القدوس ، الذى يعمل بصفة رئيسية على أن يعيد للحياة الداخلية ، وللجسد أيضا ، كيانها الطبيعى المستقيم . يعتقد البعض أن الله ينتزع كلية ذلك الميل الشرير ، بحيث يصيرون مثل آدم قبل السقوط . ونحن نعتقد أن هذا يخالف تعاليم الكتاب المقدس ، الذى يعترف بوجود الجسد فى المؤمنين ، مع أنه ينادى صراحة بأنهم « ليسوا فى الجسد » . لكن الروح القدس يتوق إلى أن يحل فى كل مؤمن بقوة ، كعامل مضاد ومقاوم ، لكى يشتهى ضد الجسد ، ويكبح جماحه ، ويميت كل شهواته . وهذا يعمل بهدوء وسكون ، بحيث يشعر الخاضع لنعمته أن الجسد قد استؤصل نهائيا ، مع أنه فى حقيقة الأمر الواقع يكون لا يزال موجودا ، ومتحفزا لإظهار ذاته إذا ما عطلنا عمل الروح القدس لحظة واحدة (غل ٥ : ١٧) .

ليس الأمر الذى يعنينا هو ماذا يستطيع المسيح أن يعمله ، بل ماذا تعهد بأن يعمله ، طبيعى إنه سوف تأتى لحظة نخلع فيها هذا الجسد ويكمل فيها فداء كل كياننا ، وذلك باتخاذنا جسدا على صورة جسد ربنا . لكن إلى أن يتم هذا ينبغى أن نحمل جسدا يميل إلى أن يدفعنا إلى الخطية ، وذلك عن طريق الميول التى يثيرها الذهن (١ كو ٩ : ٢٧) .

ومع ذلك فيقينا إنه من الأفضل جدا أن تحل فينا باستمرار نعمة الروح القدس الحافظة المقدسة ، كمصدر لخلاصنا من الجسد ، عن أن ترجع إلينا طبيعة آدم قبل سقوطه ، التى على الأقل قد تسقط ثانية أمام هجمات المجرب .

كنا سابقا نسكن فى بيت مطبخه رطب جدا ، بحيث كان الخادم فى بعض الأحيان يكاد ينزع البياض عن الحائط . لكننا كنا نشعل النار دواما فتمتنع الرطوبة ، ويبقى المطبخ دافئا وجميلا . وإذا ما دخله أى شخص غريب كان لا يدرك مقدار ميل المطبخ إلى الرطوبة . لكن إذا توقفت النيران مدة بضعة أسابيع ، أو حتى بضعة أيام ، ظهرت الرطوبة . هكذا عندما يعمل الروح القدس بقوة فى النفس فإنه يشعلها بحرارته ، وتصبح الميول الشريرة كأنها لم تكن .

قيل لنا بأن العمال الذين كانوا يحفرون النفق السفلى المخترق لندن عثروا على طبقة رملية تنفذ منها المياه بصفة مستمرة . لكن النفق كان يُحفظ جافا تماما طالما كان الجزء الذى يُحفر يُملأ بهواء مضغوط . هكذا يُحفظ القلب طاهرا وحلوا طالما كان الروح القدس حالا فيه بقوة . إذن فمن ألزم الأمور أن نحيا فى الروح ، ونسلك بالروح ، لكى لا نكمل شهوات الجسد (غل ٥ : ١٦) .

التجارب لا تأتى من الخارج فقط كما يزعم البعض . قد تأتى الشرارة من الخارج ، لكن مخزن البارود فى الداخل . « كل واحد يجرَّب إذا انجذب وانخدع من شهوته » (يع ١ : ١٤) . والشيطان ساهر ومتيقظ دواما بسبب وجود هذه الميول الشريرة فى الداخل .

طالما كنا محفوظين بقوة الله المقتدرة فنحن فى أمان ، ولا يبقى الصراع فى الداخل بل فى الخارج . وكل قوات الجحيم لا تقوى على المؤمن الذى يتمتع بحلول روح الله فيه ، هذا الذى يعتقنا من ناموس الخطية والموت . سلموا أنفسكم لله ، اقبلوا بالإيمان الامتلاء بالروح القدس ، ثم تقدموا إلى النصرة الأكيدة بقوة ابن الله .

٣- عزاء للمجربين

١- **ليست تجاربكم غير عادية** . كلنا لنا نفس التكوين الجسدى ، وكلنا نفس التجارب . « لم تصبكم تجربة إلا بشرية [١] » (١ كو ١٠ : ١٣) . « نفس هذه الآلام تجرى على إخوتكم الذين فى العالم (ع ٩) .

٢- **الله يتحكم فى كل تجربة** . لا يمكن أن يجربنا الشيطان دون أن يعرف الله مقاصده أولا ، كما حدث مع أيوب . ويبدو أن الشيطان يطلب السماح ليجرب قبل أن يهجم ، كما حدث مع بطرس . وعلى أى حال لن تصيبنا تجربة أقوى مما نقدر على مقاومتها وغلبتها . ونحن يُسمح لنا بأن نجرَّب لكى نتعلم الالتجاء إلى المصادر التى قد نكون متغافلين عنها لولا هذه التجارب .

٣- **الشيطان عدو مقهور** . **اسهروا وصلوا** . « اصحوا » فى أمزجتكم وعاداتكم ، فى أقوالكم وأفعالكم . لا تهملوا قط البقاء فى حصنكم الحصين ، أى المسيح . استمروا فى ملازمة قطيع الله . غذوا أرواحكم بكلمة الله ، لكى تكونوا أصحاء وأقوياء . البسوا سلاح الله الكامل . قاوموا أول هجوم للعدو ، مهما كان الهجوم ضعيفا . كونوا راسخين فى الإيمان . تطلعوا فى الحال إلى الرب يسوع المسيح لكى يسيّج حولكم بسلاحه الكامل ، ولكى يقف بينكم وبين العدو المهاجم ، كترس واقٍ . قاوموا إبليس فيهرب منكم . ادخلوا الحرب واثقين من النجاح . ليكن هذا هو شعاركم « **وهم غلبوه بدم الخروف** » (رؤ ١٢ : ١١) . وليكن هذا هو هتافكم أثناء الحرب :

« يسوع يخلّص ، يسوع يخلّص »

---

(١) « ما أصابكم من التجارب إلا ما هو بشرى » حسب ترجمة اليسوعيين ، « لم يصبكم من التجارب إلا ما هو عادى عند البشر » حسب الترجمة الإنجليزية .



٣١ : الدعوة للمجد الأبدى

« وإله كل نعمة الذى دعانا إلى مجده الأبدى فى المسيح يسوع بعدما تألمتم يسيرا هو يكلمكم ويثبتكم ويقويكم ويمكنكم »
(١ بط ٥ : ١٠) .

يا له من فرق شاسع بين الهجمات المشار إليها فى الآيتين السابقتين وبين النعمة الغنية التى تبرزها لنا هذه الآية .

لماذا نخاف من هجمات عدو النفوس اللدود طالما كان « إله كل نعمة » هو إلهنا ؟ فيه يتوفر كل نوع من النعمة نحتاجها . فيه نجد نعمة فوق نعمة ، بحيث إذا استُخدمت نعمة كانت هنالك نعم أخرى متوفرة . ولعل هجمات الشيطان يُسمح بها لكى نضطر إلى الالتجاء لمخازن النعمة المكتنزة فى يسوع المسيح ربنا . « فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا ، وأنتم مملوءون فيه » (كو ٢ : ٩ و ١٠) .

لم تسقط قلعة أدنبرة ، الجاثمة فوق صخور شاهقة ، فى يد العدو سوى مرة واحدة ، وذلك عن طريق راعى غنم كان يقود غنمه بجوار الصخور الغربية الشديدة الانحدار ، التى كانت قد تُركت بلا حراسة باعتبار أنه من المستحيل الوصول إليها . ومع ذلك فقد كانت هذه الكارثة نافعة لكل الأجيال التالية ، لأنها كشفت عن نقطة ضعيفة فى الدفاع ، فوُضعت فيها حراسة مضاعفة . لذلك فلنشكر الله إذا ما هاجمتنا التجربة ، لأنها تكشف عن بعض نواحى الضعف فى أخلاقنا تحتاج إلى الاهتمام

السريع ، وتدعونا للتطلع إلى المصادر الإلهية لطلب نعمة خاصة كنا نجهلها ، فصرنا نطلبها بالإيمان منذ تلك اللحظة .

يا له من تعبير رائع « إله كل نعمة » . نعمة تنير من يطلب اللـه ، نعمة تبرر المؤمن ، نعمة تعزى الحزين ، نعمة تقوى الضعيف ، نعمة تقدس الشخص الدنس ، نعمة حية محيية . قدّموا إلى هنا جراركم لتملأوها وتأخـذوا كل ما تحتاجون إليه . إن نعمة الله ، المقدمة إلينا بمحبته التى لا نستحقها ، سوف تسـد كل أعوازنا . المحيط تُطلق عليه أسماء مختلفة حسب الشواطئ التى تحف به . وألوانه تختلف باختلاف الصخور التى فى قاعه . لكنه هو محيط واحد ، ومياهه تتلون باختلاف الأمكنة . هكذا الحال مع محبة الله ، رغم أن كل محتاج يكتشف فيها كل ما يلائم حالته . « إله كل نعمة » .

•

١- نصيبنا المجيـد

قد يبدو أمرا غريبا غير قابل للتصديق أنه « دعانا إلى مجده الأبدى » ، لكن هذه هى حقيقة الأمر الواقع . هو يعطى كل نعمة ، وهو يدعونا إلى كل مجده . إذن فنحن نقف فى نعمته ، « ونفتخر على رجاء مجد الله » (رو ٥ : ٢) .

سوف نرى عن قريب ذلك المجد فى كل جماله ، مجد صفات الله المبارك إلى الأبد . كانت هذه هى طلبة مخلصنا : « أيها الآب ، أريد أن هؤلاء الذين أعطيتنى يكونون معى حيث أكون أنا لينظروا مجدى » (يو ١٧ : ٢٤) . نحن لا ننظر إلى ظهره فقط ، كما حدث مع موسى ، لما كان فى نقرة من الصخرة (خر ٣٣ : ١٨ - ٢٣) ، ولا ننظر نظرة عابرة ، كما حدث مع التلاميذ لما رأوا مجده إذ كانوا معه على الجبل المقدس ، بل نراه وجها لوجه فى شركة مستديمة . لما قارنت ملكة سبأ زيارتها القصيرة للملك سليمان فى قصره بما يتمتع به من خدامه المقيمون معه هناك ، صرخت صرخة الحسد على نصيبهم ، وقالت : « طوبى لرجالك ، وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما » (١ مل ١٠ : ٨) . تأمل إذن فى عظمة نصيبنا فى كل الأجيال .

سوف لا نرى هذا المجد فقط ، بل نشترك فيه . « أنا قد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى » (يو ١٧ : ٢٢) . لقد صرنا شركاء مع المسيح فى مجده ، فى « غنى المسيح الذى لا يستقصى » (أف ٣ : ٨) ، فى فرحه الظافر الذى لا يُعبّر عنه . صرنا واحدا معه فى وحدة تامة . « ليكونوا واحدا كما أننا نحن واحد . أنا فيهم وأنت فىّ ليكونوا مكملين إلى واحد » (١٧ : ٢٢ و ٢٣) .

وهذا المجد أبدى . ليس بالنسبة إلى طوله ، بل إلى صفته . لأنه من العسير أن نتحدث عن تتابع الزمن . يقينا إن الكلمة تعنى أكثر من ديمومة هذا المجد وعدم انتهائه . إنها تعنى عدم فنائه ، وعدم تلوثه ، تعنى أنه إلهى ، وأن فيه كل الكفاية . هو الخبز الذى إذا أكله الإنسان شبعت روحه مهما كانت شهيته متسعة جدا . هو الفرح الذى لا يتعب منه الإنسان ولا يكل أبدا . هو المعرفة التى لا تحدها أية ألغاز . هو الحياة التى تصل إلى الطول والعرض والعمق والارتفاع لتلك الروح التى خلقها الله على مثاله . هو المجد الذى يحقق ، بل يفوق جدا ، أسمى الرغبات والتمنيات التى بعثت من أقدس شخصيات جنسنا تلك الصرخة « أرنى مجدك » (خر ٣٣ : ١٨) .

لا تحدثونا إذن عن الأسوار التى من يشب ، أو الشوارع التى من ذهب ، أو اللآلئ البراقة . فهذه لا تُشبع نفوسنا كما أن اللآلئ لن تعوض العروس عن غياب ربها . إن مهمتنا هى الحصول على ذلك المجد الذى دعانا إليه الله فى المسيح يسوع . وبنعمته الغنية سوف نحصل عليه ، لأننا قد حصلنا فعلا على نعمته ، التى هى بداية المجد . والله لن يعطينا العربون إلا إذا كان مستعدا أن يعطينا كل نعمته مع كل مجده .

آه ، من ذا الذى يلبى هذه الدعوة ، التى تدوى فى كل العالم ، والتى قد تكف سريعا عن أن تنادى ؟ يقينا إن بنى البشر لا يقدرون أن يدركوا ما تتطلبه إطاعتها . إنهم يفكرون فيما يجب أن يتركوه أكثر من تفكيرهم فيما يجب أن يتقبلوه . أما إذا عكسوا الوضع ، وفكروا فيما يتقبلونه يقينا من يسوع المسيح ، فأعتقد إنهم يرتضون أن يتركوا كل شىء .

٢- طريقنا إلى ذلك المجد

« بعدما تألمتم يسيرا » . **الآلام حتمية** .بضيقات كثيرة يجب أن نرتقى إلى فوق لننـال أجرنا . لا إكليل بدون الصليب . وبدون چثسيماني لا يوجد قبر فارغ . وبدون كأس الآلام لا توجد كأس الفرح . وبدون تلك الصرخة الأليمة « إلهى إلهى لماذا تركتنى » لم يكن ممكنا أن يقال « لذلك أقسم له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة » (أش ٥٣ : ١٢) . ليس من الضرورى أن يتمجد كل من يتألمون ، لكن لا يتمجد أحد دون أن يكابد أى قدر من الآلام . يجب أن نشرب كأسه ، ونصطبغ بصبغته ، إن أردنا الجلوس عن يمين ويسار الملك .

فليتشجع ويتشدد المتألمون . وإن لم يكونوا هم الذين جلبوا الآلام على أنفسهم ، إن كانت آلامهم غير ناشئة عن أخطائهم أو خطاياهم ، بل من عداوتهم للخطية وللعالم الحاضر التى لا بد أن يسببها أتباعنا للمصلوب ، إن كنا لا نحتملها خاضعين فقط ، بل بسرور ، كالذين يسرّون بإتمام مشيئة الله - فعندئذ تؤدى بنا الأنات إلى الطريق نحو هدف النور والمجد .

والآلام لازمة لبنيان أخلاقنا . لم يشته الرسول لحظة واحدة أن يُعفى منتصروه من الآلام . لا يلجىء الله - إلا الضرورة القصوى - ليعرضنا للآلام ، ولا يمكن أن تتم سعادتنا الحقيقة بغير هذا الطريق . ولن نتعلم دروس الطاعة إلا فى مدرسة الآلام . والرب نفسه تتلمذ فى هذه المدرسة ، إذ قيل عنه إنه « تعلم الطاعة مما تألم به » (عب ٥ : ٨) . لا يمكن أن نتنقى من الأدران الكثيرة ، أو نتخلص من التبن الكثير ، أو ندرك مقدار تفاهتنا ، أو نزداد تعمقا فى شركته ، أو نعرف قيمة الأشياء الحقيقية بمقارنة الحاضر بالمستقبل ، إلا حينما ندرك أنها « لا تقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن » (رو ٨ : ١٨) .

والآلام محدودة . إن وصلتْ إلى أسوأ ما يمكن فهى ليست إلا يسيرة ، أى لفترة قصيرة : « بعدما تألمتم يسيرا » ، تذكروا كيف كرر الرب يسوع هذه العبارة مرارا كثيرة : « بعد قليل » (يو ١٦ : ١٦ - ١٩) . كانت نغمة محببة له . إذا ما قورنت أطول الأيام بالأبدية فهى ليست إلا برهة وجيزة . وإذا ما قورنت أثقل التجارب بثقل المجد وُجدت خفيفة (٢ كو ٤ : ١٧) . وينبغى أن « لا ننظر إلى الأشياء التى تُرى بل التى لا تُرى » (٢ كو ٤ : ١٨) . والجبال التى تُثبط عزيمة السائح تُرى ضئيلة إذا قورنت بجبال الألپ . والبكاء لا يبقى إلا فترة المساء القصيرة ، وعند نور الفجر ينقشع ، لأن الترنم يأتى مع الصباح « عند المساء يبيت البكاء . وفى الصباح ترنم » (مز ٣٠ : ٥) .

عندما يهل علينا ذلك المجد ، فإن آلام الزمان الحاضر لا تُذكر بقدر ما يذكر الجندى بوخز الشوكة يوم الترحيب العظيم به ، وتتويجه بإكليل الظفر .

حينما يدنو الختـــام وأرى شـــط الســـلام
تفتـــح الصـــدر الرحيب وتقبـــلنى يـــا حبيـــب
وإلى تـــلك الربـــــوع تهدى نفسى يا يسوع

٣- غذاؤنا فى الحياة الروحية

ينبغى أن يكون كل رجائنا فى الله . ينبغى أن لا نهتم بمقاومة صعوبات نمونا فى النعمة ، كذلك ينبغى أن لا نضطرب بسبب ما يبدو بأن نمونا بطىء . إن كنا فقط مستعدين ، وواثقين ، ومطيعين ، فإن الله لا بد أن يتمم الباقى . « الله نفسه هو يكلمكم ، ويثبتكم ، ويقويكم » .

« يكلمكم » . يضعكم فى الوضع الصحيح بحيث تعمل فيكم مشيئته دون أى عائق ، كما تعمل مشيئة كل كائن بشرى فى كل عضو من أعضاء الجسم البشرى العجيب التركيب .

« يثبتكم » . يؤسسكم على صخور الدهور ، الرب يسوع المسيح ، حتى إذا ما « نزل المطر ، وجاءت الأنهار ، وهبّت الرياح ، ووقعت » عليكم لا تسقطون (مت ٧ : ٢٥) ، لأنكم مؤسَّسون عليه ومتأصلون فيه .

« يقويكم » . إنه لا يرفع عنكم الآلم أو التجارب ، لكنه يعطيكم نعمة أعظم ، ويمنحكم قوته . وعندئذ تمجد النفس الله من أجل الضعف والتجربة ، قائلة بسرور : « الرب نورى وخلاصى ممن أخاف . الرب حصن حياتى ممن أرتعب » (مز ٢٧ : ١) .

كم نكون آمنين وأقوياء إن كنا فقط نذهب من وقت لآخر لإله كل نعمة ، طالبين ، بجرأة مقدسة ، نعمة تعيننا فى وقت الضيق ، وواثقين بأنه سيكون لنا حسب إيماننا ، لا حسب إحساسنا . لعل أليشع لم يحس بأى تغيير بعد عودته من توديع إيليا الذى اختطفته المركبة النارية . فقد كان منظره وإحساسه وقتئذ كما كان فى صباح ذلك اليوم . لكن تغييرا عجيبا حدث فيه ، وكان هذا التغيير ينتظر أن يُظهر ذاته عند نهر الأردن . هكذا نحن أيضا قد لا نحس دواما بالتغييرات العظيمة التى تتم فى داخلنا تدريجيا استجابة لإيماننا . لكن عندما نقترب من شاطئ أية صعوبة أو تجربة ، فإن تصرفاتنا وانتصاراتنا تفتح شفاه المتطلعين إلينا ، فيهتفون قائلين : « هو ذا الله هنا » .

فلنمجده . لا تتردد عن أن تخبره بما تعتقده فيه . وسط كل أحقاد أعدائه ، وتجديفاتهم عليه ، وإساءاتهم له ، ينبغى أن نسبحه بالفم والقلب ، قائلين : « له المجد والسلطان إلى أبد الآبدين » . لترتفع أصوات التسبيح أكثر فأكثر طالما بقيت الحياة . وهكذا نسبحه « إلى أبد الآبدين . آمين » .



الفهرس

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٨٢٨

طبع على مطابع شركة تريكرومى للطباعة
ت : ٩٣٥٧٥٦

مكتبة المحبة



MAHABA BOOKSHOP

٣٠ شارع شبرا ناصية شارع البعثة – ت : ٢٤٤ ٧٥٩ – ٧٧٧٤٤٨ – ص. ب. رقم ١٢ قصورة الشوام